obeikan.com

اسمها هند

obeikan.com

اسمها هند

المؤلف: محمد بن سيف الرحبي
(كاتب من سلطنة عمان)

الطبعة الأولى: 2016 (مسقط)

الناشر:

بيت الغشام
للصحافة والنشر والترجمة والإعلان
مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير
(سلطنة عُمان – مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24591646 - 99260386
ص.ب: 2068 الرمز البريدي: 133
www.altakween.com

التصميم الداخلي والغلاف: منيرة الهطالي

حقوق النشر محفوظة ولا يحق إعادة
الطباعة أو النسخ
إلا بإذن كتابي من المؤسسة

رقم الإيداع 299 / 2016
رقم الإيداع الدولي (ISBN):
978-99969-2-045-5

obeikan.com

obeikan.com

لا يفترض أن تكون رواية..

ربما..

ومن الصعب أن تقرأ كواقع،

حتى أني، بنفسي، أصبت بحيرة السؤال:

هل ما جرى هنا حقيقة أم متخيل؟!

obeikan.com

obeikan.com

الإهداء:

إلى العام الخمسين من عمري،
جئتني بعد نصف قرن،
كم بدوت لي قبلئذ..
بعيدا جدا.. جدا..
كأنك المستحيل.

obeikan.com

اسمها.. هند

أوراق العمر على طاولتي مفتوحة على جبهات متعددة، معقّدة، وملتبسة، أصعب من القدرة على ملاحقتها، تصدمني أشياء لا تحصى، بينها تكرارية طرح أفكاري، ما الجديد أسعى إليه في رحلتي الغائرة داخل كهوف الوقت؟..

ما يدهشنا اليوم بجدّته يصبح قديما بعد برهة من الوقت، إنما هل هو جديد حقا؟! وجوده أو تأخر اكتشافنا له؟

يعتمر نفس القبّعة مدعيا أن علاقتنا معه حديثة، تبدو للمرة الأولى في فعل المداومة على تناول إسبرين الحياة لعلنا نتخفف من صداعها، ونغرس في جلودنا المزيد من المضادات الحيوية لمقاومة اكتئاب متسلط.

على طاولة مكتب أو طاولة حياة، جدير أن نفتش عن المختلف حتى نشعر بطعم آخر للحياة لا يتكرر، لنعيش.. لنتعلم كيف نرى المتكرر جديدا، نعتاد تساوق الوقت على محبرة اعتياديتنا، كتجدد الدم في شراييننا، دور مضخة القلب الاستمرار في تجديده، الدم القديم لا قيمة له في دورة الجسد الحي، علينا مهمة القيام بمهمة القلب لتبدو الحياة على نحو ممكن الإطاقة.

التكرار يفرض شروطه مهما بدت الخيارات متاحة، الكتابة مستمرة ومتكررة الفعل يوميا، السفر متكرر إلى درجة العادية والشعور بأن ركوب طائرة يشبه ذات الفعل مع السيارة، وأنه حالما تستوي في الفضاء لا شيء يبدو خارجا عن المألوف، النافذة الغائبة في سواد الفضاء، أو عتمة التخيل.

يا إلهي، كل هذا الصخب يتصاعد من عمقي وقد لاحت الخمسين عاما مثل حكاية عتيقة يأتي بها صوت كهفي يرتّل آياته في المسافات المغروسة على شوارع أمامي!.

السنوات تقاطعات شوارع، العمر امتداد خريطة.. والحيرة إشارات مرور، وأزحف كرجل كهل يضع الشوارع على كتفه، والخريطة تحت قدميه، وحيرته كل ما يراه حينما يلمح أشجار الزمن تتساقط خلفه، عرّاها خمسون خريفا، ولم يفض الربيع بما يكفي من زهور، على يميني شتائي وعلى يساري صيفي.. وخريفيات تنحت في عقلي، وحدها تريد حبس الوقت في مفرقها، فتتساقط أوراقي، أشعر برأسي كشجرة تكتسي بالعري.

مراودات تتصاعد كأبخرة، قديمة بامتداد نصف قرن، الطفل يرتعش بصرخته الأولى يكتشف أنها جديدة وطازجة ما تزال، كان يرفس جدار رحم أمه ادحتجاجًا، ويرفس خشبات المهد البائس معلقا بين وتدين تذمرا، وبينه والحياة عشرات السنين من تبادل هذا الفعل الرافض، يا إلهي.. كيف يستطيع فعل شيء حينما يمدد في لحده الأضيق عليه من كل ما عبره من ضيق؟!

كثيفة الحياة كشجرة..

عارية كصحراء.

وتتكاثف في جمجمتي غابات، وألمح عربي دون ورقة أداري بها سوءاتي.

أضغط على زر المذياع ليصمت الصوت قليلا، لكنه لا يعمل أصلا.. أتاكد من النافذة علّ صوت يتسرب، يقذف به الخارج إلى قوقعتي داخل محيط السيارة المارقة عبر تقاطع إشارات المرور، على مقربة من المستشفى السلطاني، سيارة إسعاف تعبر على عجل، بأمل إنقاذ حياة قبل أن تطير الروح في المدى أمامنا، لا نراها، لكن ثمة جسد يتألم في تلك العربة الغامضة، المسرعة، يغالب أمره لتبقى الروح متمسكة بأمل ما في الحياة.

الصباحات كسلى تستيقظ بين يدي، كأنّي أعبر حلما، أو كأنه يعبرني على حين غفلة مني، لم أتهيأ له كما ينبغي لعابر ينتظر حلما.. يعبره.

لكنه يتفتت لحظة عبور الإسعاف أمامي.. أتبيّن أن الصوت الذي أقاوم تسرّبه إلى أذنيّ يأتي من داخلي، حياة تقاوم الموت في سيارة تسابق الزمن أمامي، وحياة تبحث عن أخرى أستبقيها بكسل عبور سيارتي، البرهة التي تسمح بها إشارة المرور بلونها الأخضر، نحن أيضا نفعل شيئا مشابها، نستبق اللحظات الخضراء لنعبر الضفة الأخرى من المكان مسرعين خشية تبدّل اللون، الأحمر مخيف، يضغط على أعصابنا، كحال الثور نتشابه معه..

الكائن البشري الذي تحمله سيارة الإسعاف ربما ينزف، حادث سير أو ما شابه، لون دمه الأحمر لا يحب التوقف أمام إشارات المرور الحمراء، يريد كسب معركة الحياة قدر الإمكان، أملا في مساحات خضراء تسمح بها حياته.

نغمة هاتفي تتقاطع مع الصوت المندفع داخلي، استيقظت في وقت مهم، شعرت أن صوتي الداخلي متخيّل بقسوة، نغمة أغنية أجنبية وضعتها منذ سنتين تكفي لإعادتي صوب واقع أن لا صوت هناك، حتى سيارة الإسعاف التزمت الصمت، إنه «**الوقت لنقول وداعا**» استشعره كلما علا صوت نغمة هاتفي، على الطرف الآخر صوت صديق هوايته الضحك.. يغدو الضحك لديه هواية حقيقية، يفتّش عنها بين تفاصيل حياته الجادّة، يجدها حاضرة بين يديّ.

أقاوم كآبتي بادعاء الضحك، ألاحقها بمزيد من الضحك، ومحاولة الادعاء أن كل شيء على ما يرام، ومسارات الحياة من حولي جميلة، أجمّلها لأجمّل داخلي، أسعده بخبر طيب وألقمه بيانات عن أوضاع ليست على ما يرام، لكنني أقول، وأقنع نفسي، هي طبيعة الحياة ولا ريب، كل شيء على ما يرام لأن طبيعة الحياة تقول إنه لا يجب أن يكون كذلك أصلا.

لست بشجاعة محارب الساموراي إذ يغرس سيفه الضخم (الكاتانا) في قلبه.. قلب الحياة جميل، ستبدو الحياة أجمل لو عرف قلبنا الطريق إليها، وعرف مسالكها ليسير فيها، أحاول التفاؤل قدر عدّتي من الفرح.

التنميط مضر بالصحة، هكذا أشعر بالجملة كما هي تلك الحروف المكتوبة على علبة سجائر، الحب مضرّ بالصحة، الفقد مضر بالحياة، وتترادف الجمل في مخيلتي إذ أتخذ الطابور الطويل من السيارات أمامي، أشعر بالزحام، رغم أنني عرفته حقيقة مرّة في عدد من مدن الدنيا، الاعتياد على السير دون عائق..

الزحام في الشارع، يجعلني أحسب عدد مرات اشتعال اللون الأحمر أمامي وانغلاقه على بقية اللونين، أحب الأحمر، لكنني أكرهه عندما يلوح أمامي، في مساري، أعشق اللون الأخضر، يسمح لي بالانطلاق.. في شارع غلا الصناعية أو شارع السلام في المعبيلة أو.. شارع الحياة.

أوقف سيارتي في نفس المكان تقريبا، وأسير بذات العدد من الخطوات، أقابل وجوها تتكرر، تتشابه، وأضغط على زر المصعد بذات الطريقة، واختار ذات الزر الدال على طابق يلزمني السير إليه دون خيارات متاحة..

أكرر ذات الفعل.. أخرج المفتاح من جيبي، أفتح مكتبي، اضغط على زر الحاسوب، الطاولة بعين الحيرة، الوردات على الطاولة ذبلى.. غادرها اللون الأحمر المبتهج تاركا للقتامة فرصة التسلل إلى روح بتلات كانت عابقة بالحياة ذات صباح، في حديقة ما، في متجر ما، وصولا إلى طاولتي.

حينها ذبلت أمام عيني، أنا العاشق للورد، حياة وعبقا.

ثمة انكسار في قلب يراقب الذبول يزحف على الأشياء كساط في

هجعة غفلة، مجبول على السطو إن أحجم توقف نبض قلبه.

بدا ذبول الورد شيئا مختلفا.. اختلف عن الأمس، اختلف عن جهاز الحاسوب بجواره، الأجهزة الفاقدة للإحساس، الصمّاء المنتظرة ضغطات بذات التناسخ كي تعمل، الورد لا يبتسم كلحظة حضوره إلى مكتبي، تبدّلت إشراقته، تسللت منه حياة بدأت رحلة الروح بعيدا عنها لحظة وداعه لغصن كان ينغرس في تربة تبدو بعيدة من هنا، أسرته التي كانت حوله، جيرانه في الحديقة، الربيع الندي.

صحف الصباح متناسخة، تشبه الحياة، دورة الأيام المكرورة، الصهد المندفع من الروح، يعمّق ذلك التشابه كآبتنا، يعرقل محاولاتنا للخروج قليلا من التنميط، آملا في جراب الحاوي يخرج ما ليس مألوفا، إنما الأفعى تدلق لسانها كمن يستعرض لوحة فنية مبهجة أمام الواقفين، والزمّار يدفع نايه إلى أقصى حدود الأنين..

السلة الباردة التي تحمل الورد الذابل بدت لي كسلّة الحاوي، وثمة بشر وقوفا يندفعون في دهشتهم بين أفعى تتلوى وناي يبكي، خطر الكوبرا ينبعث كبركان سام من سلة الحاوي، سلة الورد، وفم الحاوي ينفخ جسد الناي كي يتقاطر الحزن أكثر، الخوف مرادف للحزن، جسدان، أفعى وناي، وجسد ثالث يكسب لقمته من تدافعهما، الجسد الجامد، الناي، وحده الذي يتكلم، وبقية الأجساد تنده على حنين وشجن وحزن يتخفّى كانما ينتظرون الافعى أن تأتي به في دورتها الأخيرة خارج جسدها المستلقي كسلسلة.

ورقة بيضاء كتبت عليها جملة أعجبتني قبل يومين، صاحبها اسمه زيج زيجلر، أعدت قراءتها: « **لن تستطيع تغيير حياتك ما لم تغيّر شيئا ما، كنت تفعله كل يوم، السر في نجاحك الشخصي يختبئ داخل روتينك اليومي**»..

ما الذي أستطيع تغييره في جمجمة هذا الروتين، وقد تلاقى مع جمجمتي فاتّحدا كأنما كائن واحد يحدد خارطة خطواتي كل يوم؟

لا شيء سوى الكآبة تدلق لسانها على الأوراق، والقلب.. كأنما معنيّ بأحزان الآخرين وخياراتهم في الدنيا، أو عدم وجود خيارات لديهم، يندفعون إليها، قبل أن يسقط السقف على رأس الحلم، ويطبق على أنفاسه.

تعدد سقوط السقف عليهم، تبددوا مع أحلامهم..

قلة ناضلوا، حتى وإن ماتوا، لكنهم ماتوا وقوفا على الأقل.. ربحوا حياتهم، وخسارتهم بالموت ربح أيضا.

خلت نفسي أسقط في لجّة التفلسف أكثر مما أحتاج..

تناولت دفتر مذكرة أمامي، قلّبت صفحاته، ألقيته جانبا، تناولت «مكتوب» لكويلهو، أعجبتني فقرة نقلتها إلى دفتر المذكرة «**كم هو سهل أن يكون الإنسان صعبا، يكفيه أن يرفض كل ما تمنحه الحياة من أشياء أفضل**».

دخل أخي ماجد، بيده باقة بنفسج، هدية لم يتبيّن مرسلها، أخرجتني من حالة الملل، تأملتها، تناولت المزهرية، أزلت الوردات الذابلة، التي

غادرها الضحك، رميتها إلى سلة النفايات تحت الطاولة، وضعت زهر البنفسج، الحزين والغامض، كانت ضحكته عالية على الطاولة، ماذا يهمّ من أمر مرسله طالما أنه ألقى بحجر جميل وأنيق إلى سطح مياه راكد.

أفكر في مشروع الرواية الجديدة.. يلزمني بعض الهدوء لأذهب إلى مناخات عالم حي يحتاج إلى صفاء ذهن فأخترعه على مهل، وأقاوم عدم الرغبة في كتابة أي شيء كأنما العمر منخل لا يحتفظ حتى بقليل من الحبر، مما أرقته عشرات السنين من خلفي، وحده الفراغ يقف في الامتداد ورائي، أكاد أراه يقف أمامي، يداي خاويتان من الحروف، كأنما تلك الأوراق ليست لي، ولا أستطيع كتابة شيء آخر.

.. وأنظر للبنفسج، أخاطبه بعيني من فراغ، محاولة ملء المسافة، الزهر يخجل وراء غموضه، وأشعر بابتسامة خجلى على وريقاته.

أحدّث نفسي بالهروب، لا أريد القول إنها هي التي حدثتني بذلك.. أحاول أن أقنعها بعدم الجدوى من البقاء في الـ«هنا»، الـ«هناك» يبدو أفضل، الضفة الأخرى من النهر تبدو أجمل، طبخة الجيران تبدو أشهى، المرأة الأخرى أكثر أنوثة.. وتداعت انسحابات الأشياء على بعضها البعض.

مغامرة من أجل الحياة، الإحساس بها على نحو تحتاجه الروح القلقة لعلها تطمئن، كأنما الحياة فعل اطمئنان، لنتخيّلها كذلك إذ نقاوم قلق الموت، قلق النهايات العابرة لكل ما هو يقين بين أيدينا، المغامرات خارج حدود اعتيادية الأشياء حياة تجدد حياة، المجهول إغواء، الوضوح

ملل، المسافات بين اللونين الأبيض والأسود رهافة حس تبتغي عمرا أجمل للون، ينغلق على سواد، أو فراغه يصنع البياض.

فكرة الهروب تراودني منذ زمن، لأكسر نمطيّة المطلوب مني دائما، أن أقدم لنفسي ما تريد.. أسافر إلى جزيرة بعيدة، كما تلوح الفكرة للمتخيلين دائما، جزيرة لا خط هاتف فيها، ولا خدمات إنترنت، ولا شيء من نتاج العصر، أعود إلى زمن الكهوف، لا شيء إلا ذاتي أجلس معها، لعل في عمقها حديثا لم تجد الوقت لتقوله لي، أدخل إلى كهفها، لعلي أقول لها ما في عمقي، وقد تحجّر الصوت داخلي لأن أصوات الآخرين تصنع جدرانها الوهمية والسميكة كلما تقادمت في أعماقنا، جبال متضخمة، تحجب الرؤية، أو قرص الشمس.

أن أبقى وحدي، أقرأ وأكتب، وأمشي بين حقولها الخضراء، وأسير على شاطئها الحلمي، أشاغب الموج، ولا مانع أن أحلم بحورية جميلة تخرج من وسط البحر، تكسر عليّ وحدتي إن حاصرتني قليلا، وحين يهطل الصباح على نومتنا بين أغصان الأشجار المتكاثفة تأخذني إلى قاع البحر ألتقي حياتها هناك، سأنسى الكتابة والكتب، وأعيش بينهم، كائنا بشريا كان، غادر صدفة حياته فوق الأرض مختارا صدفته المائية، في لجّة الماء ما يغري بحياة جديدة يبحث عنها لا تتشابه مع حياة البشر المضجرة.

تخيلتني أتخفّى عن أفكار الكتابة مراوغا، لن أقول للحوريات تعالين أقصص عليكن أحلامي، لا لغة إذ يمحو الماء كل اللغات.. وحدها زرقته، ولا جمال يتنفس في شفافية الماء إلا جمال كائناته..

في ذلك المتخيل لا أريد أن أتنفس، سأغمض عيني، وأبالغ في الحلم.

لكني، على طاولة مكتبي، أبالغ في استدعاء هذياناتي، أو أنها تبالغ في محاصرتي، أي عالم أفتح نوافذه على رواية جديدة تأخذني هي إلى مناخاتها، متلذذا مرة بعطر اللغة، ومرهقا مرات من إعمال الذهن والجلوس ساعات على كرسي، في غرفة مغلقة، بينما العالم يعيش في خارجها بشكل أفضل، مشاهدة مسرحية كوميدية، فيلم، أو مسرحية سياسية على إحدى الفضائيات الإخبارية العربية، من باب التسلية لا أكثر، أو الشعور بأن ثمة لا جدوى من نقار الديكة..

الكتابة أفضل الخيارات بعد القراءة، أتمنى لو يعود الزمن، لأبقى قارئا فقط، لا أكتب سطرا، والصفحة على الحاسوب تبتغي نقاطا سوداء تتراكم لتتشكل حروفا وكلمات وأسطرا.

يأتي ديدار، العامل الهندي في المؤسسة، بكوب الشاي الساخن يبحث له عن بقعة فارغة على سطح الطاولة بما عليه من أوراق وصحف ومجلات وكتب، نظرتُ للكوب لأتأكد من نوع الشاي هذا الصباح، يعتمد العامل على مزاجه في تحديد نوع الشاي، مرة يأتيني به بالحليب ومرة باللون الأحمر، أو بالأخضر.. وهو يحدد أيضا الوقت المناسب لي للمجيء بهذا الشراب اليومي المعتاد في حياتنا، صباح مساء.

أفسح له ما يراه من اختيار، وأشرب الشاي على مهل، ولا أفكر في نوعيته طالما أنه مجرد شراب للاستراحة بجرعات منه بين دقيقة وتاليتها، وفكرة وتداعياتها، وأسأل نفسي، أو هي تسألني: ماذا تريد من

رواية جديدة؟ أي جرأة تستطيعها بعد أن حوصرت الأفكار من حماة الأخلاق، وفرضت الوصايات من بشر كثيرين، حتى من ذلك الذي لم يقرأ طوال حياته ربع كتاب؟.

هل يلزمني جرأة؟ هل الجرأة جسد أو حكومة؟

ولماذا الجسد بالتحديد؟ وكيف نكتب عن السلطة بعمق الإحساس لا برفع شعارات ساذجة نحاول إدانة الحكومة بها.

وفي جسد الكتابة متسع خارج كتابة الجسد..

أومن بالحرية، أستطيعها أو لا أستطيعها.. أن أحدد مقاس حريتي بما يكفيني بمنأى عن مقاسات يفرضها آخر، وصاية على صياغة الجسد عبر الكتابة، اقترابا من الواقع أو وصفه بما يكفي لانتزاع موافقة الرقيب الرسمي، ضاربا عرض الحائط موافقة الرقباء الآخرين.

يا للجسد اللعنة!

نقترب منه، نسقط فيه، ثم ننفض أيدينا طهارة، لا يجب أن نكتب شيئا عن ذلك الملعون مخافة أن يطاردنا، فنسقط في فخه، أو في فوهة بركانه الحارق.

جدليّة أسقط في بئرها.. تدفعني إليها، أو أنني من يذهب إليها طائعا، مستعذبا ما يحدث، رغم هزليته.

وتختنق الحروف في رئتي.. على مهل، تذوي الرغبة في الكتابة، مع انحسار السائل في كوب الشاي، أرفع صوت الراديو بجانب الحاسوب،

وأمضي إلى آخر حدود اختيارات إذاعة الـ أف. أم، كلاسيكيات الموسيقى العربية، دفء الكلمات واللحن، وتموّجات أصوات تتلاقى مع الروح، فتتدفّق حياة وتجدولني ذكريات.

يا لأحمد فتحي، صوت اليمن والعود..

«لا تسافر يا حبيبي..

خلّنا بالله نرتاح من قساوات الزمن

خلها النيران تهدأ.. وسط جوفي،

لا ترجّعني لخوفي،

خلّنا ننسى مواويل الشجن».

أراهن على الحاسوب للخروج من حالة إحباط صباحية تأتي أحيانا على غير توقع، تهب كعاصفة ترابية تباغت السائرين، بينما الطقس كان صحوا، والشمس تقبّل الجباه بصفاء حاد.

أفتح صفحة بيضاء وأتأملها.. ليس من أجل كتابة رواية حتما، تلك لها مكتبتي المنزلية.. وأذهب إلى أقصى حدود المتعة الشجنية مع تقاسيم عود أحمد فتحي، وصوته الباكي..

على البريد الإلكتروني ثمة رسائل جديدة، بعضها معتاد حيث السيّدات العربيات، وقد استبيحت بلادهن حروبا ودمارا، يبعثن برسائلهن يوميا، طلبا للمساعدة أو للنصب تحت وهم الثروة التي تبحث

obeikan.com

عن شريك تحوّل إليه الملايين، كلما حلّت نكبة ببلد عربي تأتي الرسائل بأسماء نسائه.. بذات المعنى، والصياغة، رسائل أخرى من شركات ترسل أخبارا لنشرها في الصحف، ودور نشر تريد توزيع كتبها في مدينة لا تملك مكتبة حقيقية كما يحدث في مدن العالم من حولنا.

لا جديد آخر.. كتاب يريد صاحبه نشره.. رسالة إعجاب من قارئ أو قارئة على مقال سابق، منذ اختراع الفيسبوك والتويتر اختفت رسائل الشتم حيث تحولت إلى أسماء وهمية في الاختراعين الجديدين.

رسالة من هند.. هكذا اسم التعريف، لم تذهب إلى خانة البريد المزعج لاحقة بسابقاتها من رسائل النصب والاحتيال، أفتحها بتكاسل، طويلة كما تبدو، ومن خلف نظارة القراءة لا أتبيّن المكتوب بتمعن، ربما يتشابه الأمر مع ذات الصيغة المعتادة: أنا سيدة سورية، أو سيدة عراقية، وأخيرا أنا سيدة يمنية، والعرض واضح ومباشر، توفي الزوج تاركا ثروته، انتقتني بين رجال الكون لتحوّل لي ما ورثه المرحوم، المأسوف على شبابه، كأنني لن أشك لحظة في عدد نسخ الرسالة الذاهبة باتجاه أرجاء المعمورة، تأتي أحيانا مترجمة بشكل سيء، تولّى العم جوجل ترجمتها.

تجاوزتها سريعا، مؤجلا قراءتها ريثما أنتهي من تصفح الفيسبوك، ووضع مقالي اليومي على الصفحتين، الخاصة والعامة، وتأمل التعليقات على مقال الأمس، هاجس خفي يبحث عمّا وراء التعليقات، يبقى معلقا كجرس صغير على حواف القلب، بمتعة مستكشف لا يعرف مساحة الخطوة التالية ولذتها، كأنما هو في مأمن من مفاجآت اللامرئي.

آلاف الأصدقاء «الفيسبوكيين»، ما أشد انتحار المفردة في هذا العالم الافتراضي، لماذا لم يخترع رجل الفيسبوك الأول كلمة غير مفردة «الصداقة» تقرّب المسافات بين رجال من العالم ونساء أغلبهم يبتغي ما لا يصل إلى نبل اللفظ؟!.

فتاة، أو أفترض أنها كذلك، تكتب أنها عمانية، تريد مساعدتي..

لا تريد أكثر من «بطاقة شحن هاتف».. أضحك بسخرية الأشياء تتكدس في فراغ هكذا، وأنظر إلى فراغ أمامي أشد سخرية من الواقع..

قاسٍ أن تكون كاتبا ولا تجد الدرب إلى تفرعات خارطات الكتابة أمامك..

تكاد تغصّ بالكلمات لكن الكلمات تصفن كجياد مفزوعة..

كمثل الموسيقيّ يحتضن عوده بأصابع أصابها العطب.. في الروح ثمة لحن، لا تعرف الأصابع الدرب إليه..

في الروح الكثير من الكلام، لكنه كماء بعيد في بئر عميقة جدا، لا تستطيع حبالك أن تصله، وقلبك يعصره العطش، تود لو أن شراييه تكون حبالا تلقيها في عتمة البئر لعلها تستقي قطرات.. من حروف، تبرّد روحك الباحثة عن كلمات، والأسطر المتراكمة على شاشة الحاسوب هي علاج روحك / روحي.

قبل خروجي من مكتبي وصلتني صحيفة الحياة، عنوان عن قمة كامب ديفيد، بين أوباما وقادة دول مجلس التعاون الخليجي، أو من يمثلهم، حيث غاب أكثرهم ولكل منهم أسبابه، عناوين أخرى عن

الحوثيين والوضع في اليمن، وتقدم داعش في الأنبار العراقية، وخسائر النظام السوري لمواقع جديدة.

هل سأروي للحوريات حينما أسكن قاع البحر، بجوار تلك الجزيرة البعيدة، ما يحدث في دنيانا؟ وهل سيسألنني عن حوريات أرضية تشبههن جمالا؟

دفنت نظري في قراءات مختلفة، وأذني في موسيقى يلقي بها العالم كأمواج بينها ما يكون زبدا لا نفع فيه.

قبل أن أغادر مكتبي تذكرت إغلاق جهاز الحاسوب المكتبي، إطلالة على السيد جي ميل، رسالة من دار الأوبرا السلطانية، خبر لم أفتحه عن فعالية قادمة، وعن فرقة رضا للفنون الشعبية هذه المرة..

ورسالة أخرى من.. هند.

وضعت المؤشر على رسالة هند، فتحت الرسالة، لم تكن إلا صورة باقة زهر البنفسج التي وصلتني صباحا..

عدت إلى رسالتها السابقة..

وجلست أقرأ، على الحائط توقفت ساعة الوقت.. لم أبال بها.. وقت آخر يجذبني إليه.

اسمي هند

الأستاذ العزيز..

تحية صباحية في بداية يومك، وأنت تفتح بريدك الإلكتروني لتجد رسالتي هذه ضمن عشرات الرسائل التي تنتظرك، أتخيّل ذلك كونك كاتبا مشهورا، وربما يخيّل لي، وأظنه لك أيضا، أنك مشهور، ولك الحق في الظن بنفسك هكذا، ولكل كاتب معجبون ومعجبات، يقلّون أو يكثرون، ولا أظنها جودة المكتوب أو ضعفه معيار ذلك.

أتخيلكم، معشر الكتّاب الرجال، تكتبون أشعاركم، وخواطركم، وربما حتى رواياتكم من أجل النساء، أن تفوزوا بالمزيد من القلوب المرهفة، أن تسقط في شباككم امرأة ما، ليس بالضرورة أن تكون تصوراتي صحيحة، لكنني أتحدث عمّا أحسه، لا ما يراه الآخرون، والمعجبات ينلن من الحظوة لديكم ما لا يناله أي رجل يكتب إليكم.

وسأتوقع أن تنال رسالتي اهتماما منك، لأني امرأة..

لكنني يا سيدي الكاتب لست من المعجبات.

لا بك، ولا بهم.. أيّا كانوا..

ولا من اللاتي يغرّهن كلام كاتب يقعن في غرامه، من أول حرف، ولا من آخر نقطة في نهاية سطر، أقع في غرام رواية خاصة إن كتبتها امرأة، ولنساء معيّنات، لا يحاولن أن يبعن الجنس وتأوهات الجسد في كتاباتهن، إنما لديهن قضية في حياتهن، قضية حرية وكرامة، لا قضية رغبة أو سرير، والسبب في كل ذلك رجل يمسك مظلة الحب أو الخديعة.

بالطبع أقرأ للرجال، لكن بمقاييسي أختار ما أقرأ.. ومن أول عشر صفحات أقرر، أن أمضي في تكملة الرواية، أو أنها محض خرافات متخيّلة.

أنا قارئة لك، وفقط، لا شأن لي بشهرتك، أكانت حقيقية أو متوهّمة.. ولا أحوم كفراشة، ولا حتى كذبابة، على قنديلك، أو قناديل أي أحد، أو أطعمة أي كائن، لأني مشغولة بنفسي، وما يهمها، عن ذلك الآخر الذي يمكن أن يغريني، بكلمة أو وسامة..

أقرؤك كثيرا، ووجدت في حروفك نبضي، أصارحك، كأنك تكتبني..أحفظ قولك:

كلما فكرت أن أكتبك.

تساقطت الحروف من أصابعي..

تساقطت.. أصابعي.

.. وأشغل نفسي عن نفسي بروايات أغلبها مترجمة، وإذا شغلتني نفسي فبالبحث عن تشظياتها، كما أدميها بساديتي، أو كما تدميها الظروف من حولها، فلا أستطيع سوى الرد بيد جافّة تشققت، من استمرار الحفر داخل نفسي، أو النبش في جدران الآخرين محاولة اصطياد حكايات جديدة أتسلى بها، محاولة التخفيف عن عذابات الروح، واصطلاء الجسد.

وحدي أحدد حواف هاويتي، وأرجع دونها قبل السقوط في فخ رجل، بدا طالب حب أو طالب جسد.

ولا تطلبون الحب إلا كطريق نحو الجسد، ويلتقم البعض الطعم فتبتلعه الشباك.. وأفواهكم، ومنّا من يقاوم قدر الإمكان، لكن لعبة الزواج هي الشباك الأخطر، نعتقد أننا بها في مأمن من ألعابكم، اللعبة البريئة / الشريفة، فإذا بأمراضكم المتوارثة تتصاعد رائحتها، رغم محاولاتكم استخدام أجود أنواع العطور.

أحتاج إلى رجل.. ولا أحتاج.

كمن يتمنى الموت ساعة يأس أتمنى رجلًا في حياتي.. لكن الذكور وحدهم يخرجون من جحورهم ويصفقون لجسدي.

أحيانا أتساءل: كيف أمضي إلى حواف الهاوية كما ادّعي وأنا لا أرى الحياة من حولي سوى هاوية متسعة لا يمكن سوى السقوط فيها؟ لماذا أدعي أيضا أنني لم أسقط؟ هل السقوط يعني فقط الوقوع في سرير

رجل؟ ماذا عن كل هذه العذابات التي أتجرعها وأكابد لظاها؟ أليست هي السقوط ذاته؟ الجبّ يأخذني إلى القعر بينما أتجرأ على القول أنني لم أسقط.

سأتجرّد من أقنعتي أمامك، ربما لأنك لا تعرفني ولن تعرفني، سأتحدث بعفوية لم يستطع طبيب العيادة النفسية النفاذ إليها، لأني أردت العلاج منه لا الانكشاف، كشف الحجب التي أتوارى بها عن الجميع، أن تبقى خزائني ملكا لي فقط، للطبيب المعالج الحق أن ما يخفف به تداعيات حالتي النفسية عني، أن أستطيع الوقوف على قدمي فقط، أما الركض فسأتقنه بنفسي.

أمعن في الكتابة إليك رغم التردد أشهرا كنت أتصادم مع واقعي، وأبحث في المتخيّل عن نفسي، وخشيتي أن لا تقرأ رسالتي، ليس لأنه يمثل لي حلما ربما يفوتني، بل لأنني أجهدت نفسي في كتابة لا تصل إلى مبتغاها، وشعوري أنني أتخلص من شيء في داخلي عندما أجرب فعل الكتابة، والطبيب يريدني أن أتكلم أمامه، ويقول لي اكتبي، يريدني أن أكتب من أجله، ليقرأني، أنا لا أريد إلا أن أقرأ نفسي، أو أمام من لا يراني، ولا يعرفني.. كأنت.

هل موفق أن أستخدم جملة «**أتخلص من شيء في داخلي**» وأنا لا أريد ذلك لأشياء كثيرة في داخلي رغم أنها تؤذيني، لكن طالما اخترت دربها فهذا قدري الذي لا حيد عنه ولا مناص، هذه الجملة الأخيرة قرأتها ذات مرة، فحفظتها، وتضحك أمي عندما أردد عليها هذا،

تضحك في مرات قليلة وهي عائدة من عملها الذي أحقد عليه، رغم كل الحسابات الأخرى.

ستتساءل: أين تعمل أمك، ولماذا تفعلين ذلك؟

سيأتي أوان ذلك حتما، سأقول لك ما أعرفه عن عملها، وعليك أن تبحث، فربما يلهمك الأمر رواية.

دعك من أمي، فهي كنز حكايات لا ينتهي، فقط لو يعرف أحد فتح مندوس حكاياتها المغلق بإحكام..

إذا كنت وصلت في القراءة حتى هذه النقطة فذلك يعني أنني كاتبة جيدة، استطعت خطفك وإخضاعك لتقرأ رسالتي، سأقول لك شيئا آخر قد يحفزك أكثر للصبر عليّ، اعتبر الأمر مشروع كتابة رواية جديدة، ربما سأنشرها في مؤسستكم، أو لك حق سرقتها ونشرها باسمك، ألا تفعلون ذلك معشر الكتاب والشعراء أحيانا؟

لا أتهمك، ولكني لا أثق فيكم أيضا، أتخيّلكم دائما لسانا يقطر بعسل الكلمات إنما لا يلامس القول في قلوبكم ما يشبهه..

في نص ما شعرت أنك تكتب إليّ وحدي.. شعور كاذب أدركه جيدا، أسمّيه كما يفترض تسميته، لا أنخدع، لكنه ألقى شعورا طيبا في روحي:

لا ينتبه الخريف، سيدتي

لما يتبقى من ورق في غصن شجرة

آثرت السكينة،

وحيدة، في آخر الغابة

أو في بداية أي شارع.

لا تنتبه كل الفصول،

للأوراق المتبقية في أجندة العمر

القصية هناك،

في آخر بقعة منسية

لا يصل إليها الحب.

نعم يا سيدي، أنا البقعة المنسية التي لا يصل إليها الحب، الخريف الذي قفز فوق كل فصول عمري ووصل إليّ باكرا.. كيف تختصر السنة فصولها في خاصرة حياتي هكذا؟ أم أن وهمي أكبر من كل منطق؟

أعرف قليلا كيف أرتّب الكلمات لتبدو قريبة الشبه بما تكتبون، هنا أجرّب، وعليك وضع ما تراه من كمية العسل اللازمة لتكون هذه الكلمات حلوة وشهية، هذا هو مرادي، أن أرى كيف أبدو في رواية، أراني المرأة التي كتبت نفسها، وهي ليست كاتبة، وقام كاتب بنسج الخيوط التي أعطته إياها فصنع منها ما يشبه حياتها، باكسسوارات اللغة، أو من خلال مرور قصة حياتها على قالب روحه متخذة رؤية تتوهج بروحين.

obeikan.com

بدأت بالقراءة لك منذ أمد بعيد، كأنه قبل ميلادي، منذ أن رأيت اسمك للمرة الأولى قبل سنوات أراها أطول مما أستطيع العد، أبدو كأني قرأت كل ما كتبته، وأحفظ بعض النصوص عن ظهر قلب، كيف يقتحم كاتب عالم من لا يعرفه؟! ما كنت أصدّق لو لم أقع في هذه المصيدة التي أحببتها، ربما لشعوري أنك تكتبني دون أن تعلم، لغتك سلسة، تحاورني بقرب، وددت لو راسلتك لكني أحببت أن أبقى بعيدة، لسبب واضح: أن أحتفظ بصورتك المثالية التي أقرؤها عبر الحروف، وغالبا، كعادة الكتّاب، لا تكون كتاباتهم كمبادئهم..

لا أبرر تأخري في الكتابة إليك، ولا أقدم تبريراتي لأحظى بقبول منك، أنا هكذا، واضحة وصريحة ولا أسمّي الأشياء كما تجري العادة بمسمياتها المعروفة، بل أنسج لنفسي المسميات التي أحب، وقاموسي الذي يناسبني، فهل كل قارئة معجبة، أو من يرسل إليك رسالة فهي معجبة؟!..

لا أملك رؤية واضحة لكيفية حكمكم على الإعجاب، أتصور، فقط، أن غرور النفس أحيانا يصوّر ما ليس بحقيقة، يغريها بتصورات تكون جاذبة أحيانا، وغالبا قد تكون.. كاذبة.

لا أحب الكلمات الجاهزة والمعدّة مسبقا، ولا الجمل الفارغة القابلة للاستخدام في كل زمان ومكان، تغريني الكلمة التي أخترعها وأسوقها إلى المكان الذي أريده، وحدي من يخترع، ويسوق، وينتظر النتائج، وينظر فيها.

هل سيدور في ظنك الآن أنني كاتبة أتخفّى خلف بريد إلكتروني، ليشاغبك، وأن هذه الكلمات لا يجيدها إلا المشتغلون بالكتابة؟!

واثقة أنها لن تخرج على الورق إلا من خلالك، وستعرف لاحقا كيف يمكن ذلك..

هل تصدّق؟!

أجلس أمام شاشة الحاسوب في غرفتي ساعتين، ومنذ يومين وطّنت صبري على ذلك، أن أكتب، رسالتي هذه ربما ستحتاج عدة أيام لتكتمل، أكتب أشياء كثيرة ثم أمحوها، أراجع ما أكتب، لا أريد الانكشاف هكذا دفعة واحدة، في لحظات أتصور أنه يمكن لك أن تعرفني فأختار مفتاح الإلغاء على الكثير مما كتبت، وبعدها أندم، أضعت على نفسي جهدا كان يمكن أن يبقى إضافة في مشروعنا المشترك.

أتحدث عن مشروع..

الحياة بالنسبة لي مشروع، يبدو خاسرا حتى هذه اللحظة.. النجاحات الصغيرة على جبل الخسارة لا تبدو سوى صخور مدببة، مبهجة رؤيتها لكنها يقينا لا تعني أنها انتصارات، بل هي أقرب إلى حبات بروفين تسكّن الألم فنشعر أن المرض غادرنا، مرض الخسارات قاس أيها الكاتب، ربما جرّبته، لكنك على الأغلب تجاوزته، لأنك تكتب بتفاؤل، حتى حين الحديث عن خسارات يتجرّعها وطن.

مفجع أن تنهض من نومك ولا تجد نفسك.. وإن وجدتها فهي كومة ملقاة على الفراش لا تريد الاقتناع بثمة حياة هنا، وأن حياة هناك، خارج الباب..

حياة داخل الضمير أو خارجه..

حياة مؤثثة بالصواب والخطأ، نقبلهما معا، مع أننا لا نستطيع ذلك حيث لا يمكننا أن نرفضهما معا.

البارحة كنت أقلب رواية عالم صوفي لجوستان غاير، أقرأ فيه عن الضمير الذي عدّه سقراط الصوت الإلهي داخله، ليقول له ما هو الصواب، «**الذي يعرف الخير يفعل الخير أيضا**» و«**الرؤية الصحيحة للأشياء تقود إلى الأفعال الصحيحة، فالذي يفعل الصواب هو فقط الإنسان الصحيح، وعندما نتصرف بشكل سيء فذاك لأننا على خطأ**».

ما هو الخطأ؟ ما هو الصواب؟ ما هو الضمير؟

ومن أنا بين كل ذلك؟

هل وجدت فرصتي لأفهم ماذا تعني لك تلك المفردات، وما موقعي بينها؟!

كغيري، أشعر بأني امرأة.. غير.

هذه «الغيرية» إن صحّ التعبير، أو صحّحها لي، ترهقني كثيرا، قال لي الطبيب إنها محاولة مني لوضع لمسات تجميل تداري تمزقي الداخلي،

كل امرأة تشعر بأنها «غير» امرأة ممزقة الداخل، وكلمة «غير» ليست إلا الفستان الجميل الذي تضعه على مظهرها ليراه الآخرون، وقد صدّقته أولا، وإن لم يشعر به أحد.

اشتريت ذات مرة سيارة فخمة.. فاجأت بها حارتنا، والمدرسة التي أعمل بها، أردتها لمسة التجميل التي مزقت في داخلي أكثر مما أراد الطبيب علاجه من خلال جملته، لكن صوتا ما في داخلي صرخ في وجهي: «بنت الـ.....» تركب رنج روفر، وكلما قدت سيارتي لم أجد ما أردته، بل تصرخ نظراتهم، وعمقي، بما لم أرده، وما لم أتوقعه.

هل أرهقتك بالقراءة..

إذا وصلت هنا فذلك أنك مستمتع، أو أنك لم تبدأ السطر الأول بعد، وسيذهب ما كتبته لك خلال أيام هدرا، لا تقلق، أحتفظ به، وإن لم تجبني سأرسله إلى كاتب غيرك، إنما ليس لكاتبة.. وقد تدرك متأخرا هذا الأمر، أو أنك تحذف الرسائل حتى دون أن تقرأها.

ببساطة.. أبسط مما تتوقع، اسمي هند.

سيدور في ظنك الآن أنه ليس اسمي الحقيقي، وأنه من وحي خيال فتاة أرادت مشاغبة كاتب مشهور، أو يظن نفسه أنه مشهور، أو يصدق ذلك لكثرة ما يسمع الكلمة من آخرين حوله.

نعم يا عزيزي، اسمي هند، تصدق أو لا تصدق.

ذلك لا يعنيني كثيرا..

يحدث أن لا نختار أسماءنا..

ولا مسارنا.

في الكون حولنا أشياء لا تحصى مما لا نختاره، ولا نريده، في أحايين كثيرة لا نريد حتى أنفسنا، وعندما نبعد عن الضجيج من حولنا يتفجر في داخلنا ضجيج أشد، فننسى ما كان من حجمه السابق، لأن متاعبه تراجعت أمام ضغط التالي، ولا نحتفظ في ذاكراتنا إلا بالتجربة الأخيرة للمرارة.

وعيت على الحياة ووجدت اسمي معي، اسم غريب في مجتمع لم يألفه لطفلة، زميلاتي في المدرسة ناديننني هنّود فأحببت الاسم أكثر، ولم أسمعه من أمي، ولا من اخواتي حيث لم أجد في البيت غيري وأمّي، أين ذهب البقية؟ كما يحدث في المنازل الأخرى بوجود الأب والأخوة والأخوات، سألت أمي، ولم تكترث بتكرار السؤال عليها.. لا ترغب أن تفتح مندوس حكاياتها، حتى عن الكنوز الصغيرة العادية، أن أعرف نفسي بين هذه الجدران؟ أين من يكملون المشهد؟

ربما، أبالغ في وصف الأشياء من حولي..

لو أخبرتك عن يومياتي ستجدني فتاة عادية، وتعيش كما يعيش غيرها..

مشكلتي مع نفسي أني أعاني من عمق تخيّلاتي، فأبدو على قدر من البؤس لا تكفي الكلمات لكتابته، أراهن عليك لتكتب قصتي كما

أحسها، لا كما أعيش تفاصيلها، المملّة أحيانا، لكن عليك الاحتمال، فربما ستكون بين يديك فكرة رواية، وسأطالبك بالنسخة الأولى ليكون أول من يقرؤها بعد صدورها ككتاب، كما أنني أول من عاش أوجاعها على مفاصل أيامي.

يحدث أن تبنش خارطة الذكريات من حولك على توقع خروج نحلات بالشهد من بين بتلات الورود المخبأة في حدائق روحك، لكن تتفاجأ بكثرة اللسعات حيث لا نحل يأتي بالشهد، ولا داخلك حدائق ورد.

هكذا أنا، متعبة بصراخي الداخلي، لست شريرة، ولكني لست طيبة.. هكذا أنا صريحة أمام نفسي، أواجهها بشكل صارخ، كما واجهتني الحياة بصورتها الصارخة كثيرا.

(ملاحظة: كررت عليك في الجملتين السابقتين كلمة الصراخ والصارخ كثيرا، أرجو التقليل منها إذا أحببت، وكما ترى في رسائلي التالية).

هل أشبه أخريات أم أنني أتوهم فرادتي بين نساء من حولي ألتقيهن بابتسامتهن الطيبة والبسيطة؟

وخلف الابتسامات الطيبة والبسيطة صحاري من الاغتراب والتيه..

وابتسامتي تتسع لكل الصحاري بما فيها من اغتراب وتيه، وهي «**سر الصنعة**» في حياة أريدها حرة، كما أشتهي أنا، لا كما يشتهي طلاب

الاشتهاء، حرة بروحي، فيما أضع جسدي على خرائط منقوشة بإزميل حاد، على صخرة العناد، والمكابرة..

أنا أنثى، لا تنحني مهما بدت العواصف عاتية، تنكسر.. ليس ثمة مشكلة، الانكسار سنّة الأنوثة، أنثى لا تنكسر ليست بأنثى، لكن هناك من ينحني وهو منكسر لأنه متعب من توالي انكساراته، وأنثى تتمتع بحواف الهاويات فتعود أكثر قوة كلما انكسرت، ولأني أقرأ زوايا الانكسار بتخطيط مسبق أراوغ العاصفة لأضحك حين تهب، وأضحك أكثر حين لا تهب: لأن الانكسار أصاب رجلا، من أولئك الذين رغبوا في انكسار جسدي على أيديهم، فكان انتقامي أنني كسرت أرواحهم أكثر.

حينها فقط يضحك زهر البنفسج.. أراه يضحك بقوة، أسمع صوته تعليها البتلات على الحواف الغامضة لأوراقه.. زهر يقاوم الريح.

العاصفة يغريها الفراغ لترقص فيه.. لكنها حتما تخشى الوقوع إذا ضاق الفراغ بها، قلبي فراغ مترام، والعواصف اعتيادية، أرهقتني العواصف لكن لا حيلة أمام الفراغ سوًى جذب العاصفة لتمرح قليلا، هكذا صادقت عواصفي، استأنستها، أكلمها لتبدو أليفة.. وفي لحظات ما أشعر أنها تقتلعني، لكني أراوغ نفسي وأقول إن هذه عواصف الآخرين، تضربهم بعنف، أنا واقفة، انظري يا هند إليهم، إنهم يتألمون لفرط السقوط على أحجار كانوا يريدونها لرجمي، أحجار الكون يجمعونها، كانوا، لرجم هذه التي تبدو كأنها الزانية الأخيرة على وجه الأرض.

هل أبدو شريرة كما تشعر من كلماتي هذه؟

ذات حين لا أشعر بهذه الغيرية، أعود إلى قناعة: لست إلا امرأة عادية، ولدت كما يولد أي طفل في الدنيا، وجدت أمي وحدها، ولم أجد أبي، ولا أعرفه، لم يحملني بين ذراعين تبدوان مختلفتين عن ذراعي أي رجل آخر في عينيه اشتهاء لا أكثر.. عشت في حارة عمانية بسيطة، لها جيرانها، الذين نعتقد أنهم طيبون، وأولئك الذين نتصورهم شريرين، وكما نتخيل أنفسنا دوما أننا محسوبون على النوع الأول.

إذا كنا جميعا طيبين فمن أين يأتي الشر؟

ما معنى الشر؟

أمقاومة الراغبين في احتلال أجسادنا، والنيل منهم شرا؟

يا له من شر مغلف في علبة هدايا فاخرة فيبدو أجمل من الخير نفسه.

هذا هو شري، وهذا تفسيري للطيبة داخلي!!

قالت صديقتي ذات يوم أن أغلب الرجال عقولهم صغيرة، لا يريدون من المرأة سوى أن تكون آنية تفريغ، ومنذ قولها ذاك أدير مخططاتي بما يناسب هؤلاء الرجال كأنه موكل عليّ الانتقام من ذوي العقول الصغيرة والشهوات الكبيرة.

قالت صديقتي إن الرجل حين يلتقي بامرأة ما تنتهي خططه معها باستكماله قذفته الجسدية، ثم يخور، ويريد الانسحاب سريعا، ولكنه يعاود الكرّة كلما هجس برغبة «التفريغ» مرة أخرى، وأي امرأة تبقى إناء تفريغ، لكنها لا تنتبه لذلك!

سأبدو لك معقدة جسديّا، وروحيّا، ونفسيّا، وربما ما هو أبعد من ذلك، وستستدعي كل ما قرأته من علم النفس، وما قاله سيجموند فرويد عن التفسير الجنسي للسلوكيات البشرية وما يرونه من أحلام في مناماتهم.

لك حريتك فيما تطلبه، لكني أستمتع بقضيتي هذه، ولعبتي، أن ألعب بمن يحاولون اللعب بي، أما الذين لا يرغبون في تبادل اللعب معي فهم في مأمن من حبائلي..

لا أخفيك سرا، في مرات عدة أخشى أن ينقلب السحر على الساحر، وأن اللعبة تخدع لاعبها، وتخذله، وفي هذه الهاويات ما يخيف..

بين السفح والهاوية مشاعر مشدودة على وتر القلب، والقلب عضلة صغيرة من الأحلام والمشاعر، ولا أريد لهذا التعيس أن يغرق، فغرقه مهلك، ومن حولي ألعاب كثيرة لا أريد الرحيل عنها.

بهذه الألعاب تكتسب حياتي معنى، أن أعيش حكاية، أن لا أصحو على فراغ، أن لا أضطر إلى مواجهة نفسي وجه ا لوجه، في مرآة المواجهة اصطخاب لا تقدر عليه روحي.

أنسى مخاوفي وأمضي في اللعبة من جديد، شباب يتنوعون ويتشابهون، في الأعمار والرغبات، وفي المستويات القبلية والثرائية، وفي جنونهم وحماستهم، وحين يتساقطون من حول شجرة الرغبة أكاد أسمع أنينهم، ويمضون، بعضهم لا يبالي بما تساقط منه، ومنهم

من يطاردني، لكن لا أثر لي أتركه، رقم الهاتف النقال ما أسهل تغييره، ولا يعرفون عني إلا ما أعطيه لهم.

أعود بغرور منتقم أخذ بثأره.

خفيفة كامرأة أخرجت ما في بطنها، بعد حمل كان، أو بعد مغص في البطن.

أرى نفسي أمام مرآة نفسي حالة عصيّة على الفهم، أي نار أحملها في داخلي لتحرق التخوم الخضراء من حولها، بمبررات لا تأتي إلا من دهاليز سوداء ومعتمة، هي دهاليزي لا محالة.

في طفولتي أختار الأولاد لألعب معهم لعبة «اللتّك» أو «اللتج» كما ننطقها أحيانا، نضع المربعات على الأرض لنقفز عليها بقدم واحدة، ونضطر للقفز فوق مربع حجزه صاحب مهارة، يقول إن المربع عروستي، يتكاثر لديه أكثر من مربع، يضحكون عندما أقول لهم إن المربع عريسي، ويضحكون أكثر عندما يتكاثر أزواجي، لا أبالي بعيونهم الشرسة المنبعثة من طفولة يكادون يودّعونها، يشاغبونني لمسا، وأستمتع باللحظة رغم قذائف لساني على أعراضهم.. وقذائف أمي صوب سمائي المضرجة بالغيوم.. واللمسات الطفولية الدافئة.

أعود إلى البيت معفّرة بتراب اللعبة، وبتراب لمساتهم.. أفطن إلى الأشياء متأخرة، لا مبالية حينما كانت.. تطفو.

أكاد أستشعرها رغم تلك السنين المبعثرة بين لحظة القفز فوق

مربعات لعبة مرسومة على الأرض، ولحظتي هذه، حيث كبرت ألعابي، كبرت مساحة اللعبة.. وكبر اللاعبون.

تأتيني تلك النظرة من أمي، نظرة كلما فطنت أنني اقتربت من فهم مغزاها تزداد غموضا، معنى أكاد ألمسه بيدي فإذا هو أنأى من مجرة بعيدة.

- لو أفهم يا أمي...

- تفهمين، لكنك لا تريدين.

- كيف؟

- كل شيء واضح، بس أنت بعيدة عن المعنى.

- وضّحي لي أكثر.

- الواضح لا يحتاج إلى توضيح.

أشعر أن أمي فيلسوفة نسيها الفلاسفة في قريتنا الصغيرة، وأضحك عندما تجمّل حوارها بلغتك، رغم أنني سبقتك قليلا في ذلك، هي تقول «**بو واضح ما يبغاله توضيح**» وأنا كتبتها بلغة فصحى، لا أدري هل ستبقيها أنت كما فعلت بها أنا، أم أن لك مذهبا آخر، كما تفعل مع كلماتي، لتجعلني استمتع بقراءتها، ربما أراها تشبه طفلتي التي ولدتها، وأنت من قام بتفصيل الملابس التي تتأنق بها، لولا ثقتي بأسلوبك ما كنت امنتك على حكايتي.

ماذا تعتقد أمي أني أفهم؟

وماذا أريد أن أفهم أكثر من كوني امرأة سرقت منها ذاتها، ولا أدري من هو السارق، زوجي عندما كان زوجي؟ أو طليقي بعد أن غادرت بيته للمرة الأخيرة؟ أو هاني حين قذفني إلى حلم لا يشبه الأحلام؟.. أو المجتمع من حولي وهم لا يعرفونني بلقبي «الأستاذة» بل «بنت الـ.....».

أو عهد.. آه لو تعرف كيف أحب عهد!!

صوت ضحكتها، خطوتها، جميلة حتى حينما تبكي.

وقبل أن يجرفني نزفنى أحاول أن أغادر ضحكة عهد، لا أستطيع أن أكتب أكثر عنها.. ولا ذكرياتي معها.

منذ أن وعيت على الدنيا لم أتذكر أين تتركني أمي عندما تغيب عن البيت أياما، كأن أمي قبضت ذكرياتي وقطعتها كحزمة عشب ثم نثرتها في وجه هبوب الغربي الحارق، وكلما أريد استعادة أطراف منها أشعر بسخونة تتصاعد من رأسي.

أترك أمر الكتابة إليك يوما وأكثر، وأعود أفتح الحاسوب من جديد، أستخرج الرسالة من «المسودات» في بريدي، كلما أردت أن أضغط على كلمة «إرسال» ترتعش أصابعي، كأنما للحديث بقية في نفسي..

كأنما لا أتصور أنه بإمكاني الكتابة إليك مرة أخرى في رسالة تالية، أريدك أن تقرأني بصورة أكمل في رسالتي الأولى، هي المنعطف الذي

سيقودك إلى رسائلي، إليّ، أو يقودني إليك لأكتب لك وحدك.

أسائل نفسي كثيرا: كيف ينظر إليّ هذا الكاتب؟

أنثى لعوب؟ شيطانة عابثة؟ امرأة استغلالية؟ حالة نفسية تتمسك بالوهم، وتتصور أنها تمتلك حياة مختلفة تستحق أن تكون رواية؟

ولا أدري من الصفات الأخرى التي قد أستحق بعضها، لأنني أجلس أمامك، ولو عبر شاشة حاسوب، لأقول لك أي إنسانة أنا، من خلال أفعالها، جنونها الذي تستعذبه رغم عذابه.

ربما كتبت لك أخريات عن حكاياتهن، وكتبت بعضها في رواياتك أو قصصك القصيرة، كأنما تجد في حيواتنا زادك.. تشظينا محفّزل على الكتاب، أو سكة جاهزة لمرور عربات قطار.

أشعر أحيانا أنني امرأة، ناضجة، تمتلك الرؤية ومفاتيح إدارة الأشياء من حولها.. لا يهم أن تسقط الصحون من يدي فتنكسر..

طبيعة الحياة أن تسقط أشياء من أيدينا، وتنكسر، وربما تقاوم فعل الانكسار، لتنتظره في لحظة أخرى، حياتنا شبيهة بقدر تلك الصحون، قد نسقط في أي لحظة، أحد ما لا يستطيع الإمساك بنا كما يجب، ننزلق من بين يديه، نهبط على الأرض، ولأننا لسنا مقاومين للكسر نتعرض لما هو أسوأ..

إمّا إلى سلة النفايات، أو رجوعنا مرة أخرى في انتظار مزلق جديد، يد لا تمسك، ونحن لا يمكن الإمساك بنا كما يفترض..

وهكذا زجاجنا يمضي، نترقب لحظة تهشم، ولا نيأس، أحيانا، من تكرار السقوط.

هل الجسد وحده دلالة السقوط؟!!

ولأن جسدي لم يسقط، وقد لا تصدق ذلك، فإنني لم أسقط بعد، ولذلك لا يمكن لأحد وصفي بالساقطة كوني حفظت أشيائي من رجال حاموا حولي يريدونها، وأنا أنوثة من نار، أشعر بها لو اشتعلت في رجل سيحترق بها، هل هذا من «الغيرية» التي أرى نفسي فيها؟

لا آبه بروحي، حفظي للجسد دلالة على عدم السقوط، لماذا الأرواح معلقة في ثريّاها دوما كأنها في مأمن من السقوط، رغم ما يصيبها من تهشم لا يظهر للعيان غالبا؟

عليك أن تحاذر سيدي الكاتب وأنت تعيد تشكيل هذه الحروف، أمامك رقيب، وخلفك رقباء، ولا أريد لروايتك المنتظرة مصادرة، وقد نجوت بفعلتك في رواية الخشت، فقط لأنك كتبتها قبل أن يحلّ زمن «الواتساب» و«تويتر»، وهناك من لا يفتش في الأوراق إلا عن مفردات الجنس، ينتقم بها من عقدته «المثقف»، كأنما رسالته في الحياة مهمة حماية المجتمع من شيطان الجنس.

لو تراهم يتساقطون ورائي لما صدقت أكثرهم، هؤلاء المتناقضون.. أرواحهم سقوطها مريع وعبثي، لكنهم لا يحفلون إلا بالظاهر، هذا الجسد في قالبه الفاتن أمامهم، أريد أن أسخر قليلا، وأقول لك، ولا

تحذف هذا أرجوك، أقول إن بينكم الرجال من لا يأبه بالفتنة من عدمها، خيال عباءة يشتهيه مهما كانت ملامح ما في داخلها، المهم صلاحية الجسد ليكون آنية التفريغ، ولا أقول إن البعض لا يحفل إن كان حامله امرأة أو رجلا!.

هل أسرفت في التعبير؟! وهل لديك القدرة على كتابة جرأتي، وإن خدشت، وإن تجاوزت المسموح به في التعبير؟ إنما لا أظن أنني اخترعت شيئا، وحدكم الرجال الذين تجيدون الاختراعات، خاصة في حدائق الجسد، أو حتى في صحاريه، بغبارها وتيهها.

هل تشعر من حديثي أنني سقطت كثيرا، أنا الفتاة القادرة على إدارة الرقاب حولها، دون أن تترك للعاشق المتولّه سوى أمل كالسراب يجري وراءه، أتلذّذ بالعطش يلوي ألسنتهم وشفاههم، وأمضي بخيلاء وسط زحامهم وحطامهم، كأنني خيال أطلّ على أعزل، وقبل أن يسكن إليه ويستكين ينسحب في العتمة، ظلا يغوص في ظل.

لكنني أتخيل دوما أن حياتي جديرة بأن تكون رواية، أنا، أمي، مسارنا في الحياة، قصصنا بما يكفي أن تتحول إلى كتاب.

قصصي مع أمي، وقصصها..

قصصهم معي، أو قصتي معهم.. حقيقة سقوطهم، أو وهم سقوطي، وربما العكس تماما، كما يواتيني الشعور أحيانا.

ربما، لن يحدث شيء من ذلك كله.. الرسالة الاولى كالرسالة

الأخيرة، فاصلة في فراغ واسع، شجرة تين شوكي في تخوم صحراء.

حكايات أمي، امتدادات الأسرار إذ تحتفي بفضول البقاء خلف الأبواب المغلقة، في دواخلنا أسرار لا نعرف قيمتها، دعني أضع بين يديك ما أحسبه محفزك لكتابة رواية، أرجوك أن تسمّيها باسمي: هند.

هل كثير على من يعطيك كل هذه الأفكار أن تجامله بكتابة اسمه على غلاف رواية؟ أظن أن اسمي جميل بما يكفي أن تعنون به مشروعك الجديد، كم أتخيل عنوان صحيفة تكتب عن روايتك الجديدة وعليه اسمي.

دعني أوضح لك قليلا، بما يكفي لتحديد المسافة اللازمة..

يا سيدي الكاتب، لست من النساء اللاتي يقفزن إلى زورقك وتحسب نفسك المنقذ الدائم، هكذا أتصّور الكتّاب دائما، يعيشون على هموم الآخرين ليكتبوها، وما أجملها أن تكون الهموم أنثوية، وما أجمل أن تبقى الأنثى رهينة الإعجاب لتكون الفراشة المنجذبة إلى قوة الضوء.. وتوهج الحضور.

والكاتب ذكر بالبديهة، لا يريد أنثى تفلت من بين يديه، يغويها، يبالغ في الاقتراب منها، ادعاء أنها فراشته التي لا بد أن يسقطها الضوء، ضوؤه، هكذا أتخيل الكتّاب دائما، أو هم هكذا جميعا معشر الرجال، حتى الطبيب وهو يمسك بالسماعة ليضعها على صدر مريضته، إنما العيادات أسرار، كالبيوت، والروايات أسرار، كأسرّة الغرف، ولا أقول

غرف النوم، لأن هذه الحالات تفرض وصايتها على جنون لحظي.. ثم...

ثم تنتهي اللعبة، يغسل الاثنان جسديهما، كأنما ما حدث لعبة وقت، يركل الرجل / الذكر لعبته، وتتعلق المرأة / الأنثى في لعبتها أكثر، لكن لكل من الطرفين وجهته، صوب الروح، أو ناحية الجسد.

يريدها «**كأنما لم يحدث شيئٌ.. أيتها الأنثى**».. وتريده «**ما حدث هو كل شيء.. أيها الرجل**».. وفارق هائل بين ما ترغب فيه الأنثى، وما يحرك الرجل.. أو الذكر المشتهي.

لا تعنيني ككاتب سوى من زاوية صغيرة، وهو أنني قرأت لك روايتك الأخيرة، الشويرة، حفّزتني أن أقترب من عالمك لأراسلك، أن أمضي أكثر في البحث عن كل ما كتبته، أعجبتني كثيرا بعض إصداراتك، لكن صدمتي في روايتك الخشت كبيرة، ليس لأنك احتفيت بالجنس فيها، ولكن كان بإمكانك الاستغناء عنه لتكون الرواية لعبة الحياة الحقيقية، والحياة ليست بالضرورة لعبة جنس.

الجنس ضرورتنا وخوفنا، إنما لا يحتاج إلى الكتابة عنه بتوسّع مريب، لأنه فعل حميمي خاص لا يعني إلا اثنان، والاشتهاء ليس أكثر من فورة جسد، وفي لحظات الفوران ينسحب العقل كثيرا، فهل من العقل أن نكتب الجنون سيدي الكاتب؟!!

هكذا تشعر أنني تورطت أيضا بالكتابة عن الجنس، وربما ستراجع

مفرداتي خشية محاذير أصبحت عالية الصوت، رغم أنهم يجرون وراءه كثيرا، حلالا أو حراما، يتحدثون عنه أكثر، لكن لا يفترض كتابته، كتابته وحدها خدش للحياء، إفساد للمجتمع، لكن عليك يا سيدي الكاتب أن تختار المفردات التي يمكننا أن نشعر بجمال اللحظة المجنونة، لا بؤس السقوط.

وستدرك ما أعنيه حين تتعمق في المسار أكثر.

كان يمكن أن تكون رسالتي هذه إليك منذ سنة، لولا أن الخشت جعلتني في مأزق وشك، كيف سينظر إليّ هذا الرجل، وأنا أنثى وضعت نفسها بين يديه، ولو من خلال رسالة عبر البريد الإلكتروني..

طلبي واضح وصريح، ولا موارية فيه: أريد أن أكتب قصة حياتي، أو روايتها كما تسمونه أنتم معشر الكتّاب..

ولأنّي لا أجيد صف الكلمات ورصفها كما تفعلون أنتم معشر الكتّاب فأنا أحتاجك ككاتب، وبصريح القول: أنت تحتاجني أيضا، في دلوي الحبر الذي تحتاجه أوراقك، أو لنتبادل الأدوار: معي الأوراق وبيدك حبر تعرف كيف ترسم به الكلمات بما يكفي لتكون رواية مقروءة، ولا أعرف أي هوس ساقني إلى هذه المفردة، ولا أدري لماذا أحتاجها!

دع مواراتي دونك خدعة روائية أخرى..

في التخفّي فضول، وفي البوح وقودك..

ساتخفّى وأبوح، بين يديك فضول تحتاجه الكتابة، اكتبني في

خفاء الحروف كي أمضي إلى حدود البوح كما أشتهي.. حتى إذا انقطع حبل الكتابة من منتصفه يمكنك تشكيلي كما تحب، دون أن أضغط عليك بحضوري.

هل هو شغفي بسيرتي وتسجيل انتصاراتي على رجال كانوا يرون أنفسهم الفرسان القادرين على القنص، أو الوحوش التي تريد أن تفترس، حيث الأنثى حالة ضعف دائمة للسير فوق جسدها بغرور المنتصر، فإذا بهؤلاء يتساقطون من على جيادهم، بينما الصيد المبتغى لم ينل من جسده حتى ارتعاشة خوف؟!.

أنقّل بصري بين رواية أقرؤها الآن، وشاشة الحاسوب أمامي، زوربا، وجدتها مصادفة في مشتريات قديمة، قبل أن أجد في الروايات عوالم تتشابك أحيانا مع عالمي، أجدني في بعض الشخوص، بعض الجمل، شدّتني عبارة منها تقول «**إن الروح الإنسانية ثقيلة، خرقاء، عالقة في طين الجسد، ولا تزال تصوراتها ومفاهيمها فظة وبوهيمية، ولا يمكنها أن تتنبأ بأي شيء بوضوح، لا شيء بشكل مؤكد، وإن استطاعت أن تتنبأ، فكم سيكون هذا الفراق مختلفا؟**».

أحسست أنها كتبتني، أو تقصدني بصورة واضحة وصريحة..

هل جربت أن ترى نفسك في شخصية رواية؟

أظن أننا النساء أكثر إحساسا بذلك، ربما لأن معاناتنا واحدة، كون أن السجّان واحد، رافع السوط بالتعذيب واحد، فقط الوجوه تختلف في ملامحها، لكن اليد تبدو، بالنسبة لي على الأقل، واحدة.

حفزني زوربا للمكوث معه أكثر، أن أعزف، أرقص، أغني، أعيد بناء الأشياء من حولي بعيدا عن الذين اعتدتهم.. ألمح البحر والميناء وضحكات البحارة، أن أكون هناك، شخصية بينهم، ربما لا أتخيل نفسي المرأة التي أكونها الآن، بل شخصية أخرى، الأهم أن أخرج من ذاتي، وأكتسب ذاتا جديدة، أفضّلها كما أشتهي.

مؤمنة بأن القدر يأخذنا إلى حيث نريد ولا نريد، هكذا يدفعني قدري للتواصل معك أنت فقط، أريد رواية أستمتع فيها برؤية حياتي على ورق، كما هو بطل روايتك الشويرة، إحساسك به، هل يمكنك سيدي الكاتب أن تكتب إحساسي، سأضع لك حياتي بواسطة الكلمات التي سأكتبها إليك رسالة بعد أخرى، لكن لاتسألني من أنا، هل كثير عليّ أن أطلب ذلك؟

اعتبرني امرأة ما، أهدتك حكايتها لتكتب رواية؟ وأنت كما قرأت عنك عاشق لقراءة الروايات وتحاول كتابتها، هذه أنا إذن بين يديك.

كم أغار من حكايات بطلات الروايات، أتوق لأكون بطلة رواية، لشعوري بأني بطلة في الحياة، وحكاياتي مزق متناثرة كما هي ذاتي، أغالبها، فتغلبني في غالب الأحيان.

ممزقة؟

نعم

منكسرة؟

مؤكد..

لكني أشعر بقوتي بالنظر إلى ما يصيب الآخر من ذات الكأس التي شربتها على يد الرجل، ويريد آخرون سقيها لي مرة بعد مرات، وليس لي من ذنب سوى أنني امرأة في دنيا أبطالها كلهم رجال، وخسائرها الدائمة.. نساء.

ألم يقل كازانتيكس في روايته زوربا «**أن الرجل حيوان حقيقي**»!

وأنا امرأة لا أشعر بالنصر، مهما بدت انتصاراتي عليهم بيّنة أمامي، لكنهم منكسرون أكثر ممن انتصرت عليهم..

منهم من انتظرني ساعة تحت شمس صاهدة، خشية أن يضيع الصيد من بين يديه، ومنهم من وضع كرامته بين يدي، لأنه يتوهم بقدرته على اكتساح كرامتي، لكن ما معنى الكرامة سيدي الكاتب، والأنثى في انكسارها لا تجد يدا حقيقية ترفعها من لجّة غرق يراه الرجال وحلا.. لا محالة؟!

هل تفهمني؟ أعني هل تستوعب كيف تبدو تصرفاتي؟

أغالط نفسي وأطالب آخر أن يفهمني، بينما لا أبدو أمام نفسي سوى صورة باهتة لا ملامح لها، امرأة تتسلّى بالوهم، وأوهامها تتجلى لها حقائق، تؤثث مساحات الوهم أمامها بخليط من رجال يتقافزون إلى مركبها، فتغرقهم ليواصلوا العبور سباحة، لا أريد أن أتخيّل أنهم أقوياء ليعبروا إلى الضفة الأخرى سالمين، أتخيّلهم غرقوا، أكلت حيتان المحيط أجسادهم العفنة، ذابوا في البعيد هناك، ولن أراهم مرّة أخرى، إلا على شكل رجل آخر سيظهر ذات حين، تستمر اللّعبة، وتتجدّد،

أتعب ولا أتعب، أبكي ولا أبكي، أغالب الشعور أنّي أتألم..

أرفع رأسي بالانتصار..

- وأسأل أمي:

- هل تعجبك هذه الحارة؟

- عشنا فيها ستين سنة.

-لكني لم أعش حتى نصفها فيها.

-تزوجي، جربي حظك مرة أخرى، واتركيني وحدي.

-لن يتزوجني أحد، بعد ما حدث، ولأني ابنتك.. بنت .....

وتأتيني تلك النظرة، من عين متسعة على فضاءات لا أعرف قياسات أبعادها، كما هو عجزي عن قياس أبعاد ذاتي القلقة، انتقامي منها إذ أنتقم من آخرين.

هل أنتقم حقا؟!

أو أنها مراوغات اللعبة الأثيرة التي أحبها؟

رجل يرغب وأنثى تتمنّع، يتعب فيذهب إلى لعبة أخرى مع امرأة لا تتمنّع، وأغصّ بشهوتي المعلّقة، مدّعية أنها في مأمن أصبحت.

كررتها أمي كثيرا، وصرت أخاف المعنى، يأتيني المثل «طالع من الخب طاح في الطوي»، فاجأتها بمثل حرّفته من أجل توصيل معناي «الحظ دسّاس ضارب في الساس».. لكنها، هي الحاذقة في الأمثال صوّبت ما اعتقدته أنه خطئي، العرق وليس الحظ، قالت:«العرق معك

والحظ معك، لكنك ناحسة عمرك».

بين ما أكتبه من رؤية لنفسي بعض ما سمعته من طبيبي ذات زيارات أسبوعية امتدت أكثر من سنة، هيأت نفسي أن لا أبوح له أكثر مما أشعر بأنه يستطيع به القبض على شخصيتي ولو قليلا، لم أشعر به سوى رجل آخر يستدرجني لا أكثر..

لمحت بعض عناوين الكتب على طاولته، فبحثت عنها واشتريتها، أريد أن تفهم نفسي نفسي، بعيدا عن رجل لا أنظر إليه سوى غارس لعينين من نار في جسد من.. جحيم.

علم النفسي السيكولوجي، علم النفس الفسيولوجي، علم نفس الشخصية، عناوين لا أستوعبها لكتب لم أفهم الكثير منها، لا حكايات فيها، وأنا حياتي حكايات، لكنها، وللحق، علّمتني كيف أفهم الصياد القادم نحوي على شكل أوضح، كيف ينظر باتجاهي كطريدة يبتغي لحمها، صدري النافر في وجوههم، قوامي الذي بدا لأمي خارجا من غير رحمها، تجاوزت الثلاثين، ربما قريبا من الأربعين، لكن جسدي بقي دون الخامسة والعشرين، معربدا في عريشته عصيا على الزمن أن يبلغ من استقامته وأنوثته الحارقة، كما أراها في عيونهم، وكما أقرؤها في روايات تبالغ في وصف الجسد، ولا تأتي على وصف الروح.

لو أن الرجال ينظرون إلى روح المرأة فقط لاستراح العالم من نصف جرائمه على الأقل..

لكن روح المرأة لا ترى..

كأنما هي حكمة الله أن تبقى في مأمن دون عيونكم، شيء يخصها، وأما الجسد فله العباءة يندس فيها، السواد الطاغي يلفّنا كأنما نعكس به بعضا من دواخلنا.. لكن بياض ملابس الرجال قناع أشفّ من أن يغطّي شيئا.

أمممممم..

هل أنا واقعية في تصوراتي، أو أعيش وهما أحسبه الواقع حقا؟!

من أنا لأنتصر، وعلى جسدي آثار هزائم؟، أولئك الخاسرون يمضون إلى جولات أخرى وينتصرون، ولا يبقى من هزيمتي لهم أثر يذكر، الرجل لا تعنيه الهزيمة من امرأة، وإن بكى، وإن قضى ليلته في مركز للشرطة بسبب فضيحة مرتبطة بامرأة ما.

نحن، وحدنا، من يدفع ثمن المغامرة، ولا أدري لماذا أغامر أصلا، وأي ريح تهب عليّ لأخرج من عزلتي فألعب مع رجل لعبتي الأثيرة، أن أكتب معه مغامرة تخرجني من رتابة الحياة، وأنظر إلى بطل الحكاية، أضع له حدود الدور، وأحدد له خط النهاية، وكلما طال أمد السباق أشعر بلهاثه أكثر، وسقوطه متعبا، كأي كلب أوجعته شمس الظهيرة ولا يجد ظلا يحتمي به؟!.

تذكرت شيئا.. ربما سألتك نساء كثر أن تكتب حكاياتهن، كل امرأة تتوهم أن لديها ما يصلح لكتابة رواية، أنا واحدة منهن بلا شك، لكن لك حرية القرار.

أنتظر في رسالتك ليس قول موافق أو غير موافق.. أو عدم الرد أصلا،

بل هذا الكلام الذي نثرته على هذه الرسالة مصاغ بكلماتك، تصلح ما أفسدته ضعف مهارتي في الكتابة، فقد اعتدت على كتابة الخواطر منذ صغري، وما زلت أومن بتلك الطفلة التي تكتب خواطر، ولن تكبر، لا هي، ولا خواطرها.

هكذا ببساطة أطلب منك.. لديك الكلمات، ولدي الحكاية، وكل أنثى تتخيل أن في قلبها ما يمكن كتابته، قلوبنا صغيرة يا عزيزي، تمتلئ بكلمة أحبك سريعا، وتطفح بالكراهية لأسباب لا تعدونها أنتم معشر الرجال مقنعة، لكنها تكبر فتسامح، وتعفو، وترحم، وتشفق.. كما أنها ليست من ذات الخام الذي صنعت به قلوبكم، معشر الكتّاب، أعني معشر الرجال.

أريدك سيدي الكاتب أن تكتب حكايتي كما يليق بحروفك أكثر مما يليق بي، أن تكتبني كما لو أن الحكاية حكايتك، والذات ذاتك، هل تريد حقا أن تلبس ذات امرأة منهكة وأنت لديك ما ينهك ذاتك بما يكفي؟!

هكذا أخيرا أقرّب أصابعي من كلمة «إرسال»..

وأشعر أنني سأفعلها هذه المرة.

اسمها.. هند

على غير موعد، ولا توقع، باغتتني رسالة هند..

وباغتتني باقة زهر البنفسج.

امتدت أصابع كاتبتها على كلمة «إرسال»، بعد تردد، كما تقول.. وأدخلتني حيث تكمن تفاصيلها المراوغة.. وأرسلت باقة الزهر، طازجة، مراوغة أيضا بذلك الغموض المهيب للبفنسج، رسالتها على شاشة الحاسوب، وعلى بعد سنتيمترات قليلة الزهر الضاجّ بغموضه.

قرأت رسالتها، مرة بعد أخرى تاركا الساعة على الحائط واقفة، تجمّد الوقت، متأخرا عن موعد عودتي إلى البيت، ناسيا الرد على زوجتي عبر رسائل الواتساب، مأخوذا بهذه الرسالة.

أنثى خلف ستار، تتخفّى، تبدو بجاذبية مثقلة بالفضول والرغبة لاكتشاف ما وراء الأنثى..

أي ريح قذفت بها إلى هذا الساحل، أي ريح قذفتني إليها، وقد اعتدت كثيرين يمتلكون رغبة كتابة حياتهم في رواية، نساء يردن وضع

obeikan.com

التباساتهن في لعبة روائية على توقع أنهن عشن ما لم يعشه غيرهن، ورجال يظنون في مسارهم ما لم تقدر عليه مسارات الآخرين من جلد وبؤس؟!.

لكن لعبة الأنثى أكثر غواية..

حواء المدهشة تخرج من الجنّة متخيلا أنها صامتة خجلا تسير وراء آدم، نحو حياة دنيا، القبول بالأدنى لأن الخطيئة تحتاج إلى دفع ثمن، الدرس الأول للبشرية، ودرسها التالي أن يكونوا أبناء القاتل، حيث الأنثى هناك، يحصد ثمار أنوثتها القاتل لا المقتول.

.. وأنا المحاصر بين زوايا تأخذني إليها جميعا في وقت واحد، لا أريد كتابة رواية الآخرين بهكذا مجانية، نقل حياة من لا أعرفه، ولا أدري حقيقة ما تخفيه وراءها، امرأة افتراضية تسحبني إليها لأكتبها بين دفتي رواية تحمل اسمي، وشغفي أن أكتب رواية مختلفة في فضائها..

لكن زهر البنفسج يتآمر علي.

وقعت في حيرتي، كأنما حيرة هذه الـ «هند» أصابتني بالعدوى، كيف لي أن أجد أسلوب السرد القادر على إحداث دهشته؟.

لكنها الحياة بمقدرتها على الإدهاش مغرية أكثر، وموحية، حدّ التوجع.. كأنما الوجع وحده حبرنا القادر على صنع دهشتنا الحياتية، هل سمعتم عن أحد أدهشته فرحة آخر؟ في وجعه رنّة وجعنا، أو وجع يعطينا الطاقة لندرك أي صعوبة في الحياة تجاوزتنا، وذهبت إلى قلب آخر، سكنت كبده، أوجعت رئتيه، خلخت كيانه.

هند هي لعبتي القادمة، ما المشكلة أن تخرج أفعى من وعاء الحاوي طالما أنني حصدت متعة السير وراء مجهول يلقم حبري حكاية أحتاجها؟!

وخرجت حكاية هناك من وعاء الحاسوب، أتتبع حكاياتها المدهشة، وتبدو دهشتها قادرة على مدّ الحروف بسخاء.

لن تكون هند حبيبتي، ولن ألقمها مواعيد متخيلة حيث يمكنني وضع يدي في يدها عبورا في شارع الحب بمدينة القرم، عين على البحر، وأخرى على المقاهي المطلة على الساحل، فتخبرني أنها ليست لعبة، وأنها أنثى حقيقية قادرة على دفع العشاق صوب جزيرتها لتغرقهم واحدا بعد آخر، كأي أسطورة مستلّة من كتب الحكايات القديمة.

هند، مخلوق ما، يقف هناك، في البعيد، خلف جدران افتراضية.. تريد إقناعي بأنها ارتدت عباءة شهريار وتبادلت اللعبة معه، تأمر السيّاف أن يضرب أعناق الرجال بدلا من أعناق النساء.

هند شهرزاد عصريّة، تقول الحكاية من فم شاشة مضيئة، ولا ديك يعصر فمها ليخرسها عن الكلام المباح إذ يطلع الصباح.

ولا سيّاف على حائط الوقت ينتظر غمزة عين من شهريار ليفصل الرأس، وفي فمه لا تزال بقية حكاية، عن عنق جميل له عاشق مختبئ، كعادة العشاق وأعناق عشيقاتهم.

رصدت نفسي تستسلم بسرعة، تذهب للسير على درب رسمته امرأة جاءت من الـ «هناك» وعليّ واجب السير.

هل من الضروري سيرنا على درب نضع أثره على التراب بخطواتنا أم أن الطريق مرسوم بخطوات الآخرين الذين مشوا عليه قبلنا؟

هند ترسم لي دربا، تقول إنه قابل للمشي عليه، وأن فم الحكاية به قدر هائل من الغواية، دوري كما يفعل الطبيب النفسي أن أستمع لأوجاع الآخرين، وكما يجدر بكاتب.. أن أكتب.

أغلقت شاشة الحاسوب، مستمتعا بالنظر إلى عتمة الشاشة، تبدو كسماء تخفي ما وراءها من أنجم، وتكاد تضيء في عيني نجمات ثلاث: هـ ن د، أخبط ربكتي على طاولة الوقت، كيف للعبة أن تتشكّل بهكذا سياط؟!

غادرت مكتبي، وفي طريق العودة لم ألحظ إشارات المرور بجوار المستشفى السلطاني، لا أدري كيف عبرتها، ولا ماذا عبرني كصباحي ذاك.

سوط الحيرة المندفع من خلف واقع أعرفه ولا أعرفه.. أتبيّنه خلف عتمة الأشياء ولا أكاد أعيه، وسوط الرغبة في الكتابة، تقذف حبره امرأة تريد إقناعي بأن الحكاية جاهزة على أطراف أصابعها، تكاد تسيل على ورق الكتابة لولا أنها لا تجيدها، تريدني صائغا لذهب الحكاية الخام، تثق بي، ولا تثق، أتردد بين أني الكاتب، وأني الرجل، ولا مأمن للاثنين كما روت سطور رسالتها.

امرأة تلقي بغموضها إلى وضوح الرغبة في كتابة رواية..

هي بنت الـ.....، لا أعلم ماذا أخفت خلف النقاط، ابنة ماذا؟ ابنة

من؟ لتطاردها الكلمة الغائبة كوحش يربك خطوتها بهكذا وجع!

هي الممسكة بذاتها رغم كل شيء، رغم سكونها بين يدي الطبيب النفسي ينصت إلى وجع الروح، هو يشعر بها مريضة، وتراه الرجل ممسكا بالفخ بين يديه لعلّ اليمامة تسقط، الذكر القابع خلف النظارة يتفحص جسد أنثى لديها هواجس تقلقها وتزلزلها في حياتها، وعليه واجب الإنقاذ.. وعليها واجب الهروب.. من ذكوريته.

هي الماكرة التي تطيح بضحاياها الرجال، لا يهمها أن تتألم، الأهم أن تراهم يسقطون دون عرشها، بقي العرش على حاله، لكن عروشهم الذكورية اهتزت بين يديها، ألهبتهم بغوايتها، وذاقوا مرارة ما.

كيف أقترب من أنثى تبدو كبركان يقذف حممه بلا هوادة لا يعنيه أين تسقط مقذوفات النار، أو أين يعبر نهر الجحيم..

أو تبدو كحيوان جريح يرى في يدي طبيبه كفا تريد إيلامه، لا تختلف عن يد الصياد التي أوجعته وأسالت دمه.

لم أستسغ تشبيهها بحيوان، مع أن الغزال يتشابه مع الحمار الوحشي في ذات التسمية، أردت أن أكتبها الأفعى، جمال الشكل حدّ الدهشة، وخطورة السم حدّ الموت.

أمضي في مقارباتي، هند لا تشبه أفعى المرجان الشرقية، بحلقاتها الجميلة، الخجولة للغاية وهي تفضّل قضاء معظم وقتها تحت الارض، ولا الأفعى البورمية حيث يبحث عنها صائدوها لجمال جلدها، ولا

تشبه الأفعى الملكية بما يحرّض المهووسين بجمالها على اقتنائها لأنها غير سامة، ربما أفعى المشبكية الأقرب إليها، مثيرة كثيرا بسبب جمال شكلها ومبهرة، لا تمتلك السم، لكنها تستطيع قتل أي شخص بالالتفاف حوله وخنقه، هل هكذا هند؟

بدت لي هكذا..

تخنق المقتربين من حماها، بعد أن تلتفّ حولهم.. تلتفّ عليهم، تلتفت عنهم بعدها، وتمضي باحثة عن صيّاد، تصيده، تلقيه في أرجوحة بين الوصل والصد، حتى يسقط إعياء.

ضبطت نفسي متلبسا بعقدة رجل التحقيق، يبني على رسالة من بعض صفحات تخيلاته، يمضي بها ليصنع لنفسه حائط صد كي لا تخرج هند كأفعى من شاشة الحاسوب أمامه، يثيره جمالا متخيلا لكنه يحاذر مراوغة الكائن الزاحف..

هو جريح كما يبدو..

لا يمكن الجزم بخطورة سمّه، ولا حركته..

ولا دافعيته للانتقام.

غادرت المكان أملا في تفكير أفضل، شعرت بمحاصرة الجدران، تذكرت هند، متخيلا شكل غرفتها، بنت الـ.....، يا إلهي، ماذا لو أكملت الكلمة، كنت سأفهمها أكثر، إنما هل ترغب في أن أفهمها؟

تريدني أن أكتب..

تعرف أني لن أقاوم ذلك.

وأشك أني أكملها رواية، ليس بهكذا سهولة يمكن المضي في مشروع روائي، وليس بهكذا صعوبة أن أمضي، أسقطتني الحيرة مرة أخرى، توالى سقوطي بلكمات تطلقها كلمات رسالة، رغم أني أغلقت الحاسوب، وغادرت حتى شاشته المطفأة.

لكن وهج الكلمات يبرق أمامي.. وباقة الزهر البنفجسي تودّ لو تنطق بدلالتها، الرسالة الأولى بصورة الباقة تعني بوضوح أن هندا أرسلتها، وعليّ التفتيش عن مزالق اللعبة وتفكيك فخاخها خشية الوقوع.

أكتب أو لا أكتب..

أقترب من مدينة مجهولة أو أن السير في الطرقات المضاءة للمدن المسالمة.. أسلم؟ كيف إذن يرتكب المغامرون إثم الغواية فيمضون إلى حيث الذهب في مغارات مخيفة أو في قيعان محيطات، خزائن كنوز غارقة؟!

لا أبدو كمغامر.. ولا أرغب.

أحتفظ بجبني العتيق، السير بجوار الحائط، لا أريد للأرنب الهادئ في داخلي أن يعرف الرعب بعد أن ذاقه من خيزران الطفولة كثيرا.

لكن أنثى هناك، في فمها حكاية، وعلى جسدها نقش حكايات.

رسمت قليلها، بانتظار أن تمنحها الإذن بإكمال بقية اللوحة، جدارية بحجم رواية، ليس مهما أن تكون بعض الألوان ليست حقيقية، المهم

أن ترى اللوحة بما فيها من ألوان، حقيقية أو مزيفة، أصليّة أو تم تركيبها من مواد خام أخرى لتغدو شيئا ذا قيمة في حياة تبدو بلا قيمة.

أنثى أغوتها حكايات الآخرين مكتوبة، تخيلت نفسها زوربا اليوناني يمضي إلى جزيرة كريت بحثا عن حياة جديدة وثروة ومتعة.. ومغامرة.

رأيتها مغامرة تتلذذ بصيدها، حتى إذا بات بين أيديها جرحته، كأنما تريد اختبار قدرته على التحليق مرة أخرى بجرحه ذاك؟

ورأيتها، أيضا، امرأة تافهة، تعيش كآبتها، تطلق شرورها الداخلية تجاه الرجال، ربما لعقدة نفسية سببها رجل، هي بنت الـ.....، آه لو كتبتها لعرفت أي أنثى أخاطب، المرأة ابنة أمها، ربما في رسائلها التالية ستعرفني على بقية العائلة، اخوتها أبناء الـ....، والدها زوج الـ....، وهكذا.

هل سأستجيب لرغبتها؟ أعني لرغبتي، وقد تلاقت الرغبتان.

هل سأكون محايدا؟ كل الرواية باسمها، هند.. أو سأشاركها الحكاية، حتى لا تقول ذات يوم إنها صاحبتها، وليس لي من فضل سوى مراجعتها؟

يا إلهي..

جحيم الاحتمالات يثور بين يدي، جمره الحارق يكاد يخرج شياطه من حاسوبي، سيلتقي بجحيم البنفسج، سيحرق ذاكرتي مشعلا النار في المكان.

سأتخيل أن هذه الـ «هند»، بنت الـ... لم تضع رسالتها في بريدي الإلكتروني، سأحذفها، هي ضغطت على كلمة «إرسال»، وسأضغط

بأصابعي على كلمة «إلغاء»، كأن شيئا لم يكن، وسأقول لديدار أن يمضي بباقة زهر البنفسج إلى أقصى حاوية نفايات يلقمها هذا الحزن والغموض.

سأكتب رواية كما أختار فكرتها وشخوصها بنفسي، لا رائحة لأحد فيها.

لكني، كيف لي أن أمسحها من جمجمتي؟!

الحروف أشد ثباتا، الاسم بهائه ونونه وداله..

كأني أعرفها، جلست معي في مكتبي، على شاشة حاسوبي، وضعت حروفها في مقلتي وأنا أتابع كلمات رسالتها، قالت لي إنها تحب القراءة وبين يديها زورباليوناني كما تحلم بمغامرة تذهب بها إلى جزيرة بعيدة، قالت إنها تراجع طبيبا نفسيا، ورأت على طاولته كتبا في علم النفس، ولأنها تجيد لعبة التخفي، والتشويق، وأين يكمن فضول الرجل، بدت لي جميلة، وأنها ابنة الـ.....

سأمنع نفسي من لعبة الإغواء..

سأستنجد بالإرادة، وبشجاعة كادت أن تتوارى خلف ذلك الجبن القديم، صباح الغد سأفتح الحاسوب، والبريد الإلكتروني، وسأمسح رسالتها.

كان يمكنني فعل ذلك من هاتفي، بكل بساطة، لكن للشيطان مكائده، يا لهذا اللعين القادر أن نجعله دائما موطئا لرغباتنا الدفينة.

الشيطان لن يكون معي ذلك الصباح، في مسائي هذا سألقنه درسا،

سأنسى أمر هند، سأغرق في قراءة رواية عدّاء الطائرة الورقية، أو سأذهب لدار الأوبرا السلطانية، الحفلة الثانية في مهرجان العود، سأجد تذكرة غالبا.

في وجوه النساء ضبطت نفسي أبحث عن هند، قد تكون إحداهن، اللواتي يتأنقن حين يدلفن إلى الأفق الملكي لدار الأوبرا، لم تقل هند أنها تحب الموسيقى، لكن من يفتن بزوربا اليوناني فغالبا سيعشق الموسيقى..

فاتنة بفستان أسود، وشعر ينهال على الكتفين يضيء رغم أنه سواد يشعل السواد، لن تكون هند هذه، لكني كذئب البراري (رواية هيرمان هسّه) استشعر ثمة طريدة ستكون هنا اسمها هند، بأنف رجل كنت أفتش عن طريدتي..

امرأة أخرى تختال في بهو الأوبرا قبل بدء الحفل ترتدي ما يشبه جلد الأفعى، لا سمّ تغرسه كحقنة في دم عدو مهاجم أو غافل.. ولكنها تلتفّ على جسد ضحيتها فتخنقها..

هل أبدو مختنقا بهند؟ بهكذا عبثية تساقطت كأحجار جبليّة على هشاشتي، الأنثى أو الرواية، غواية غموض أنثى أو غواية الرغبة في الكتابة عن غموض بطلته أنثى؟

هل ستبدو كرواية؟

إنها، هند، هناك، تبدو كأنثى، متخيّلة لا أكثر، افتراضية خلف بريد إلكتروني، كان يمكنه أن يذهب لخانة البريد المزعج ولا أرى رسالتها،

ولا يعني صدق الحكاية أو كذبها، ولا أن تكون ابنة الـ.... أو ابنة الـ.....

شعرت بهند تضع حجابا سحريا وتأخذني إليها..

يا إلهي، رسالتها الأولى هذه، فكيف حين تقبض عليّ بقية الرسائل؟! بقية الوقت ما زال هناك ينتظر، ثمة نفق يمتد، يتمدد، يطلب مني أن أكون شمعة تضيء قليلا من ظلامه بمتخيّل قدرتي على كتابة الأنثى العابرة عتمته، قد يختنق الضوء في ذبالتي، وحينها سأتعثر، وحيدا!

طفت المخاوف على رغبة الكتابة، وطغت، تناولت هاتفي وفتحت رسالتها الإلكترونية، وكتبت لها، مساء الخير.. لا أكثر..

وانتظرت..

هواجس اللعبة أن تنتظر، لا لعبة بدون انتظار..

لماذا أمضي في اللعبة، وماذا يدفعني للانتظار؟

ولماذا أسميها لعبة؟ أو أنها المفردة الأقدر على بلوغ المعنى؟! إذ أطلق على المتضادات من حولي جميعها كلمة لعبة، لعبة الحياة، لعبة الموت، لعبة القدر، لعبة السياسة، لعبة الوقت، كل ما يمكنه أن يلعب بنا، يتحكم، يتسلى، يضغط، يدمي، يضحك علينا، يضحكنا.. يبكي علينا، أو يبكينا.

أحس أنك قلق.

قالت زوجتي، وحاولت أن لا أبدو قلقا، ابتسمت، وكادت عيني على الهاتف أن تكشف أمر هند.

تمنيت أن لا يأتي رد هند على رسالتي "مساء الخير" في تلك اللحظة، بدّلت أمنيتي السابقة حينما كنت على حافة الانتظار أترقّب رسالة إلكترونية، جاءت إشارة الهاتف بوصول رسالة، وضعت الهاتف مبديا لامبالاتي، حتى إذا وصلت الإشارة إلى زوجتي، ورأتني منهمكا في قراءة رواية عدّاء الطائرة الورقية، غادرتني، تناولت الهاتف بسرعة، كانت رسالة من إحدى شركات الدعاية والإعلام تخبرني عن حدث لشركة عالمية.

انطفأ حماسي، ربما هند لا تتابع بريدها كل حين..

هند، هند، كدت أن ألعن الاسم، هيمنته اللعينة على تفكيري، من هذه بنت الـ.... القادرة على تحويل مساراتي في الحياة إلى مسار وحيد مؤشره يتجه إليها وحدها؟!

وصلت رسالتها..

- مساء الخير، هكذا يعني أن رسالتي وصلتك.

- نعم، وصلتني، وكذلك باقة البنفسج.

- أعجبتك؟ الباقة لا الرسالة.

- شكرا لك على الباقة، لا الرسالة، لكني متمسك بفهم الحكاية قبل أن أكتبها.

- سأقسّطها عليك، لا تستعجل، فقط بعد أن أرى رسالتي الأولى مكتوبة كما يجدر بها أن تكون صفحات في رواية.

- تبدين واثقة!!

- إذا لم تكتبها أنت الخاسر.

-وإذا كتبتها سأربح إذن.

- ليس بالضرورة هذا صحيحا، لكنك ستكسب رواية جديدة، مثيرة، واقعية، وببهاراتكم معشر الكتّاب ستحولون الحكاية الواقعية إلى شيء مختلف.

- لم اجرّب ذلك من قبل.

- متأكد؟!

- عندك شك؟

- ما أعرفه أنه لا توجد قصة ولا رواية ليس بها شيء من الواقع، تجارب الكاتب أولها، وما يسمعه من مجتمعه، وما يتأثر به من حكاية هنا وهناك.

- معك حق.

- دائما معي حق.

- واثقة.

- أحيانا كل الثقة، لكن عندما يتعلق الأمر بالآخرين فسيكون أضعف ما تكون هذه الثقة.

- لماذا لا تكتبينها بنفسك؟ لغتك سليمة، وتقرئين روايات.

obeikan.com

- أدمنت فعل القراءة، لكني لم أهتد إلى فعل الكتابة كما تفعلون، أشعر بأني أحتاج إلى خبرة أكبر مما أمتلك، كما تقولون أنا لدي النفط الخام وعليك مهمة تكريره ليكون صالحا للاستخدام في الآلات.

- نظرتك للكتّاب يتخللها شك.

- لأنهم رجال.

- هذه عقدة نفسية.

- ربما هي العقدة الحقيقية الوحيدة، كل امرأة لديهم فكرة جسد، وأنت كتبت في هذه الفكرة عدة مرات.

- ربما، لا أتذكر ما أكتب، أنساه فور صدور الكتاب.

- اعتدتم على النسيان، ليس ذلك فقط.

- قرأت اختيارك لجملة من رواية زوربا اليوناني عن الرجل.

- مقولته صادقة.

- لكنك مؤكد أنك قرأت جملة ليست ببعيدة عن تلك المقولة، امنحيني بعض الوقت لأفتش عنها، وضعتها على طاولة مكتبتي، استخرجتها من رف الروايات لأستعيد تلك الجملة وموقعها، لكني لمحت جملة أخرى على لسان زوربا أيضا..... هذه هي: "نعم يا معلم، لا يوجد في عقولهن شيء سوى هذا.. استمع إليّ الآن.. لقد رأيت نساء من جميع الأصناف، وفعلت كل شيء يخطر على بالك، فليس في رأس

المرأة شيء سوى هذا. انها مخلوق مريض، أقول لك، ونزق، إذا لم تقل لها اني أحبك وأريدك فإنها ستبكي، وربما كانت لا تريدك على الإطلاق، وربما كنت تثير اشمئزازها، وربما قالت لك لا، فهذه قصة أخرى. لكن يجب عن كل رجل يراها أن يشتهيها. هذا ما تريده هذه المخلوقة المسكينة. لذلك قد تحاول وتدخل البهجة إلى نفسها.!".

- كل منّا يختار ما يدعم فكرته.

- ليس ضروريا أن تكون فكرتي.

- لو لم تكن لما التقطتها لتكتبها، وترسلها إليّ، أنت كشفت عن نفسك مبكرا، تأكد أني لست منزعجة، هذا الوضع الطبيعي لتفكيركم، لن يرانا سوى من منظاره الذكوري، لقمة سائغة.

- لسنا كلنا نشبه زوربا.

- ولا كل النساء تشبه هورتينس.

- وصلتني اليوم رسالة عبر الواتساب، دعيني أكتبها لك: رجل فقير زوجته تصنع الزبدة و هو يبيعها في المدينة لاحد البقالات، وكانت الزوجة تعمل الزبدة على شكل كرة وزنها كيلو، وهو يبيعها لصاحب البقالة ويشتري بثمنها حاجات البيت، وفي أحد الايام شك صاحب المحل بالوزن، فقام ووزن كل كرة من كرات الزبدة فوجدها تنقص مائة جرام عن الألف المفترض، فاشتعل غضبا، وعندما حضر الفقير في اليوم الثاني قابله بغضب وقال له: لن أشتري منك يا غشاش، تبيعني الزبدة

على أنها كيلو ولكنها أقل من الكيلو بمائة جرام، حينها حزن الفقير ونكس رأسه، ثم قال: نحن يا سيدي لا نملك ميزانا ولكني اشتريت منك كيلو من السكر وجعلته لي مثقالا كي أزن به الزبدة.

- ماذا تعني بالضبط؟ تعني كما هو المعنى لا كما تفسّره أنت لدعم هدف في عقلك، ما الذي يربطها بي؟

- سأنقل لك السطر الأخير من الرسالة: تيقّنوا تمامًا أن (مكيالك يُكال لكَ به).

- لم أفهم بعد ما علاقتي بذلك.

- دعي هذا لوقت ستعرفين معناه لا محالة، أنصحك أن تذهبي لرواية إليف شافاق قواعد العشق الأربعون، انظري للقاعدة الخامسة والعشرين.. أريد أن أسالك، هل أنت هند حقا؟

- نعم، اسمى هند.. لماذا تشكك؟!

- أعني قد لا تكون امرأة أصلا، مجرد فخ.

- إذا لم تكن ذكيا بما يكفي لتعرف لغة الكلمات والإشارات منها فلا تكتب..

- أريد أن أفهم، ابنة من؟

- لم أفهم سؤالك.

- في رسالتك كتبت أنك ابنة الـ.....

ترقبت ذات الدقيقة التي كانت تعبر المسافة الزمنية بين رسالة

إلكترونية وأخرى، كل تلك الرسائل بيننا خلال نصف ساعة تقريبا، توقف الزمن فيها على يدي، لم أشعر بما يمليه عليّ الظرف خلال وجودي في صالة البيت، منهمكا في كتابة تنعكس حروفها على وجهي، أحاول خلال دقيقة الانتظار، وقد تمتد أكثر بدقيقتين أن أقرأ جملة في الرواية التي بين يدي.

مضت الدقائق، مضت ساعات فيما تبقى من النهار، ولم يأت الليل برسالة أخرى من هند.. وبقيت أستعيد الرسائل، الحوار، النفق والمتاهة.

لو لم أسألها عن النقاط الحائرة في الكلمة التالية لابنة، هناك أل التعريف، والنقاط صارخة بالمعنى وراءها، الغامض كهند، المثير كالرغبة في الكتابة.. لو لم أسالها لاستمر الحوار، ربما وقتا طويلا، بما يكفي لإثارة التساؤلات، عمّا وراء الحكاية، وقد بان خط سيرها على انكماش الوجه وانبساطه، انتظارا وترقبا وتساؤلا، لعلّ الإجابات على الضفة الأخرى من النهر تمنح المنتظر بصيص أمل في عبورها لجّة الماء.

من عهد؟

كأنما بؤرة وجودها في الحياة المفردة الضائعة خلف النقاط..

أنثى بجرأة البوح تتوقف عند كلمة ما، تخشاها، أو لا تريدني أن أعرفها، رغبتها أن أعرفها هكذا، مجردة من أي خلفيّة أخرى غير التي تحددها، لا تأثيرات جانبية..

محتمل أنها انشغلت، انقطعت شبكة الإنترنت، أي ظرف آخر غير حساسية تلك المفردة الغائبة خلف الحروف، ولا "عهد" لا تروم حتى الكتابة عنها، يا إلهي، أي عقل ساقني لأختار ذلك المقطع الروائي لزوربا اليوناني، كأن عقلي الباطني وضعها أمامي جملة منتقاة، وكتبتها كأي ذكر يريد لأنثى ما التعبير لها عن ماهيتها في عينيه، أو في أعين الذكور حوله!

عرض تقدمه امرأة..

أن أقبل أو أرفض..

لا طريق ثالث بين الدربين، القبول متاهة، والرفض خيار صرت لا أستطيعه.

فتشت عن إجابة لسؤال باغتني: ما الذي أخشاه على وجه التحديد؟!

واقف على مدرجات الجماهير أتابع مباراة كرة قدم، لاعبون يركلون كرة مستديرة، سأكتب عنها كأي صحفي رياضي، أصف ما أشاهده، عن نتيجة المباراة، عن الضربات الركنية والجزائية، وتصادمات اللاعبين، فرحة الفائز، مرارة الخاسر.

لن أدخل في اللعبة أكثر من ذلك.. لا حقّ لي، لا واجب علي.

في الصباح شعرت بغواية اللعبة أكثر من أوقات مضت، قمت بنسخ رسالتها من صفحة البريد الإلكتروني إلى صفحة «وورد»، حفظتها باسم هند.. اخترت نوع الخط، وحجمه، وبقية التفاصيل التي أحرص عليها كأنني صادقت نوعا ما من التنسيق الكتابي، أرتاح إليه.. وأستريح

على وقع حروفه تتراص حرفا إثر حرف، وكلمة تتبع سابقتها، وسطرا يكتمل، وصفحة تستدعي تاليتها لتكمل المشوار.

.. وانسقت وراء الحكاية، أضع جملتها أمامي وأشاغب مقدرتي على الكتابة لإعادة حروف هند كما أحبها أن تكون، لا كما كتبتها، عشت دور المترجم القادر على صياغة روح النص معيدا تشكيله بحروف تبدو غريبة عن اللغة الأصلية لكنها قريبة جدا من نص المؤلف وهو يتشكّل بأبجدية مختلفة.

يد تلوّح باستغاثتها فألقيت نفسي خلفها، في بحر متسلل من رسالة إلكترونية لعلّي أصل بيدي إلى غريق هناك، من عالم افتراضي، وراءه واقع، ربما هو واقع، لا يهم، ربما ينبجس عن وهم، لا يهم، المهم أنني مستطيع على تخيّل غريق، وبحر.. وامرأة اسمها.. هند.

كأنني أعرفها، ألغيت حواجز هائلة بيني وذات متخيلة أكتبها بصبر واجتهاد، كي تبلغ الكلمات إعجاب هند فتلقي إلى سلّتي بمزيد من فواكه الحكاية اللذيذة، هذه الهند التي تفتح ذراعيها لريح تعبرها هناك، وأشعر بغبارها يبلغ أنفي، فيتحول إلى مطر دافئ أتبعه مهما غالبتني ظنوني أنّ ما يلوح أمامي مجرد سراب، لا يبلغ ظمئي.

هند تريد الرواية بحكايتها، ويحمل العنوان اسمها..

الأنثى بانكساراتها متلذذة بتعدد كسرها لآخرين، كأن كل عاشق بينهم شهريار يريد قطع الحياة عن جسد ضحيته، لولا أن الحكاية تضعه في مفترق طرق..

ومع هند يبدو الجسد غير مهدد بقطع الرأس، بل بدحرجة التشفّي، والضحك على سقوط الضحية.

.. إنما كيف تفعل بهم هند؟

أهي بمنأى عن جحيم ألعابها في مجتمع صغير لا يمكن أن تبقى المرأة مخبأة في دهاليز السرية كثيرا؟!.

هل سأخبرها بأنها تعيش أوهام الانتصار، فالآخر متمكّن بقوة تتيح له القفز فوق حفرة السقوط لأنه يعرف حدود لعبته جيدا قبل أن يمضي بها، ولديه حصانة تمنحه قوة القفز فوق حصان جديد طالما أن الجواد السابق خذله وتخلى عنه.

لا يتوقف الفرسان عند كبواتهم، لو فعلوا ذلك لأصبحت أظهرة الجياد الخبيرة بدون فرسان، ولعجزت الجياد الجديدة أن تتعلم فن قفز الحواجز، والسير في سباقات القدرة، القدرة على الحياة، والركض، والقفز، والمناورة.

ضبطت نفسي متلبسا دور هند، أكتبها، كأني أكتب نفسي، أضبط الحروف على إيقاع أنثى، لست مراجعا لغويا، بل كاتب يعيد رسم الحكاية كما يفترض بها الاقتراب من رواية، أتلذذ بالكلمات أعيد تشكيلها من جديد.

ليس تماما كما كتبت هند، ليس تماما كما يفترض أن تكون هذه الـ هند..

كتبت، وأعدت قراءة ما كتبت.. لا يبدو لي جيدا إلا من خلال عيون هند حينما تقرأ أوراقي، أوراقها..

هي ليست آبهة بسؤالي عن ابنة ماذا، ابنة من، تكون؟ حسمت أمر إحساسي بتأنيب الضمير، امرأة بهذا التمرد لن يعنيها سؤال عابر، هي امرأة الأقدار العابرة كما تبدو، حتى للرائي من بعيد.

سأستمع إليها، أستمتع بحكايتها، وبكتابتها.

في غموض المرأة سحر، في انكشافها إبهار.. وفي الإبحار بتحدي عواصف محيطاتها شغف جميل.

اتّقدت روحي بحالة لم أتوقعها، هكذا هبّت فجأة، منقادا إلى سحر الأنثى، لحكايتها، فتحت بريدي الإلكتروني، لا جديد من هند.. لكني أملك الجديد..

أرسلت خطوتي الأولى، اللهب الأول في شمعتي داخل النفق.. إليها.

شعرت باطمئنان غريب.

كأنّي لحقت بقطار كاد أن يتحرك نحو مدينة بعيدة لن أبلغها مرة أخرى، وجلست بيقين أنني على كرسي القطار لا بحسرتي على ضياع الفرصة أزحف ببصري خلف سكة الحديد الخاوية من أية فرصة لبلوغ تلك المدينة مرة أخرى.

لا أعلم أي اتجاه سيأخذني، لكنه حتما إلى مدينة أتمنى اكتشافها.. واصل رقصك يا زوربا، هذه موسيقاك تنسلّ إليّ، تتسلل، ترقصني، على

حافة إيقاع أنا، طائر بجناحين من ضوء، ما السبب؟ لا أعرف.

فقط أشعر أني مبتهج، وأن يديّ تنفتحان جناحين كأن طائرا يتعلم الدرس الأول للتحليق، وقدماي تتحركان على إيقاع الخطوة، جيئة وذهابا، خفيفتان تتقافزان رغم الجاذبية الأرضية، وأصابعي بها تلك القدرة الهائلة على التقاط حبّات السعادة من حولي.

نهضت إلى رواية زوربا اليوناني مرة أخرى.. وبدأت قراءتها من جديد..

وعلى هاتفي كانت موسيقى رقصة زوربا تشتعل.

تعيدنا أشياء المصادفة إلى دائرة ضوء من جديد، ضوء حسبناه أنه غادرنا، لم يبد لنا كما هي اشتعالاته الحقيقية..

كأني اكتشفت ضوءا في نفسي، لا علاقة له بهند، ولا رسالتها.. ضوء تأتي به الكلمات، اشتعالاتها في روحي، رواية وموسيقى وحلم.

نسعد بلا سبب نتبيّنه جيدا، نحزن بلا عذر نستسيغه..

مراوداتنا على حواف الألم والبهجة، لولا أحدهما لما كان الآخر، الألم موجود لنعيشه، لنكتشف طعم البهجة، الخمسين التي تكاد تزهر على باقة زهر بنفسج.

هند، في بقعة هناك، لا أدرك المسافة الفاصلة بيننا، وهي تدرك.. المسافة بين الشك واليقين، الكذب والصدق، الواقع والمبالغة..

مغامرة شغوفة باكتشاف العالم، المرأة هي العالم، كأنه خرج من

مشيمتها، حيث حملت به سنوات طوال، قبل أن يهبط على ركبتيها طفلا، كبر العالم، ولم تكبر المرأة، أعطته ثورة عواصفها وبراكينها، منحته غموض المحيطات وجمال الأنهار، فواكهه الطيبة والمحرمة.. على كرسي الانتظار كان ثمة رجل يترقب، خائفا أن ينهض، خائفا أن لا ينهض، قلقا أن لا يحصل على شيء، قلقا أن يحصل على كل شيء، أن يحدث شيءٌ، أن لا يحدث أي شيء.

أي شخصية هذه الـ هند؟

إلى أين سنمضي باللعبة معا؟

هي لعبة رواية، أو لعبة حياة؟

هل أقدر على اللعبة وأحمل عجزي عن اكتشاف قوانينها، خطوط ملعبها، عواقبها إن خسرت.. وعواقبها إن ربحت أيضا؟!

أترقب شيئا ما يأتي به بريد إلكتروني، في الترقب شغف بالآتي، قاس أن لا تترقب شيئا، تموت الأفكار بين يديك، مشكلتها أنها لا تبقى وحيدة هكذا، عليك أن تجد لها لعبة الترقب والانتظار لتستمر حية، كالكائن الذي عليه أن يبقى مستيقظا حينما تجهده المتاهة في رحلة ثلجية، إن أغمض عينيه لن يعرف فتحهما مرة أخرى، سيتجمّد الدم في شرايينه، ويتوقف قلبه، هناك ترقب لشمعة إنقاذ تلوح عليها أن تلوح فوق بياض الصقيع، فوق بياض ورقة الكتابة، على شبيهتها.. صفحة بيضاء تضيء بها شاشة الحاسوب.

عرفت لعبة الترقب طريقها إليّ.. جميلة رغم إرهاقها، يمنحنا لهبها الأمل رغم كل شيء..

يوم، يومان، وأكثر..

صبيحة سبت، يوم إجازة أسبوعية، استقبلته على وقع انهيارات كبيرة في رأسي، كانت عاصفة حلم عبرتني واستيقظت منها مأخوذا باللحظة.

يقال إن الحلم لا يأخذ سوى ثوانٍ قليلة، لكني رأيت من الحلم ما حسبته عمرا مرّ خلال ساعة نوم بعد صلاة الفجر، رأيتني أسير في غابة، أو في صحراء، تتحول الرؤية في لحظات، كأن الحلم مزيج سينمائي، تقطيع سيء لمشاهد ملتقطة من فيلم سيريالي تعذر استيعابه جيدا سوى بوصف بعض اللقطات، غابة أو صحراء، حسناوات أو أفاع، حسناوات يرتدين معاطف من جلود الأفاعي، وكنت أقبّل شفاه حسناوات، أو ألسنة أفاع، كتلك التي كتبت عنها، هذه سوداء، وتلك ملكيّة، وأخرى ذات أجراس، والغابات تمتد تلقي أفاعيها من أشجارها الخضراء المتكاثفة غصونها، والصحراء تنبت الأفاعي كتلال تنبجس من تلال.

وأنا مأخوذ أسير بين كل ذلك، الأحجار تصطدم بها قدمي فيتحرك كل حجر حيث يزحف كأفعى، وأكاد في شهوة الحلم أمد يدي إلى ألسن الأفاعي اقتلعها، فيذوب الحجر، يذوب المشهد.. ليبدأ مشهدا تاليا من جديد، الصوفي يدور ويدور في رقصته، الأفعى تكون الصوفي ورأسها عمامته، جلدها يتقشّر ليبدو متسعا كملابسه المشتعلة بالضوء والرفرفة.

جلست على سريري، وفتحت عيني لأرى ما حولي، محاولا

استيعاب ما حدث حينما كانت العينان مغمضتين، وكنت خارج حدود الاستيعاب..

في غيبوبة النوم رأيت ما لا أقدر على فهمه في صحوة الاستيقاظ.

وبون شاسع وممتد بين غفوة ويقظة، على امتداد الغابة التي مشيت فيها، والصحراء التي حاصرتني، كلاهما تعني المتاهة، والأفعى كأنها هند، لا أتذكر هل مرّ اسم هند على ذهني في الحلم أو في اليقظة، كيف واتتني بمتاهتها ورعبها..

تمزقت بين الغياب والغيبوبة..

أفتح هاتفي على صفحة البريد الإلكتروني، لا شيء من هند.

كتبت على جوجل بحثا عن حلم يرى فيه النائم أفاعي ونساء في غابة وصحراء، قرأت تفاسير العلماء وخاصة ابن سيرين الذي قال إن رؤية الأفعى في المنام «**عدو يتربّص ليضرّ بصاحب الرؤيا، أما إن كان الثعبان في المنام أسود اللون فإنها امرأة حقودة ومؤذية وقد تكون شيطانا أو جنا، ويكون مقدار ضرره وبطشه بمقدار حجمه في المنام**»..

تهت في عبارات كثيرة، لم أجد ضالتي، كانت الأفاعي في غابة وصحراء، وغابت الإشارة إلى المكان، قلت في نفسي إن الغابة ترمز للغموض، والصحراء للمتاهة، والأفاعي رأيتها لأنها كانت في ذهني عندما كتبت، متجولا بين صورها.

استرحت إلى تفسيري قليلا..

زوجتي تفتح ستائر غرفة النوم، وأنتبه إلى ضرورة إعادة ترتيب نفسي سريعا، كأن لا حلم عبرني، وكأني لم أضبط نفسي أضغط على شاشة الهاتف النقّال بأصابع تقاوم الارتباك.

- صباح الخير.

- صباح النور.

- خيييير.

- كابوس خفيف.

أما كابوسي فكان ثقيلا، حلمت عقربا أسود يخرج من باقة ورد، كان لون الزهر بنفسجيا، وكنت ريحا تهب وأنت تحاول جمع الباقة، وكنت خائفة عليك، من العقرب، كأني أراه ما أزال.

نظرت إليها لثوانٍ امتدت طويلا، إنما كتمت حلمي عنها، ونهضت.. قال لي فزعي: لا تقصص رؤياك، في البوح مكائد، وفي الكتمان مهرب، قال لي المقامر الساكن رأسي: اتبع المتاهة، لا تلتفت لرؤياك، هي أضغاث أحلام، وليسوا أولئك عن تفسيرها بعالمين.

أرتّب الأخيلة في رأسي، حيث يترقبني الحاسوب في مكتبتي.. يتسلل عقرب أسود إلى الشاشة أمامي، يرسم باقة زهر، الحروف آثار خطوها، والصوفي يعيد ترتيب رقصته على إيقاع اليقظة..

أعاند، وأقاوم، وأكتب صفحات جديدة في مشروعي الروائي هذا.

اسمي.. هند

يا إلهي..

صحت بالمفردة عدة مرات، كيف تحولت كلماتي العادية إلى حروف بمذاق مختلف؟! والوصف البسيط إلى لغة أدهشتني جدا، كأني أولد من جديد على صفحات أزعم أنها نبضك أيضا، لم يكن قلمك وحده يكتبها.

ما كنت أحسب أنك ستقتنع، بعد حوارنا السريع ذاك شعرت أنك لن تبدأ قبل أن أكشف عن قناعي كاملا أمامك، بعدها سارعت لتقليب عناوين الروايات بين يدي، اين ذهبت «**قواعد العشق الأربعون**»؟ كانت هنا، في بقعة ما؟ هل اختفت في اللحظة المهمة كأنما روح صوفي خطفتها يائسة من صفائي؟ أن أرى الحب في الناس؟!

بحثت عنها في الإنترنت، وفتشت عن القاعدة الخامسة والعشرين، لعلي أكتشف المعنى الذي رميت إليه، قرأته.. «**ففي كل مرة نحب أن نصعد إلى السماء، وفي كل مرة نكره، أو نحسد، أو نحارب أحدا، فإننا نسقط مباشرة في نار جهنم**»..

obeikan.com

أصبت بالحيرة، تضخّمت داخلي بغتة، كبرت وكبرت، حتى صغرت أمامها نفسي، نفسي التي تواجهها.. أو تحكم قبضتها عليها كي لا تنفجرا معا، قلّبت الصفحات على شاشة الحاسوب، جمل سريعة أقرؤها، تفرّ من أمام عيني فتغدو صفحة الحاسوب بيضاء.. «**إن الوسيلة التي تمكنك من الاقتراب من الحقيقة أكثر تكمن في أن يتسع قلبك لاستيعاب البشرية كلها، وأن يظل فيه متسع لمزيد من الحب**».

سهل أن نقول، أن نتقن رسم الكلمات، أن نباغت الآخر بقدرتنا على إمطاره بغيثنا من مزن المعنى، لكن الورد لا ينبت في الصحاري الجافة، ولا الياسمين يلقي بياضه في بحيرات الملح.

لست جلال الدين الرومي، ولا شمس التبريزي، ولا أي كائن آخر، مهما بالغت في تمنياتي..

ما أريده أن أكون أنا، أحب نفسي لا البشرية، أقاوم فعل الكراهية لذاتي، في كثير من الأحيان لا يتسع قلبي لشيء، يضيق بكل ما حوله، يكرهني حتى.

أغلق نافذة الرواية، تبقى صفحة «الوورد» مورقة بالحروف القادمة منك، حروفك أو حروفي..

يا إلهي..

أستعير المفردة منك، وأكررها، يا إلهي، للمرة الأولى أكرر الكلمة

مرة بعد مرة اندهاشا، أو فرحا، سأبدو بطلة في مشروع روائي، سأقاوم ذاتي، سأنهض من نفسي لأستعيد نفسي، قرأتها، مرة، ثم مرة.. ثم...

فتحت الحيرة شبّاكها في غرفة القلب، ونادتني، فتحت لها الباب، وارتمت على صدري، وبقيت تكبر وتكبر.. وتكبر.

أسعدني تلقّي أكثر من رسالة منك عبر البريد الإلكتروني، لكنه أخافني أيضا، أطلق في صدري هواجس، أهكذا يتحمس الكتّاب للنساء؟! وهل يضعون في حساباتهم إمساك عنق المرأة من خلال إلقاء حبل كلماتهم إليها كما يفعل رعاة البقر، وكأنه يمكن تسميتكم برعاة الكلام، بالطبع لن أسميكم «**بيّاعين كلام**» لأن هذه المهنة لم تعد حكرا عليكم معشر الأدباء، بل أصبحت صناعة وطنية متداولة بكثرة، حتى طلبة المدارس يجيدونها، ولو بشكل صغير، ربما الخبرة فقط يا سيدي الكاتب، وسيتفوّقون عليكم عندما يكبرون.. تماما كما تفغر الأمهات أفواههن: معقولة بناتنا هكذا؟ّ، ويصرخ الآباء بعدها: أولادنا ربّيناهم أحسن تربية.. هكذا الوهم سيدي الكاتب، تكاثر المربّون، وقلّ المتربّون.

سأفاجئك، وربما أزيد من حيرتك، حاولت أن أكتب الرواية بنفسي، حيث لا أثق بأحد، لكنني لا أثق بنفسي أيضا، لا ثقة مركّبة، اشتريت كتاب فن الرواية لمؤلف اسمه كولن ولسون، حدثتني نفسي أن أتعلم كيف تكتب الرواية، قرأت في الكتاب أن الرواية كمرآة لا بد وأن يرى فيها الروائي وجهه وصورته الذاتية، أغرتني المقولة، أسقطتها

على ما قرأت من روايات، لا أطيق قراءة غير الروايات، تسليتي بجوار المسلسلات التركية، منذ الفصل الأول أعادني ولسون إلى مربعي الأول، نقطة الصفر في قدراتي، حيث يقول إن تشجيع أولئك الذين سيصبحون كتابا في المستقبل أشبه بوضع السماد في حديقة تمتلىء بالأعشاب الضارة.. كان على ولسون أن يدرّس في إحدى الكليات بولاية فرجينيا فتوصّل إلى نتيجة مفادها أنه لا يمكن تدريس الكتابة الإبداعية، يعتبرها «**عملية شاقة كالصعود إلى أعلى التل، حيث يتساقط الضعفاء بينما يواصل الأقوياء بتؤدة كي يصبحوا كتابا جيدين..**»

وأنا أشعر بالضعف دائما، مهما صرخت أني قوية.. أعرف حجم الحطام في عمقي.. لا مفر من مصارحتك بذلك، المبدأ الأساس للإبداع مع كولسون هو: البقاء للأصلح، من يقدر على عدم السقوط من تل الرمل قبل أن يرتفع أكثر من قدرته.. وقد شعرت بذوبان الرمل تحت أقدامي قبل أن أخطو الخطوة الأولى في تل الرمل أمامي، شعرت أيضا بأن حياتي على امتدادها تل رمل تذروه العاصفة كل حين، ويا للغرابة فإنه يكبر ويكبر، حتى يحجب الرؤية الأفقية أمام ناظري.

رأيت نفسي أشبه بسمكة العجوز في رواية همنجواي العجوز والبحر، كانت الأسماك الكبيرة تصارعه لتتقاسم معه صيده الثمين، لم تترك له إلا العظام يجرّها إلى الساحل، هكذا تتآكل روحي كلما اقتربت من اليابسة، من شاطئ الأمان كما تصفونه، إنما أي أمان لمحاصر

بالموج! .. هكذا هي انكساراتي، وحطامي، لن أتجمّل أمامك، ولا أريد أن أبدو آنية كريستال بالغة التأنق.

قبل أن تصلني رسالتك بقيت في حيرتي أجازف في استدعاء الأفكار عنك، البحث في الانترنت عمّن تكون، أريد معرفتك أكثر مما سبق من وقت كنت غير معنيّة فيه بك كثيرا..

لأنّي تجرّأت بالكتابة إليك عن نفسي شعرت، في لحظات المواجهة، بفداحة ما فعلت.. فتحت فوهة قربتي أمام كاتب لن يروى عطشه لحكايات عن الأنثى إلا بتمزيق القربة معتقدا أن في باطن جلدها حكاية خبأت عنه.

قد لا يريد القربة وحكايات حفظها الزمن بعيدا عنه..

يريد الأنثى التي تحملها، الجسد، كأي رجل، فكيف به وهو (يعتاش) على مشاعر الآخرين ليكتبها، وأجساد النساء ليرتادها..

اعذرني على هكذا صورة تخزنت في ذاكرتي عنكم أيها الكتّاب، لا أدري سببها، إنما حينما أقرأ أيّ رواية حب، أو حتى قصة بوليسية أشعر بأن المؤلف من يقف خلف حكاية الحب أو قصة الجريمة، يلبسها عباءة الآخرين بينما الفاعل هو لا غيره.. الشخصية الرئيسية هي المؤلف، الشخصيات الأخرى هي المؤلف أيضا، تناقضاته الداخلية تأتي على هيئة أشخاص آخرين، يحبهم أو ينتقم منهم، أو يتمنى أن يكون أحدهم.

لا أصدق أن كلمات الغزل ينطقها البطل، بل أنتم.. كتبتم

مشاعركم..

ولا أتخيّل إلا الكاتب يرسم مشاهد على السرير، عاشها أو يتمنى أن يعيشها، ويحلم بها، يفصّل البطلة على مقاس مزاجه الجمالي، يكتبها بيضاء وطويلة وبشعر مسدول لأنه يحب النساء هكذا، لن يكتب عن الشعر الغجري إذا كان لا يفتنه، ولا عن الشعر القصير إن لم يكن يحبه، ولا السمراء الجميلة إن كان مغرما بلون الحليب.

أريد أن أستعيد فعل الحب من جديد.. أن أعشق وأن أحترق بجمر العشق إن كان حقيقيا، لأنه وحده يجلو ذهب الروح حينما يصيبه الصدأ، الاحتراق الوحيد الذي أنصبه قدرا جميلا أمامي هو فعل العشق، قرأته وحاولت عيشه، لكنني لم أجد سوى ناره، الجحيم الآتي من حمم الغدر لا ولهة الشوق وترقب الوصال.

لست الفراشة الباحثة عن الضوء سيدي الكاتب.. ولا تمض بك الظنون إلى أبعد من كوني أنثى تغالب ناريها كي لا تفنى احتراقا، وتحاذر أن تحرقها نار الآخرين، لأنها انكوت بها فوق طاقتها..

هل نارنا أرحم بنا أم أنها العلاقة بيننا وأشيائنا حميمية مهما بدت موجعة؟ وهل أتلذذ بناري التي تحرق آخرين أرادوا اجتياز حدائقي، فإذا هم أمام حرائقي؟

سأكثر عليك أسئلتي..

ولن تجيبني، ربما.

وستصلك رسائل أخرى مني، وقد لا تجد الوقت للمضي خلف حماقاتي، خاصة إن قطعت عليك حبل التفكير، بأنني امرأة لن تنالها، معتقدة بأنك ستمضي ورائي حتى أقع في حبالك وحبائلك، أكرر اعتذاري سيدي الكاتب، لن أستطيع نسيان أنك رجل، وكاتب، والأهم أنني مصابة بهذا الداء، ما يتعلق بجسدي، المطلوب دائما، حتى أنني في كثير من الأحيان أنسى أنني شيء خارج مفردة الجسد والرغبة، وشعوري الدائم بأن الآخر لا يرغب إلا في فواكه حديقته، وصدّقني لو أنك رأيتني مرة لن تنسى كيف تبدو هذه الفواكه، إنما ستعود بجمر الحرمان والجوع، فأمر تذوقها لن يكون متاحا لأي رجل..

قد تصدق ذلك وقد لا تصدق!

لم أتصور أنك تكترث بأنثى عابرة، وضعت هلوساتها على صفحة بريد إلكتروني، في حالة غيبوبة عن الوعي، وبعدها ساءلت نفسي، وسألتها: ما الذي أوصلني إلى تلك اللحظة، أن أقرر فعلا أن أكتب إليك؟

لم أجد إجابة..

وعادتي أن الإجابات لا تهمّني.

وأتساءل: لماذا علينا أن نكترث بتحصّلها.. فالأسئلة كالجمر، والأسوأ منه عنادنا في الوصول إلى أجوبة.

نعم، سيدي الكاتب، أسوأ من الأسئلة الإجابات، ولا أريد الأسوأ،

يكفيني أن ألقي أسئلتي، وعلمتني الحياة أن الأجوبة شر مستطير، جحيمنا يأتي منها، أن نطلب أجوبة دائمة، أن نعرف المزيد عن أشياء قد تصدمنا، الجهل بها أقل ألما، المعرفة جحيم، ويطلبها من لا يروم على حرائقها.. وما أكثرنا.

أتمنى أن أمضي حياتي، هكذا، أسير بفوضوية ولا مبالاة، أن لا تعنيني الأشياء من حولي، لا أبالي بما أتوقعه إجابة مهمة عن سؤال ما يطرق جدار مخّي، ما جدوى الأسئلة إن كانت أجوبتها متاهة أوسع؟!.

افسح الدرب أمام قدميك وامض.. ستمضي بك خطواتك بثقة أكبر مما لو أربكتها بحيرتك، وساءلتها إلى أين ستقوديننني.

ألا ترى؟! سهل أن ننظّر ونتفلسف، وصعب أن تلامس الحروف دواخلنا فتقتنع، أن ينال ماء الحروف الجمر المشتعل هناك فيخمد أواره.

وهل يضحك الأمر: القدمان أكثر ثقة، في سيرهما، من المخ؟

لا أظن ذلك ممكنا، لكنها تخيلاتي، أقبلها أو ارفضها، لكني واثقة بأنه لولا القدمين لما تحرّكنا في دروبنا خطوات كما تريد عقولنا ضبط كل شيء وفق عقدها وتعقيداتها.

أحيانا أتخيل أنني أغمض عيني وأتكلم، وأنت تكتب ما أقول..

أريدك أن تكتب كل ما أقوله بلغتك، تكتبني كما هي حكاياتي، البسيطة والمعقدة، أتخيلك الطبيب النفسي المستعد لسماع ما يقوله

مرضاه، لكني لست مريضة، فقط أسئلتي توجعني، تضرب خاصرتي كعلّة داخلية.

امرأة تقاوم الأسئلة.

الطبيب النفسي الذي يلح عليّ طالبا أجوبة داخلية لا أستطيع الوصول إلى عمقها، لو بلغت عمقي لما احتجت إليه، لكنه يرتدي رجولته كما ألمحه، ولا أحب الحديث أمام امرأة، لأني أشك فيها، نعم، أشك بقدرة امرأة على فهمي أيضا، لأنها ستطلب مني أن أكون الطبيبة لما تعانيه من هدم داخلها، هي المتعلمة، الموظفة، الأم، الزوجة، الإنسانة الممزقة في مجتمع يعيش تناقضاته..

عموما، هذه أفكاري، لا ألزمك بها، أريدها فقط أن تكون دالّة على شخصيتي، هي ملكي، لا أتنازل عنها.

يحدث أن أخبرك أيها الكاتب عن رحلتي، وأطلب منك أن تعيرني لغتك، اكتبها هذه الأوراق كيفما تريد، لكن حاذر أن تجعلني أبدو أنثى تبحث عن لعبة تسلّيها، أريدك أن تنصفني بكلماتك، وأن تجعل السطور أجمل من نتاج طرقات اصابعي على لوحة مفاتيح، كأنما هي تكتب نفسها في عالم افتراضي، لن يشاهده إلا أنت.

لا أعلم لماذا اخترت رواية زوربا اليوناني لأعايشها، وأحلم ببطلها، مع أن زوربا شخصية مريضة أراها، النساء لديه لسن أكثر من «جزمة» يدوسها وعندما يملّ منها يرميها، كانت جيدة أو متهالكة، رأيت نفسي

في بطل الرواية، السارد الذي يلتقي زوربا، إنسانيته التي يريد زوربا أن يمحوها منه، المتبتل من أجل الخير، أحلم أحيانا أن أكون هكذا، لكن نظرة زوربا تجاه البشر والحياة تبدو أكثر توافقا مع نظرتي، أشعر بعباراته تتدفق من أطراف أصابعي إلى صفحات الرواية حين أمسك حروفها أقرؤها: «**يجب أن أملأ روحي بالجسد. يجب أن أملأ جسدي بالروح. في الحقيقة. يجب أن أوفق في داخلي بين الخصمين الأبديين**».

هل وفقت سيدي الكاتب بين الخصمين الأبديين؟ الجسد والروح؟

كلما ملأت روحي بجسدي شعرت بالضياع..

وكلما ملأت جسدي بروحي شعرت بالغربة.

أنحاز إلى روحي، فأشعر بالغربة، أنا قالب من جسد، أتحرك به، أتألم به، يحاصرني، أستدعي روحي لكنها ترفضه، تبقى متفرجة من بعيد، وحين أحلق بجسدي يحاصرني الضياع، الجسد خطيئة، عبور كائنات تدعى الرجل، لا جسد بدون وجود رجل، إنما الروح تبقى وحيدة، لأنها لا تريد شراكة مع أحد، وحدها معي، وحدي معها.

في تلهفي لتعلم القراءة والكتابة اقتنيت أيضا كتاب فن القراءة لألبرتو ما نغويل، سعيت أن أهرب مما له علاقة بواقعي، قرأت مقطعا للشاعر الارجنتيني اليخاندرو بيزارنيك: «**وماذا لو كانت الروح تسأل، أما زال بعيدا؟ عليك أن تجيب: على الضفة الأخرى من النهر، لا هذه الضفة، تلك التي وراءها**».

كم من الضفاف سيدي الكاتب اعتقدت أن روحي وراءها، إنما كان جسدي بين يدي، وحده يشاغبني كي يستريح، تهدأ روحي إذا ارتاح بين يدي رجل، لا بين فخذي ذكر..

أمقت جسدي كثيرا، وكفى.

أحب جسدي، أحيانا، كأنما أريد أن أحتضنه بنفسي، ولا تسألني عن تناقضاتي تجاهه، إن لم تفهمها فأنت لا تفهم النساء.. ونادرون منكم من يستطيعون، لا يفهمون فلسفة النحّال القادر على وضع يديه على العسل دون انغراس مئات الإبر في جسده حيث النحل يقاوم حاصد ما أفرزه جسده من شهد، ولا قاطف الورد كيف تقبض يده على الجمال الفاتن بمنأى عن الشوك يتحول إلى سهام تبتغي الدفاع عن جسد الوردة.

على ذكر سيرة الورد، هل أعجبتك باقة البنفسج؟ عليك أن تقرأ كثيرا عن هذا الزهر العجيب، الغامض، والفاتن.

تداخلت الأفكار بسبب هذا البنفسج، لأكمل عليك تداعي أفكاري..

إنما.. إن كانت المرأة لا تفهم نفسها، إن كانت لا تفهم بنات جنسها، كيف لهذا المدّعي أن يفهم أيا منهن؟! مركّب من براكين وعواصف وأمطار وزلازل وأنهار وبحار وفواكه، كأنما أراد الله أن يمتحن قدرة هذا الرجل، وأن يعجزه دون فهم ما يرى أنها كائن خلقت من ضلعه.

لست يا سيدي أنثى تفتش في عالم الرجال عن ذكر، لا تعنيني تلك الذكورة مهما بدت أنوثتي متعبة وقلقة.. وموجعة، وكم هي معبّرة جملة أليس في بلاد العجائب: «**من أنا بحق اللّه؟ آه، ذلك لغز عظيم**».

أنا ابنة التفاصيل الصغيرة، مهما بدت مربكة في عالم الآخرين.. وكما تقول فيرجينيا وولف في رواية الأمواج: « **أنا الناقص للغاية، الضعيف للغاية، الوحيد للغاية بشكل لا يوصف**».

الكائن البسيط الذي يشعر بأحقّيته في الجلوس ساعة على مقعد رخامي، على امتداد الشاطئ البحري، شاطئ الحب، ويرغب بالصعود إلى مقهى ستاربكس متأملا البحر من علو يتيح له السباحة بين ثنايا الموج دون خجل أو خوف من المجهول.

هكذا أحتاج.. أن أسير بخطاي لا بخطى الآخرين.

أن تدفعني نظرتي إلى السير نحو الأمام، لا تعيدني نظرة مربكة من أحدهم إلى الوراء، مفتشة في حقيبة القلب عن خطأ ربما ارتكبته، ابتسمت بعفوية أو مشيت بتلقائية، أو رفعت رأسي باتجاه ما لا يمكن تفسيره إلا وفق مراقبة الآخر لي.

أن أسير تحت الضوء، شعاع الشمس أو وهج القمر، بلا عين تترصدني، أو شهوة تلاحقني من مجهول مأخوذ بامرأة تسير وحدها حافية القدمين على أحد شواطئ العاصمة.

أن أمشي مع حيرتي، نحاول فهم بعضنا البعض والتفاهم على أدنى قدر ممكن كي نعيش مع بعض بأقل سعادة ممكنة.

لكنني لا أفعل كل ذلك..

وربما لن أفعل.

لست من مسقط، العاصمة، ولا من سكان أي مدينة ساحلية يمكنني فيها أن أعيش أحلامي البسيطة، أن أفتح عيني على زرقة البحر كل صباح، وأشاهد الموج يتبع الموج، وتكسره على الرمال، وأن أتأمل البحر غروبا، وأتأمله ليلا، يا لهذا البحر الذي أحلم به، أن ألقي إليه روحي وجسدي، وليغرقني كما أشاء، وليبتلعني كما يحب، ستبقى عظامي في عمقه أتخيلها تشرب زرقته، ولن يمنع أشعة القمر أن تصل إليها، تأتي بها روحي كل ليلة.

أبدو حالمة سيدي الكاتب..

تشبه الفراشة التي كتبت عنها في أكثر من نص قرأته له حينما بحثت عنك أكثر في الشبكة الإلكترونية..

مع أن الواقع يجلس على رز الباب يراقبني، يتحيّن الفرصة ليصفعني بكفوف لا ترحم، لا أجد نفسي في المدرسة حيث أعمل، ولا في البيت حيث أعيش.. وحيدة مع أم لا أراها كما أفترض بأم تعيش مع ابنتها، ولا أجد نفسي في حياة بطولها، يتكاثر فيها دعاة الحب، ولا أجد سوى نفاق يغلف القلوب تعجز الألسنة على منع تصاعد دخانه

رغم تلال الكلمات الجميلة عن الحب والتضحية..

للحب في أجندتهم معنى أحادي: أن أقدم جسدي قربانا من أجلهم، كأنهم الآلهة القديمة لا ترضى إلا بقربان جسد، كي ينساب النهر من أجل حقولهم، تخضرّ في لحظة شبق أزهارهم، وتجدب في لحظات الندم أرضي.

هل تعني رسالتك أنك توافقني على فكرتي، أن أمنحك فكرة رواية جديدة، أو هي رواية كاملة، أنا أكتبها بلغتي العادية وعليك إعادة تشكيلها بلغتك، لأنها تحمل اسمك.. فقط عدني أن أطلع على أوراقي بعد أن تصيغها بأسلوبك، لأقتنع أنني في الموقع الصواب داخل حروفك، وأنك جاد في هذا الاتفاق؟.

تبدو جادا للسير معي في هذا المسار، المشوار، الاتفاق..

الكلمة الأخيرة ليست واضحة تماما، الاتفاق لا يناسب حالتنا، مجرد كلمة عابرة، لتحدد ما نريده من هكذا مغامرة، أن أكتب نفسي، وأنت تعيد كتابتي.

هكذا تمضي الحكاية على ما يرام..

تخيل أنني قرأت رسالتك الإلكترونية عدة مرات، كأنما أقرأ نفسي من جديد، وأقارن بين لغتي ولغتك، شعوري عبر لغتي، وشعوري عبر لغتك التي أعادت كتابة لغتي..

موحية اللعبة سيدي الكاتب.. ولها جاذبيتها، أن تلبس حروفنا

ضوءا ليس كالضوء الذي كتبناه بها، بعض العبارات جعلتني بشعور الفراشة المتراقصة طربا حيث مشاعرها مكتوبة بالضوء، لكني أعاود النظر مرة أخرى في كلمات لم أقصدها ذاتها، تشعرني بأني أنثى تعيش داخل بيت عنكبوت، الشبكة المريعة، الخيوط الواهنة، صائدة الكائنات الصغيرة الواقعة في غفلة منها.

أضع جسدي على أبراج الصمت، لعلّ الروح تسكن، لكن الجسد يصرخ، والروح تئن، أو أنهما يتبادلان فعلي الصراخ والأنين..

سأخبرك شيئا عن علاقة الجسد بأبراج الصمت، هذه أبنية يستعملها أتباع زراديشت للتخلص من جثث موتاهم، يبنونها على جبل صغير أو تلة عالية في موقع يبعد عن المدينة، فيديره الكهنة وحدهم، يضعون جسد المتوفى لتأكله النسور، وتترك لمدة سنة بعدها تجففها الشمس، أما العظام فتوضع في تجاويف داخل البرج، تجاويف مغطاة بالجير حتى تتحلل العظام خلال عدة سنوات، هل تدرك أنهم لا يريدون لنجاسة هذه الأجساد أن تلوّث العناصر الأربعة المقدسة، الماء والنار والتراب والهواء، تلك الأجساد مسكن للأرواح الشريرة، وسيأتي إله الخير أهورامزدا للفوز على اهريمن، الشيطان، في معركة فاصلة حيث يعود الموتى للحياة على شكل أرواح أثيرية نورانية..

مرعب المشهد حينما أتخيّله، ليس الزرادشتيون من يفعلونها وحدهم، في التيبت يسمونه الدفن السماوي، لدى طوائف هندية وربما أفريقية.. يتخلصون من الأجساد كل بطريقته.

لكني أستشعر أهورامزدا وأهريمن يتصارعان في داخلي، إله الخير والشيطان، صراع النور والظلام، أترقب المعركة الحاسمة لتعود النورانية إلى جسدي حيث يلتقي مع روحي مرة أخرى..

أتوقعك لا تعتني بكل ذلك وستضع حيرتك كاملة في النقاط الناقصة.. لن أخبرك بالنقاط التي تحيّرك، ابنة الـ....

دعها من دهشة الرواية وتشويقها، ماذا يهمك أن أكون سوى نفسي؟!

تزوجت.. ولم أشعر بأني زوجة في أي يوم..

وتطلقت، ولم أستوعب في وقت ما أنني أعيش كمطلقة، ربما لأني فقدت الإحساس بالزواج أصلا..

لم يأخذ زواجي مني غشاء بكارتي فقط، بل غشاء حياتي كله، وأحاول أن أرتقه على مهل، غشاء الحياة بالطبع، أما غشاء البكارة فهذا يمكن فعله حتى في عيادة صغيرة بمدينة الخوير.

هل فاجأك الأمر؟

سأخبرك سرا: المكان ليس بعيدا عن مكتبك، أعني مكتبك السابق، بالقرب من الكلية التقنية.

لا تقلق، لن أطالبك بكتابة كل شيء أقوله هنا، أعرف أن الرقابة لن تسمح به كما كانت تسمح قبل أن يظهر «ملح» و«الرولة»، مجموعة قصصية ورواية هيّجتا شوارع ما كان يتوقع أنها تتحسس من بضع كلمات وهي تعيش زمن التطبيقات الهاتفية بكل ما فيها من فحش وفجور على

هواتف الصغار، ولا من رقيب من أولئك الرقباء يفتش في أجهزة أطفاله كما يفعل مع سطور الكتّاب، ويحاكمها من لم يقرأ.

هل أستعير أفكارك في ذلك؟!

إذن اعتبرني متطابقة معك في هذا الجانب الموحش من المجتمع، كأي مجتمع، المثالية ادّعاء، والخصوصية وهم، والعادات والتقاليد محفوظة أصولها، لا ينالها سطر في رواية، ولا أخطاء.. ولا حتى الخطايا.

هذا البحث المحموم عن الممنوع هل دليل رفض أو أنه فضول؟! أو أنه المسكوت عنه من إجابات؟!

الحساسية المطلقة بين ما يمكن أن نعيشه، وما يمكن أن نكتبه، بين الواقع وتوثيقه مكتوبا.. ما أشد تناقضه هذا الرقيب الجسدي في داخلنا!

ولا تقلق، أعرف مكتبك السابق والحالي، أعرف أشياء كثيرة عنك، في عيني يسكن مخبر، وفي أنفي كلب يمتلك حاسة شم قويّة، عارفة مسالكي حينما أبحث عن بقعة أصل إليها..

البنات مفتوحة لهن الأبواب، فتحة صغيرة عند الصدر وتغدو القلوب مفتوحة لهن أيضا، جرّبت هذه الوصفة السحرية في أمكنة كثيرة، في الكليّة عرفت كيف أحصل على الدرجات الأعلى رغم ضعفي في كتابة البحوث، لا يوجد رجل يرفض التقرب من امرأة، خذها حقيقة أضعها

بين يديك، أغلب الرجال، فتنة النساء لا تقاوم، لن أخبرك أكثر لتتخيل أكثر، وأدرك أنك لن تكتب ما سأقوله لك، خشية من الرقيب، إن كنت تنوي حقا طباعتها في مسقط.

لأجرّب، وسنرى..

ذات بحث لم أجد الوقت لإكماله، المراجع شحيحة، والدكتور عصبي في حواره، اخترت إحدى عباءاتي عن سابق إصرار وترصد كما يقولون، أردت أن ألعبها بذكاء لا خسارة فيه، لم أنزل اللحاف على صدري البارز، تمعنت نفسي في المرآة، تكاد العباءة تنفجر في موقع الصدر، زر مفتوح كاد أن يفتح فم الدكتور كاملا حينما دخلت مكتبه.. وكلما اقتربت من طاولة المكتب كان الإغواء بيّنا في عيني الدكتور، كأنما عيناه مرآة رأيت فيهما انعكاس الجزء البائن من نهديّ..

- أستاذي، ممكن أدخل؟

- تفضلي أكيد، أنت دخلت ووصلت.

- مؤكد أني وصلت؟

- أين؟!

- كنت أريد أناقشك في بحثك، يحتاج...

وقبل أن ينهي جملته بدأت أخلع لحافي كأني أصلحه من جديد، استدرت كي لا يراني مع أني أشعر بنظراته تخترق كامل جسدي..

- اسمح لي، هذا النوع من الألحفة..

- يبدو أنه يحتاج إلى تصليح مثل البحث.

- بدونهما الحياة تكون أجمل.

- اليوم تبدين رائقة المزاج.

- هل تريدني أن أصلحه؟

- اللحاف أو البحث؟

- لم أتخيلك أستاذي بهكذا خفة دم، تبدو في المحاضرة جادا.

- أنت تعرفين ضرورة ذلك بالنسبة للطلبة.

- والطالبات بالطبع.

- يا خبيثة..

- العفو أستاذي.

صافحته، تردد، لكنه مدّ يده بخجل، أمسكتها بكلتا يدي، احتضنت يده، كانت ساخنة تحت برودة يديّ، عيناه تتنقلان بين عيني وصدري..

قلت له وأنا أنسحب: سآتي مرة أخرى إذا سمحت لي لمناقشة البحث، أو اسمح لي بأخذ رقم هاتفك لأسألك إن احتجت لأي مرجع..

وقلت وأنا أغمزه: مع أنك أستاذي أحسن مرجع، لا أحتاج معه إلى

obeikan.com

مراجع أخرى.

لم يحدث شيء آخر بيننا، سوى أن بحثي لم يتوقف بين يديه مرة أخرى، كانت درجاته جيدة، لم أقدم شيئا، أبقيت عينيه تلتهمانني كما تشاءان، لم أتقدم خطوة، ولم يتقدم خطوة، لي هدفي من هكذا خطوة، وله محاذيره من أية.. خطوة.

وأرسلت إليه باقة من زهر البنفسج، لو تقدم خطوة مني سأحسبها عليه، ستعني أنه يريد السير في درب آخر..

أكتب حكاياتي لتفهمني أكثر..

لكن الحفر الصغيرة التي نحفرها للآخرين تبدو كبيرة حينما نقع فيها، هكذا حينما بحثت عن قصة حب حقيقية، أردتها مميزة، حكاية فيها الشقاوة، الاختلاف، السير على درب حوافه ورد وموج بحر يتأنق في مساء حالم.

أردته زوجا ينسيني أنني ابنة الـ.....

وينسى أنني ابنة الـ.....

واجتهدت أنه لا يعرف، مع أنه في مجتمعنا لا أحد يستطيع تغطية ذلك.

فيه رأيت حلمي أن أغادر المكان الذي يحاصرني بظروف لا حيلة لي فيها، نسب لم أختره، مكانة لا أريد البقاء فيها..

openkan.com

بعضهن يفعلن ذلك، لماذا لا أفعل؟

أكون الرجل، والأنثى.. أجمع المتضادين.. روحي وجسدي، من أجل الرجل الذي أمتلكه، لا قيمة بعد ذلك لفكرة من تملّك الآخر.

كان يجلس في قهوة داخل مجمع جراند مول بالغبرة، ليس ببعيد عن طاولة اخترتها، وقد غامرت بقيادة سيارتي إلى مسقط مسافة طويلة، قلت في نفسي: سامتّع نفسي بنفسي، لماذا أهمية أن يجلس في المقعد المجاور رجل؟

التقت أعيننا، ابتسم، ولم أبتسم.

ارتبكت بالنظرة، فقدت توازني في لحظة، كان يرتدي قميصا بلون أزرق فاتح كما أحب السماء بهدوء اللون، وشعره مسرّح بطريقة أنيقة، بياض هادئ على بشرة مورقة بفتنة، وبعينين جميلتين، بدا لي نجما تلفزيونيا في أواخر العشرين من عمره.

ابتسم مرة أخرى..

ابتسمت، لا أدري كيف فعلها وجهي، كيف جاءته الأوامر من عقلي أن يرد الابتسامة؟!

وإذ يغادر طاولته عبر طاولتي محييا، وضع في ورقة رقم هاتفه، اسم الفندق الذي يقيم فيه.. ورقم الغرفة.

قرأت الورقة بصدمة الجرأة، ورفعت رأسي نحوه..

ـــ أنت حيوان حقير.

شعرت بمفردات زوربا اليوناني تنطلق على لساني، وهذا صورة مكررة من ذلك الرجل المريض الذي قرأته في أوراق الرواية.. أمامي نموذج عصري منه يعبرني في مجمع جراند مول وسط العاصمة مسقط.

غادرني، ولم تغادرني عيناه التي رأيت فيهما سحبا وزوابع خلال لحظة تلقّيه كلماتي الثلاث..

قال «آسف جدا سيدتي» ليزلزلني بثلاث كلمات، ومضى.

جسدي أو روحي التي دافعت عن وجودي، حينما قلت له جملتي؟

جسده أو روحه من وضع اعتذاره بين يدي؟ قال سيدتي، للمرة الأولى يقول لي أحدهم سيدتي، صرت سيدة، من هذا الرجل الوسيم، دعاني إلى غرفته في الفندق الذي يسكنه، مشروع سرير بين يديه يلوح، عمانيّة تجلس وحيدة على طاولة كأنها من «بنات الهوى» يدعوها العابرون إلى سرير متعة، سائح يريد جسدا عابرا في مدينة عابرة.

كنت أتلظّى في جحيم غضبي.. مشتعلة به..

وبعد نصف ساعة فاجأتني باقة ورد، وزجاجة عطر على طاولتي، ورجل يدير ظهره مبتعدا عني.

باقة من زهر البنفسج المرتعش بحزنه، يبتسم لي فرحا، يا إلهي، كيف يستطيع رجل في لحظة أن يجعل من هذا الزهر الحزين مبتسما؟! لا أظن أنك لا تفهم معنى البنفسج، بمناسبة الحديث عنه.. هل ما

زالت الباقة باقية على مكتبك؟!

في ورطتي بالزهر على طاولتي صوّرته بعيني عشرات المرات، وبعدسة هاتفي ما لا يحصى من الصور، على جوجل بحثت عن معنى يعطيه هذا البنفسج العجيب، عرفت أنه يرمز «**للحب الصامت المتأجج**» ويخاطب المرأة الخجولة، هي زهرة التواضع لأنها تخفي أزهارها بين أوراقها، لكل زهرة فيه حكاية، لكل نظرة للون معنى، هذا الغموض بين عيني لوحتي التي ستبقى خالدة..

هذا البنفسج بقي هديتي الغامضة..

ألقى هاني صنارته ومضى..

ورد وعطر.. أي أنثى تقاوم سحرهما؟ من رجل اعتذر وسمّاني «سيدتي»!

انتظرت خطوة أخرى منه، لكنه لم يظهر..

رقم هاتفه على طاولتي، ترك مصيري بين يدي، ويضغط عليّ بباقة ورد حمراء في قلبها وردة بيضاء تكاد تتوهج قمرا بين اشتعالات اللون الأحمر.

قطعت الورقة إلى جزأين، احتفظت بالجزء المكتوب عليه رقم هاتفه، ورميت الباقي فيما تبقّى من كوب القهوة.

أردت أن أنهض، أمضي، أخرج..

إنما إلى أين؟!

أنا محاصرة به.

في تلك اللحظة،توقف الزمن، واجهت نفسي، كنت أشعر بأني لست بحاجة إلى شيء، وفجأة شعرت بحاجتي إلى كل شيء، هكذا خطفتني جملة في رواية زوربا، كنت أقاومها، أقول إنني قادرة على صنع الأشياء التي أحتاجها، أملأ فراغاتي بمهارتي على القفز من حبل إلى حبل، وأشعر أني لم أسقط، رغم الكدمات في قلبي، أغالط نفسي في كل مرة وأردد أنهم سقطوا، أنا سقطت واقفة، أستند على شجرة غروري ولا أقع، أمسك الريح أرمي بها في وجوههم فيتعثرون.

أعود حافية أسير على جفاف صحرائي وأدّعي أنها جنة طالما أنها خياري.. هل يمكننا اكتشاف خرابنا الداخلي؟ وهل نراه معمارا عظيما إذا كررنا على أنفسنا أن الخراب يستوطن نفوس الآخرين.. لا نفوسنا؟.

في المساء عدت إلى البيت.. إلى تلك الحارة الترابية في قرية تبدو بعيدة عن الضوء.. الضوء الذي أحتاجه للسير دون عتمة الحصار.

الباب الحديدي كصورته المحفوظة في ذهني، أخضر بحواف بارزة مصبوغة المساحة داخلها بأصفر فاقع.. لا نضع قفلا على باب حوش البيت إلا في حالات نادرة، لا أستطيع حتى تذكرها.. من يهتم بدخول بيت فيه امرأتان لا تملكان سوى خرابهما الداخلي فلا يعتنيان بمنزل

خرب؟! لا أريد من غرفتي إلا سريرا صغيرا وفراشا يسند جسدي، ولحافا يغطيه، فلا فراش يأوي الروح، ولا لحاف قادر على تغطية الجسد.

غرفة أمي لا سرير فيها، جسدها الستيني لا يحتاج أكثر من وسادة كي تكتمل دورة النوم في عينيها، تنام على أية وضعية، فراش تحتها أو بدونه..

دخلت غرفتي، وبحكم العادة لم أسمع ما يشير إلى وجود أمي في البيت..

وجدت الجدران كعادتها تستقبلني، وسريري البارد.

وحين مضت الساعات تحركت أصابعي نحو الهاتف، وكتبت إليه..

- هلا
- أهلين.
- كيفك.
- تمام، وأنت؟
- الحمد لله..
- اسمي هاني.
- لم أسألك.

obeikan.com

- ستحتاجين معرفته.

- واثق من نفسك، من أين؟

- ألمانيا.

- الاسم عربي.

- عربي، أحمل جنسية ألمانية، وهناك أقيم.

- زيارة لعمان؟

- نعم، سياحة عابرة، جئتها من دبي.

هل عليّ التوقف هنا لأكفّ عن الكتابة إليك؟!

كفّاي تطالبانني أن أمضي، وقلبي موجع يريدني أن أقف أمام نقطة يكاد الحبر يجفّ دونها، كما هي سيرة عهد، مع فاصل هائل بين الاسمين، والذكريات العالقة بهما، والدمع المنساب على وداعهما.

لوحة المفاتيح مشرعة أزرارها تحت ضغط أصابعي، كأنما الحكاية تأمرني أن أمضي بالبوح لرجل آخر عمّا فعله رجل ذات حين من العمر.. ولا نتعب من تكرار أخطائنا، كأنما معجونون نحن من الطينة الخطأ.

كان المنحدر أمامي، لكن غطّاه بالورد دوني.. أسمعني كلاما لم أسمعه من قبل، وصوته بلهجة كانت عطرا ينسكب على الروح حتى أغرقها.

يا لهذا الورد والعطر الذي سيّجني به، منذ مباغتتي في مقهى جراند مول، وكل مساء أترقب فيه أن تأتيني رسالته، ما ألذّ أن تجلس على حافة الانتظار، ويعدك كل حين من تنتظره أن لا يخلف موعده.. غادر مسقط وعاد إليها، وكنت كوجبة فاخرة تنضج على مهل، واستوت.. وحان دور التهامها.

لا تظن بي الظنون..

حدثني عن ألمانيا، عن النهر، والمساحات الخضراء، عن مقاهي برلين، كم حلمت أن أضع كفي في كفّه ونسير على ضفاف نهر محفوف بالأشجار، والنايات تموسق الليل في جفني، نلقم البط السابح في البحيرات بعضا من خبز فتّتته أصابع عاشقين.. أن أترك شعري للريح، أن أسير تحت المطر بمظلة، أن يأخذني إليه بفتنة الحلم يمنحني الدفء حينما يحاصرنا البرد، رأيتني قصيدة لنزار قباني، عاشقة صاعدة من شعره.

لا تعلم يا سيدي الكاتب كم مضت بي أحلامي..

أن أغرّد بعيدا عن حارتي، أسكن رواية بطلها حبيبي، وبطلتها أنا، لن يغمزني أحد بأني ابنة الـ... ، تخيّلت نفسي رسّامة تقف على ضفاف نهر ترسم، عازفة بيانو فوق جسر تعزف، عاشقة تداعب أصابع عاشقها على طاولة مقهى.

رأيتني أسير على صفحات رواية..

لكن نهايات الروايات لا نملكها.. لا نملكها يا سيدي الكاتب..

سأستريح قليلا..

فتحت جرحي فوق حدود طاقتي.

ربما سأكتب إليك لاحقا، وربما سأكفّ عن البوح، أشعر بأن اللعبة ترهقني، لم أتصورها هكذا، أن تكتب نفسك تعني أن تمعن في فتح جرحك من جديد وتسير فيه متلذذا بأن ثمة كتابة ستؤرخه.

هل تحتاج الجراح إلى تأريخ، إذ نؤرخ هزيمتنا، كأنما الدم المسفوح لا تكتبه الأرض، ولا تشربه، ولا الدمع المسفوح تحتفظ به الوسائد في عتمات الليل الطويل، ولا ينسحب نحو باطنها؟!.

لماذا إذن تركت حكايتي بين يديك لتكتبها كما تشتهي الكتابة لا كما يود جرحي؟!

أظن، حينما نكتب جراحنا فإننا نحنّطها، كي تبقى شاهدة، فلا ننسى.

تبدو دوامتي ببدايات رومانسية، إذ لم أكن أملك سوى الحلم أعلّقه على جدار الوقت كلما ضغط كفّا الحياة على وجهي، الآتي سيكون أجمل، أو أقل قبحا.

في مرحلة العمر الأولى لا تستطيع أن ترى نفسك جيدا، هم يرونك فقط، وحينما تكبر ستواجه معرفتك بنفسك.. الصعوبة أن تستوعب لماذا حدث كل ذلك، كيف مرّت تلك المياه العكرة من تحت جسر وجودك، وربما أغرقت الجسر والضفتين معا، وأنت تحاول أن تتنفس

على الأقل، أن تتمسك بحقك في الحياة، ريثما تزيل الوحل عن رئتيك.

فتحت عيني على الحياة كأنما بوغتّ فجأة أنني أقيم مع أمي فقط، أين ذهب البقية؟ لا أدري.. كأنما أنا ابنة بطل روايتك الشهيرة، وأمي هي المرأة الغريبة التي رحلت بحملها.

صدف الأقدار كثيرة هي سيدي الكاتب، ربما أنا ابنة المصادفات.. سأسأل أمي إن كانت تعرف حارة الشويرة، مع أني موقنة أن فارقا زمنيا كبيرا يفصل عن هذه المصادفة، أظن أن الزمن انتقل في كفّ سلامة بنت يحيى، وألقت بأمي إلى مجهول زمني خرجت من رحمه المرأة الغريبة، وخرجت من رحمها، وتهنا على الأرض حتى وصلنا إلى تيه جديد بدأت أكتشفه عندما وصل عمري الخامسة عشرة، كأنه يأتي مع نضج الجسد، والسؤال من أي الأجساد تناسل، وحطّ هكذا بشغفه المرعب!

سألت أمي: أين أبي؟

وكررت عليها: أين أقاربنا؟

وسألتها: من نحن إذن؟!

وكانت النظرة محيطا هادرا، أراه في كل مرة أشد غموضا، الخط الواقع تحت عينها اليمنى يشي بجرح قديم، ومع النظرة الصاخبة تطرف تلك العين، ويندفع الخط إلى أقصى حدود الذاكرة بحثا عمّا فتح خدّ أمي، هي تتذكر ذلك حتما، وأنا أجهل.. أجهل أشياء لا تحصى، ليس

سبب الأخدود الباقي على وجه أمي، بل سبب أخاديد كثيرة نمت داخلي.. ونمت بيني وبينها!

حينما أحاصر من كل صوب أبحث عن رجل هو الأب، عجزوا أن يكونوا لي الأب، وأمي لم تخبرني من يكون أبي، وإن مات أين سأجد قبره، أشعر أني أحتاجه وهو في قبره، أحتاج قبر أبي، أريد أن أبكي على ترابه، أن أخاطبه، سيشعر بي حتما، وسأشعر به، وستخرج يد حانية تربت على رأسي، ويقول لي إنني الرجل الأصدق في حياتك بين أولئك الكلاب الذين تقذفهم الحياة عليك.

لكني خسرت حتى معرفة أين قبر أبي، بعد أن خسرت وجوده في حياتي.. متخيلة أنه مات، وإلا كان معي في لحظات تهدّمي.

أطلت الثرثرة..

سأضغط على زر «إرسال»..

بانتظار كيف تبدو حروفي.. وكيف يسطع جرحي بين يديك.

اسمها هند

هند.. أعدت تكرار الاسم في ذهني كمن يتأكد من وجود شيء ما، حقيقي، رغم خروجه من عالم افتراضي، لو أني أغلقت جهاز الحاسوب لن يكون له وجود، لو أني قطعت إرسال شبكة الانترنت لتعذرت معرفة أين هي هذه الـ «هند».

لكن الأشد قسوة وحضورا أن تكون كلك متلبسا بذلك الحضور.. وتلك القسوة في التذكر.

هند.. يا لترسخ الاسم فيّ، كأنما أخشى على لساني أن ينطق به، فأسقط في خيبة أسريّة مفخخة بالاحتمالات، اسم الأنثى يكفي لتعذر القبول بأي مبررات..

لكنني سأكتب رواية باسم هند، هند التي تكاتبني عبر البريد الإلكتروني باستمرار، وتبوح لي بأسرارها، وتريدني أن أكتبها في رواية.. لا أفكر في مجازفتي حتى لا أضيع على نفسي مشروعا روائيا..

ستصدقني زوجتي، بيننا نحو 26 عاما من الحياة الزوجية، وليس بيني

وهند سوى رسائل بريد إلكتروني، لا حب، ولا حتى مشاعر مخبأة.

تخيلتها، هناك، في بقعة ما، تقرأ رسالتي، أو رسالتها بطريقة أخرى، أبقتني في زاوية ضيّقة، الكاتب الذي يعيد صياغة حكايتها، يخلع عليها عباءة شخصية البطلة في رواية دورها أن تجد بطلا أو بطلة في تشظيها، وهند فاتحة التشظي.

«هاني» يبدو بطلا سريع العبور، رغم أهميته في صياغة حياتها، تقول إنه الفخ الذي وقعت فيه، وكانت تصنع الفخاخ للآخرين، كأنما توقفت الآن عن لعبتها في إيذاء الرجال من خلال الانتقام، جميعهم في نظرها هاني، هي التي لم تر رجلا في بيتها، فقط أمها، الحاضرة الغائبة، ولا أعلم أي أم هذه؟!

كيف لسلامة بنت يحيى، بطلة روايتي الشويرة أن تحاصرني مرة أخرى، وتلعب لعبتها السحرية، أن تطوي الزمن في كف المرأة الغريبة وتلقي بها أمامي مرة أخرى، ابنتها، ابنة الغريبة، إذ غادرت غرفتها القصيّة خارج حدود العمران في قرية سرور، تخفي حملها، وتضعه في البعيد، هناك.

كدت أصدّق لعبتي الروائية.. وأنصاع إلى سحر سلامة، تلقمني دهشة الحكاية مرة أخرى على يد هند.

أسئلة تلقي بها سلامة بنت يحيى والمرأة الغريبة وهند، وحفيد سلامة بنت يحيى، وكأنما هند ابنته حقا، أحاول تفكيك خيوط تكاثفت فوق

قدرتي على فهمي ما حدث ويحدث، ما مرّ في الشويرة وما يمرّ بين يديّ في زمن يتكاثف غباره من البعيد، كأني أعيد ترتيب الزمن ليبدو طيّعا على مقاس حكايتي.

هاني، الشاب العربي القادم من ألمانيا، تصادفه هند في جراند مول، تأتي من قريتها التي لا أعرفها، هاربة من واقعها، فيضع القدر في طريقها واقعا آخر، يشكل حلمها لمغادرة واقعها القديم، ترتدي ثوبا مختلفا في مدينة مختلفة.

الغريب القادر على تفتيت غربتها في غربة هناك..

كأنما رأت في نفسها تكرارا لحكاية الأميرة العمانية التي غادرت بيتها وراء عشقها ورحلت إلى ألمانيا، لكن هند قد لا تعرف السيدة سالمة بنت سعيد، ولا تدرك أي مأساوية عاشتها بعد وفاة عاشقها بعد سنوات قليلة من تتبعها لقلبها.

لكن، يكفي لسالمة شرفا أن طوى الزمن الآلاف من سكّان بيتي الساحل والمتوني في زنجبار، وبقيت سالمة بعيدة عن درب النسيان، خالدة بالحكاية.

هل قرأت هند ذلك الكتاب، ورأت نفسها أنها لن تخلد سوى بوجودها بين ضفتي كتاب، وإن فاتها سحر الحلم الألماني؟.

هند تجيد لعبة التخفي.. والوقوع في التناقض، كيف لم تلتق الرجل وتسوّر نفسها في محيط الكليّة من شباب كثر يعرفون الطريق إلى هذا النموذج من الفتيات؟

أنثى مراوغة، متناقضة، بديهي أن تلجأ إلى الكذب في نسج شباكها حينما تنتقم، تواصل ذات الفعل معي، تنسى أنها كذبت، في الثلاثين أو الأربعين، وكل هؤلاء الشباب حولها كيف تخشى من فوات القطار بآخر الرجال!

أتخيلها تراوغ لوحة المفاتيح، لتختبر لهفة الرجل عليها، أو على حكايتها.. تبقي باب الزمن مواربا دون قدرة على اجتياز فواصله وتفاصيله إلا بمقدار ما تسمح به المواربة، وما يثقل باقة زهر البنفسج من توهمات وأخيلة، ودرب آخر تجاوزه الدكتور الجامعي، وبقي شاهد إثبات على طاولة مكتبي حينا من الوقت، ذبل، ورأيت زهره / جسده يخاتل الحياة فتنسحب منه، وما تنسحب منه الروح ليس له إلا كهوف الصمت، لعل طائرا يأتي إليه حينما نتخلص منه.. لو أن الذكريات مجرد باقة زهر من البنفسج نلقيه بكل بساطة!!.

أتخيّلها ترسم شخصية روائية خارج ذاتها، خارج حياتها، تستعين بي لكتابة روايتها، ستفاجئني ربما أنها أصدرتها قبل أن أتمكّن من جمع خيوط الحبكة جيدا..

كيف تبدو بعد أن تقرأ حروف حياتها بصورتها الجديدة؟ تقترب صورة البطلة من عينيها، ترى ذاتها تتحرك في مساحة حكائية جديدة، ترسم خطوة الكتاب بمقدار ما تمشي على الأوراق، وتبوح أكثر فأكثر.

فتحت جهاز الحاسوب في مكتبتي الصغيرة بالمنزل، وكتبت على محرك البحث اسم عبدالكريم عبدالقادر، اخترت أغنية غريب، هذه

الموسيقى تصيبني بشجن عجيب، والكلمات كأنها تعيدني إلى الطفولة، أغدو أصفى ذهنا عندما يعيدني شيء ما إلى تلك الطفولة رغم قسوتها، بجانبي آلة الطباعة القديمة التي اشتريتها قبل خمسة وثلاثين عاما، وبندقية الصيد الصغيرة، وذكريات تتصاغر أكثر مع وقع خطو السنين، لكنها تمدّني بالطاقة اللازمة لأعبر زمني.

«غريب، شايل جروحي»..

وأتأمل الصفحة البيضاء على الحاسوب، أملؤها بمقال الغد، أفتح البريد الإلكتروني لأرسل المقال إلى صحيفة الشبيبة، وبلهفة أشد أبحث عن اسم هند في قوائم الرسائل، لا أجد شيئا.

أبلع إحباطي، لا حيلة لي سوى الانتظار، ولا أمل سوى الترقب.. أعيد قراءة رسائلها السابقة، تضع زوجتي كوب الشاي على طاولة المكتب، وتسألني إن كنت أريد شيئا، أخجل أن أقول لها: ردا من هند.

يتواصل صوت عبدالكريم عبدالقادر، وأمضي في أسئلتي، ورطتي التي ذهبت إليها بخطى واثقة، وأجدني أمام مفترق حيرة تطرق أبوابي.. «غرييييب.. غرييييب، آآه، غرييييب». يقطع الصوت الحزين المسافات على وقع تكرار كلمة غريب، أغدو الغريب، ولوحة المفاتيح نوتات حائرة في مهب الموسيقى المتألمة.

هل هي الرواية أو هند، شغفي للحكاية وتفاصيلها، أو الأنثى المتخفية وراء هند؟، كلما وضعت الأنثى شال الغموض أثقلتنا الرغبة

بإزاحة الشال لتنكشف الأنثى أمامنا، عارية دون غموض، ولا حتى ورقة توت تسترها دوننا..

وحينها تنكشف اللعبة وتفقد ألقها، مشتاقين للعبة غموض أخرى.

الرواية لعبة الخفّة وهي تتحوّل إلى مطاردة يومية للأفكار والكلمات، هناك أعطتني الإشارات الأولى للسير على درب ما، وأخفت الباقي، هي التي تقودني إلى مجاهلها، لا حيلة لي سوى الاستسلام، وفي الكتابة.. الخضوع يعني المضي في المشروع إلى أقصى حدوده..

لا كرامة في الكتابة، ولا ذلك الكبرياء الذي يجعلك تقذف بأوراقك من أقرب نافذة لتتحرر من القيد المخملي وقد وضعته على دماغك مانحا إياه وقتك وعينيك وراحتك.

قفز إلى ذهني حديثها عن أمها التي تغيب عن البيت.. ترى ماذا تكون أمها؟ والنقاط اللغز القادر بملئها على فك لغزها.. هي ابنة الـ.....، والنقاط بؤرة فضولي، الخيط الواهي بين زمن المرأة الغريبة وحفيد سلامة بنت يحيى.

من «عهد» أيضا؟!

كتبت إليها: أطلت الغياب.

وانتظرت، بلغت أغنية عبدالكريم عبدالقادر منتهاها لأكثر من مرة، بموسيقى عبدالرب إدريس إذ فجّر الغربة لحنا.

فجأة أزهرت المكتبة فرحا.. كل كتبي تراقصت على أرففها، وكانت

لوحة خارطة العالم أمامي على حائط مكتبتي تتحرك بمحيطاتها وبحارها وأنهارها وغاباتها، وحسناوات الكون يتألقن على الحائط يستعرضن الجمال الساكن قارات الدنيا.

اسم هند يبدو تاجا فوق أسماء مرسلي البريد الإلكتروني.. فتحت الرسالة بسرعة.. ردّت بسطر واحد.

- هل يعني غيابي لك شيئا؟.

أسقط في يديّ، عجزت عن الرد، بدوت عاشقا في الكلمتين اللتين كتبتهما لها، وهذه هند تفتح باب الفخ أمامي، هل أقول «نعم»؟ غياب هند يعني لي شيئا، لكن: يعني لي ماذا؟ وإن كتبت لها «لا» فربما أكون تورطت في فخ آخر، لا أعلم كيف ترسم هند فخاخها، لمن يقول نعم، أو يقول لا!

وباقة زهر البنفسج وصلتني مبكرا منها، وعليّ تحديد المسار، نائيا عن الدرب الآخر، بما لا مبرر للسير نحوه.

- أعني غيابك عن تكملة الحكاية.

استرحت لردي قليلا، قبل أن تفاجئني بجملة أخرى..

- الذي يترقب غائبا فليس من أجل حكايته بالضرورة.. أيها الرجل.

- هي حكايتك، على أية حال.

- لو أن قضيتك هي الحكاية لصنعت حكاياتك بنفسك، تستطيع

رسم ما تشاء من الأسماء، هند، عبير، فاطمة، وكما تحب من صناعة المفردات، للأسماء أو لتفاصيل الحكايات.

- ذلك يعني أن ما أرسلته إليك لم يعجبك!

- لم أقل ذلك، لا تتخيلني كما تريد.

- هذه توقعاتي.. لا أكثر.

- ضع توقعاتك فيما يخصّك، ما يخصّني وحدي مسؤولة عنه، لحظة، لماذا تكتب ما لم أكتبه؟.

- أين؟

- "أنحاز إلى روحي، فأشعر بالغربة، أنا قالب من جسد، أتحرك به، أتألم به، يحاصرني، أستدعي روحي لكنها ترفضه، تبقى متفرجة من بعيد، وحين أحلق بجسدي يحاصرني الضياع، الجسد خطيئة، عبور كائنات تدعى الرجل، لا جسد بدون وجود رجل، إنما الروح تبقى وحيدة، لأنها لا تريد شراكة مع أحد، وحدها معي، وحدي معها».. في رسالتي السابقة لم أكتب هذه الكلمات، لماذا تجعلها على لساني؟ فلسفتك عن الجسد تخصّك وحدك، حتى وإن تلاقت نظرتانا أحيانا، إنما لا تضف ما لم أقله.

هل تماهيت في شخصية هند فوضعت أفكاري كأنما هي أفكارها بالضرورة؟ عجزت عن الرد، ولا أملك إجابة.

توقفت أراقب الكلمات طويلا، ما الذي يدعوني للمتابعة مع أنثى

obeikan.com

مجروحة، سأكون أمام رغبتها في الانتقام هدفا متاحا، والأسوأ أن تدخل في مواجهة مع من لا يجد ما يخسره، أتخيل هندا هكذا، امرأة تعبت من واقعها، حائرة تفتش عن مخرج لمتاهتها، ولا يهمها الدرب الذي تسلكه لتكسر حاجز الصمت في المتاهة.

- هل شعرت بأمر ما من ردي فتوقفت عن مراسلتي وأنت الذي عاتبتني على طول الغياب؟

مرة أخرى لا أجد ما أرد به.. عليّ أن أبدو غير مهتم بها، ولا قابل للخدش من ردودها العنيفة، أظافرها لن تصلني مهما بدت طويلة وصلبة.

- أحترم رأيك.

- لم أقل رأيا، ذلك يشبه الطلب، لا تضعني تحت مجهر توقعاتك.

- ربما.

- ذلك مؤكد، لا يخضع لكلمة ربما.

- لماذا تخاطبينني برصاص مزاجك اليوم؟

- هل شعرت بذلك؟ عليّ الاعتذار إذن، أنتم معشر الرجال لا يفترض أن نتحدث معهم إلا بمخمل الكلام.. سلاااام.

أصبت بإحباط لانقطاع محادثة ترقبتها بصبر، لكني أحسست فجأة برضا نفسي كبير، حميت نفسي من رصاصات كانت تقذفها ردودها، مزاج حاد يصعب التعويل عليه، أو الصمود أمامه.

لم أكتب سؤالي الأهم: من هي أمك؟

فضولي الذاتي أو الروائي؟ لا أدري، لكنه الفضول الذي حاصرني أكثر من رغبتي في كتابة حكايتها.

لكن من في قلبه عاصفة لن يلجأ إلى ابتغاء السكينة بالصمت.. يحتاج ليفتح بابا في قلبه لتخرج العاصفة.. في قلب هند ما يحتاج إلى نافذة على الأقل..

عدت إلى مكتبتي، والحاسوب، والبريد الإلكتروني, وكتبت..

- هند.

- نعم أستاذ.

- طمنيني عليك.

- بخير، على كل حال.

- اكتبي، بالكتابة نشفى.

- لست مريضة.

- عندما أكتب لا أبدو مريضا، لكن الحياة تكتسب جمالا حينما نستطيع أن نكتب حكايتنا فيها.

- مهما كان الألم؟!

- لا حياة بدون ألم.. واهم من يتصورها أنها حديقة ورد، حتى زراعة حدائق الورد لا تكون بدون ألم، ألم الفلاح ومكابدات المشقة على

openkan.com

راحتي يديه وهو يحرث الأرض، وعلى ظهره إذ ينحني لتفقد النبتات الجديدة، وعلى جسده إذ تباغته شوكة من هذه الشجرة أو من تلك حينما يقطف لنا ذلك الجمال.

- تحاول أن تفلسف الحياة كما تريد.

- لماذا لا نفلسفها كما نريد إن كنا نجد في ذلك راحة.

- يا أيها الكاتب، تبدو الحياة بين يديك رواية، تكتب حكايتها كما تريد، لكنها أقبح من ذلك، ولا تستحق إلا اللعنة.

- إذا خاصمتها ستلعنك حتما.

- ماذا تريد مني؟

- أن تواصلي سرد الحكاية.

- أحاول أن أصدّق ذلك مع أن في ذلك مصلحة لك، تتبعها، لتعبر إليها فوق جرحي، لا يهمك أن أتألم إذ أستعيد الحكاية تلو الحكاية.

- تلك رغبتك.

- ورغبتك أتوقعها أن تراني، وتلتقيني، ووو.

- لا أعرف اسمك إن كان صحيحا أو لا، ولا أعرف هل أنت جميلة بما يستحق اللقاء أو لا، فكيف أفكر بك بطريقة أبعد عن أن تكون الرغبة في الكتابة؟!.

- تتكلم كرجل صيّاد وإن تواريت خلف قناع الكتابة.

obeikan.com

- تبدو رواية زوربا اليوناني منظارك لتريْ الرجال من ورائه، ليسوا كل الرجال زوربا.

- ونادرا منهم بطل الرواية الذي حمل معه زوربا إلى تكريت.

- الحياة مقسمة بين هذا وذاك.

- تراسلنا كثيرا..

- سأضع هذا الحوار في روايتكِ.

- تقصد روايتك.

- روايتي.. وحكايتك.

- حماسك لأنني امرأة، لو كانت حكاية رجل ما كنت بهذا الحماس لكتابة حكايتي لتكون روايتك، يا عزيزي أنت لا تعرفني قدر ما أعرفك، أنا امرأة حارقة ولا أقول ساخنة كما تحبون تسميتهن بالمتوهجات جسديا، لكني أمتلك جاذبية أوقعت رجالا كثيرين، سهّرت بعضهم حتى الصبح، يطلبون صورا حميمية فأرسل لهم، ستسألني: صورك؟ وأقول لك بالطبع لا، احتفظ بآلاف الصور التي تلبّي احتياجات الرجال وهم في غيبوبتهم تحت تأثير شيطان الجسد، حينها لا يبالون بشيء، يصبحون سكارى، أطلب منهم ما أشاء، ما يسهّل ابتزازهم لاحقا، يخافون الفضيحة فيستجيبون.

- ألا تخافين من دفعك ثمن ما تفعلينه؟!.

obeikan.com

- ثمن؟!! جميلة هذه المفردة الذكورية، سمعتها مكرّرة كثيرا منهم، يغضبون، وكلما انفلت عقال غضبهم أكثر يقعون في ورطات أكبر، يصبح ما بين يديّ من أدلّة أكثر دسامة لفضيحة «بجلاجل» كما يقال، الصور التي بين أيديهم عامة ومتاحة عبر النت، والصور التي بين يديّ صورهم، أو على الأقل جريمة إرسال صور عارية إلى امرأة.

- مرة أخرى أسألك: ألا تخافين؟

- طلقت الخوف منذ زمن، من يدمن ألعاب الخفّة عليه أن يطلّق الخوف، السائر على الحبل إن خاف وقع، ومن يضع رأسه بين فكّي أسد عليه أن يتعلم كيف يأمن غدر الحيوان القوي فلا يجيعه، هكذا أنا، شبعت من الخوف حدّ التخمة، وأدرك أن الرجل أكثر خوفا، لذلك يستجيب ويصمت.. يبدو أنك لا تعرف خبرتي في مجال أمارسه منذ عشر سنوات، اكتسبت خبرة يا عزيزي، كخبرتك في الكتابة، وكلما جرّبت حيلة جديدة تدرك حيلة أخرى، ومن يسير في درب مرة يتعلم، وكلما كانت الصعوبة في المشي أكثر يتعلم الإنسان أكثر، لكني للأسف، أتقن الكلام عن ذلك بينما الواقع يقول إنني قلعة خربة تساقطت جدرانها من أعلى الجبل، فلا خبرة ولا تعلّم ولا شيء من تلك النظريات التافهة.

- تتحدثين بلغة فيلسوف.

- عليك إعادة صياغته ليبدو هكذا، أنا أتكلم بطريقتي، بأخطائي في اللغة.

- وأخطاؤك في الحياة.

- على اعتبار أنك لا تخطئ، وحدي أرتكب أخطاء في هذا الوجود.

- كلنا نخطئ.. مع الفارق.

- الفارق هو أن خطأ الرجل ا لتواء بسيط قابل للإصلاح، خطأ المرأة جريمة.

- لا يمكننا تغيير معادلات كهذه، لم أصنعها أنت، ولست ضحيتها الوحيدة.. إنما هل لي بسؤال أخير، وتجيبينني؟

- ربما.

- هل يمكنك استكمال النقاط، ابنة الـ.....؟

- قالت: الـ..... مكوبرة.

وكتبت: «هكذا أرخيت حبل فضولك قليلا، نسيت أن أقول لك بأن غيابي كان لانشغالي بكتابة المزيد عن حياتي، لا أملك صبرا على الكتابة أكثر عن نصف ساعة، احتجت إلى أيام وأيام لأكتب ما سأرسله إليك، حينما أعود إلى المدرسة لا أجد ما أفعله أغلب الأوقات، سوى العبث بالهاتف والتنقل بين المحطات الفضائية، وقراءة الروايات، سجنت نفسي بنفسي، طالما أن الجدران تحميني من العالم الخارجي حولي، سوى ما أحتاجه للتنفس قدر الإمكان، أمي غائبة منذ أسبوع عن البيت، ما زالت تعيش تقاليد أيام زمان في مهنتها، رغم...

ستفهم أكثر.. ستفهمني، ربما.

كنت مستعدة للإجابة عن جميع أسئلتك، لكنك قلت إنه السؤال الأخير.. توقعتك تسألني عن قصتي التي سردتها لك عن حكاية حب عشتها بمصادفة غريبة، على الأقل بالنسبة لي، لكنك أرخيت الستارة سريعا، وانسحبت بسؤال أخير بقي هو الذي يؤرقك، ابنة من أكون، ابنة ماذا؟ تلك هي الذكورة البدوية في دم الرجال لا شك، الحسب والنسب، هذان اللذان لا أكترث بهما.

ربما نلتقي، وستتصاعد هذه الذكورة في دمك، لأني امرأة لا تستطيع سوى أن تنالك جاذبيتها.. لصوتها جاذبية تذيب القلوب، عندما أقول كلمة أحبك أمثّلها كأنها تصعد من أعماق روحي فتصبح بعدها أفئدة الرجال حقول ورد تشعّ بفتنة خرافية، لونا وعبقا.

في البدء يطلبون ودّي..

وبعدها يشتهون وردي..

وكلما تمدّدت الأحلام على شواطئ قلوبهم اشتعلت الرغبة في أكبادهم، ولا أقول في أجسادهم، الرغبة تحرق الكبد أولا، يصبح الجسد مكوّرا كقطعة جمر صغيرة تتدحرج، لو لم يخرجها الرجل لاحترق بها، ذلك ما يسمى بالشهوة.

تبدو الآن في حسابات أخرى بعد أن قلت لك أنني ابنة المكوبرة.

ولأنك تشبههم لم تعتن بشيء حسبتك أنك ستنتبه له، لم تسألني عن.. عهد.

نسيت أن أخبرك.. زرت طبيبا نفسيا آخر، لكن، كعادتي، رأيت الذكر قابعا في نظرته، حدث موقف مني تجاهه، الأمور متوترة، «سلاااام».

كتبت لها أسألها أن نستمر في الحوار، لكنني وحدي من أطفأ الشمعة، وعليّ تحمّل العتمة التي ستلازمني وأنا أواجه أسئلتي لأفهم هذه المرأة.

حطّ غراب الصمت ثقيلا بكآبة ووحشة.. ليس أمامي سوى الصمت أيضا، الإمساك بعاصفتي قدر الإمكان، خرجت عاصفة هند عبر النافذة التي فتحتها أمامها، شعرت بالتحسن، عليّ مواجهة المفردات، قراءتها، كتابتها، وبين الأمرين محاولة استيعابها.

بنت المكوبرة.. سمعت بالمفردة منذ زمن.

وفاتني سؤال: من تكون عهد؟ كأنما هذه المرأة تختار الأسماء التي تخترعها، ربما، هند.. عهد!

فتحت نافذة قلبي فدخلت عاصفة كانت قبل قليل في قلب هند، أبقيت عينيّ محدقتين في شاشة الحاسوب، والصدر يراوغ العاصفة كي لا تنفلت بما يكشف عن مكابداتي أمام زوابعها، أغلقت عيني كأنما الغبار يتصاعد من مكان ما، كأنما الأدخنة تأتي بها حرائق من بعيد.

لماذا كل ذلك؟!

كشرطي ضبطت نفسي متورطة في فخ كان من الممكن تجاوزه، وعدم الاكتراث به، النأي بالذات عن حرائق الآخرين، لماذا أسميها حرائق؟!

اللعبة الروائية تتطلب هذه المبالغة، أو أن شيئا ما يرجف في الذات يسحبها نحو حديقة ورد أنثوية؟!

أن تشارك امرأة حكايتها، أن تشاركك حكايتها يعني أنك على عتبة الدخول في تفصيل مهم يلزم المرأة لتكون قادرة على البوح أكثر، امرأة التناقضات، أنثى باقات زهر البنفسج، ابنة القرية الداخلة في أعشاش الدبابير لتنال بغيتها، وتأمن مكر الدبابير، تراهن على خبرتها، كيف تمدّ خيوط اللعبة أمامهم، يسيرون عليها، وفي لحظة ما تشدّ الحبال إليها، يقعون، تضحك، كطفلة تلهو مع دمى بين يديها، إذا انكسرت لعبة سيأتي الغد بلعبة أخرى.

قد أبدو لعبتها الآن..

ماذا لو فكرت هند، بأني لعبة صالحة بين يديها، وما يحدث سوى الخطوة الأولى التي أسيرها نحو الشرك المعدّ لي؟!

استرجعت صورة غائمة عمّا رأيته في الحلم، وما رأته زوجتي..

الأفعى، والعقرب السوداء..

مناكفات القدر أتخبّط بين تيّاراتها، وأنا المتردد أبحث عن منفذ نحو الـ هناك، ترى ماذا يعني هذا (الـ... هناك) إذ تودّ الروح أن تستلقي قليلا على مخدّة ناعمة وتدعو الجسد أن يخلد إليها.. حتى مطلع الضوء، ليس ضوء الفجر حتما؟!..

لا مناص سوى الحذر، اللعبة مبهمة، والخيوط عصيّة على الفهم، أنثى عابثة تجيد استخدام اللغة بمهارة وإن أخطأت في بعض المفردات، كونها تقرأ روايات وتعرف زوربا اليوناني لا يكفي أن تفكر بهكذا أفق.

هي تبدو هكذا، أو أنني أرسمها على الورق لأراها كما تحب جديرة

باللغة الروائية؟ حيلة الراوي لاجتياز جسره نحو المتلقي؟

لن أكتب هندا، سأكتب واحدة تشبهها، تأخذ منها قليلا، وأرتق ثقوب حكاية هند بتخيّلات من موقدي الخاص، أذيبها لتبدو الرواية بأقل عدد ممكن من الثقوب، سطحا واحدا لامعا لأنثى ليست بالضرورة هذه ابنة المكوبرة.

لكن هند قادرة على صنع روايتها، حكايتها مادة خام تستجيب لشروط موقد الكتابة دون حاجة إلى بهارات نساء أخريات.

كأنما هند، في الـ (هناك) تسمعني، أغلقت درب الأخريات دونها، ألقت برسالة جديدة إليّ، فتحت الرسالة بأصابع تضغط على لوحة المفاتيح بارتجاف لم أستطع فهمه على الأقل، حاولت مداراته أمام نفسي..

وأمام زوجتي التي فتحت باب مكتبتي.

موعد التسوق من «اللولو هايبر ماركت» القريب من بيتنا.. الموعد أو الوعد، كلاهما له نتيجة واحدة، أن أترك جهاز الحاسوب، والكتابة.

أخفيت أصابعي في جيبي، ووددت لو أرتدي قناعا لأضعه على وجهي، يعكس الجسد ما نحسّ به، تندفع توتراتنا من عمق بعيد هناك، في داخلنا يسكب جمره، يتصاعد الدخان، ليس بوسعنا أن نمنع تصاعد الدخان إذا عجزنا عن الوصول إلى الجمر، ولا نملك دربا إلى عمقنا.. ما أضعف الإنسان تجاه دواخله، له أكثر من داخل، أو أنه داخل واحد متعدد المسالك، يلقي بدخانه إلى العين فتدمع، إلى الوجه فيحمرّ خجلا أو غضبا، إلى الأصابع فيشويها بحرقة يجعلها ترتجف كأنها تشعر

بصقيع لا يرى.

اقترحت زوجتي أن نذهب إلى جراند مول، المجمع التجاري المجاور لمركز اللولو، أخفيت رفضي للطلب بادعاء مشكلة المواقف فيه.. هل أخشى أن أمرّ على القهوة التي جلست فيها هند وقابلت هاني؟

يا إلهي، يبدو أن هندا تلعب لعبتها معي، هند وهاني، تشابه الحروف، حتما أن هناك كذبة ما، لا تتوافق الأسماء بهكذا قدرية تبدو مصطنعة من أنثى عابثة.

لماذا تشغلني أنثى عابثة؟! تكشفني أمام ذاتي، تكشف انشغالي بها.

وجدتني أدير السيارة يمينا صوب جراند مول، أبحث عن موقف سيارة، ابتسمت زوجتي لأني استجبت لطلبها، وابتسمت فرحا بانتصاري على قلقي..

كانت دندنات عود عبادي الجوهر مغرية للمضي بهدوء تحتاجه الذات في تلك اللحظات.. أقارب كلمات الأغنية مع امرأة تحاول احتلال اهتمامي، كي تبدو اللعبة كتابة رواية، وخوفي من فخّ يلوح في الأفق..

«لا أنت وردة ولا قلبي مزهرية من خزف...»

ليست كل امرأة وردة حتما، لكنّي أخشى أن يكون قلبي مزهرية مصنوعة من خزف.. تحطمه في عمر يبدو لا يقبل سوى أقرب سلة نفايات.. «إيش اقول غير إني آسف إيش اقول؟.. أنا خانتني العواصف والفصول»..

عبرنا الباب الزجاجي القريب من مواقف السيارات في الدور

الأرضي، ثلاث فتيات يدخلن معنا، ليست هند بينهن، هند تأتي لوحدها، هكذا تقول، امرأة في الثلاثين تسير على السلم الكهربائي، قد تكون هندا، للمصادفات أقدارها العجيبة، قدّرت أن هذه الهند في الثلاثينات من عمرها، قالت عن خبرتها في ألعاب الخفة، مطلقة، تعمل في مدرسة، ربما معلمة أو إدارية أو ربما...، حاولت أتذكر الوظائف الأخرى في المدارس، بوغتّ:

- العربية للعود عندهم تنزيلات.

- من؟!

- «اللي شاغل بالك...»

- العربية للعود.

وأتبعت جملتي بضحكة، أغلّف المشهد كي لا ينفلت من داخلي أكثر، وصل حافته كما يبدو، بين عود عبادي الجوهر وعود عطري ينبعث عبر الباب المفتوح للمحل الشهير ثمة نبض حقيقي، يبدو المكان أنثى من موسيقى وعطر.. وقصيدة تتحول إلى حسناء تطير مع «الدخون» بسحر ملائكي هائل المعنى.. «ليه العطر وإنت أنفاسك دخون؟».. جملة من أغاني عبادي الجوهر رأيتها هناك، في أرفف المحل، اختارت لها بقعة مضيئة، تأملتها، طويلا، كما يفعل أي مشتر يتأمل بضاعة مبهجة بين زجاجات العطور.

حلّقت في رومانسية مباغتة، أمسكت بيد زوجتي وسحبتها نحو المحل، شممنا المزيد من العطور، وخرجنا بزجاجتي عطر تكادان

تنطقان داخل علبتيهما، أبقيت نفسي داخل ذلك الشعور المبهج، وفجأة لمحت مقعدا، ضمن مقاعد تشكّل القهوة التي كتبت عنها هند، كأنها جالسة على هذا المقعد، وخلفه بخمسة مقاعد جلس هاني، عبر المسافة هذه، ناولها الورقة، وألقت عليه بجملتها الشاتمة، وعاد إليها بباقة ورد وزجاجة عطر.. هل دخل نفس المحل واشترى لها ذات العطر الذي أحمله بيدي؟!

ألقيت نظرة خاطفة نحو ما أحمله، وأبقيت المكان ورائي، أبحث عن لوحة كارفور في أعلى السقف إلى أين تشير.

كأنما الوجوه أمامي بينها هند تسير.. كأنما هند أمامي حولها الوجوه تسير.. لكن «الأفعى المشبكية» تدلّت أمام عين مخيلتي فجأة، ليست سامة لكنها تلتف حول ضحيتها، تخنقها على مهل.. ويتساقط كباقة زهر البنفسج جفّ ماء الحياة فيها.

.. وكأني أكتشف اللحظة القادمة قبل حلولها..

رسالة على الواتساب من أخي ماجد..

- بعد خروجك من المؤسسة أمس اتصل شخص يسأل عنك.

- من اسمه.

- قال إنه أبو هند.

كأنني أنظر الوقت على الهاتف، قلت لزوجتي أنه من الأفضل أن نصلّي أولا، ونستكمل تسوّقنا بعد الصلاة.

المتبقي عن وقت الأذان ربع ساعة، توضأت وقرأت بضع آيات من

القرآن، لعل هذه الروح تسكن ريثما أقف بجسدي خاشعا أمام الله، وترى أن الحياة أجمل بدون.. هند.

ترقبت صباح اليوم التالي.. أقرأ رسالة هند.

وخشية أن يعاود أبا هند اتصاله مرة أخرى.

لكن الليل يرمي بقلقه على الجسد، ربما لأن الروح صاحية لا تودّ الهجوع.. ماذا فعل هاني مع هند؟ كيف ستبدو الحكاية؟

من أبو هند الذي اتصل؟ هند وحيدة مع أمها، لم تذكر أباها مطلقا.. إن كانت صادقة!!

في عتمة الغرفة تناولت الهاتف بجواري عدة مرات، هل ثمّة رسالة إلكترونية وصلت للتو؟ قد تبدو هند قلقة ومتوترة، وستكتب إليّ.. قد يغالبها حزنها ولا تجد سوى الكتابة.. إليّ.

أقاوم همّي، ووهمي يغلبني..

قالت إن لها جاذبية توقع الرجال في شركها.. لم أرها ومنجذب إليها!! أتخيّلها، مفتونا بصورة مثالية لأنثى تشاقيني منذ عرفت طريق الكتابة، طويلة، رشيقة، بيضاء، شعرها أسود ينحدر على كتفيها، عيناها زرقاوان كالبحر وكالسماء، ابتسامتها تخجل القمر، صوتها شاعري، لها هيبة أميرة وقلب يذيب الحجر لرقّته، أن ألتقي حوريتي التي رسمتها ذات يوم، لأقول لها انتظرتك طويلا أيتها الأميرة، جفّ العمر وأنا أنتظر، فقدت خمسين عاما من عمري وأنا أترقّب صدفتي هذه، كيف تأخر خروجك من صدفتك أيتها اللؤلؤة الحزينة ؟ دائما أتخيّل أن تلك الأنثى حزينة،

كأنما الحزن يجمّل النساء.

لكن الأفعى تدور بملمسها الناعم كراقصة من خلال الصورة المضبّبة عن حلمي ذاك، وهند أشبه بالحلم، أقرب بالواقع.. صورة مضببة أيضا عن أنثى ترقص من بعيد كـ.. أفعى.

الأفعى الحاملة للشر، أو الحارسة.. بين أساطير مرقت أفتش عن أنثى لا تبدو أنها الحارسة حتما.

أراها كأنثى العقرب، تراقص الذكر تدعوه لممارسة الجنس معها، أو التزاوج كما يتطلب التعبير العلمي، لا الروائي، بعد أن تنتهي منه تلتهمه، تشبه أبناء جلدتها، العنكبوت الأنثى، لكن الذكر من يلجأ للإغراء لأجل التزاوج، يهدم بيتها تعبيرا عن شغفه بها، البيت الواهن، يكوّر الذكر بيت أنثاه حتى لا تصل رائحته إلى الذكور الآخرين.. وبعد حفلة الزفاف تتناوله لقمة سائغة..

أراها في أنثى حشرة السرعوف، فرس النبي، بعد التزاوج تلتهم رأس ذكرها لأن به مواد مغذية..

أستدعي الذكورة أمام أنوثة هند.. أقاومها بوعي الواقع، متخيلا رأسي لقمة سائغة لهذه الفرس القادمة من خلال نافذة حاسوبية، متوجّسا أمضي إلى نفق لا أدرك اتساع فجوته ونهايته.. ومقدار الضوء القادر على أن يهبني قليلا من الرؤية في حلكة اللاوضوح.

الأنثى الافتراضية كيف تبدو؟ بأية جاذبية تختال؟.. ماذا يعنيني من جاذبيتها؟ وألقيت القبض على مخيلتي: الأنثى ترقص فيها، ولا ظل

للشخصية الروائية.. أنثى تخرج من شاشة الحاسوب، عاشقة تقبض على كفّي، وتسير معي على رمل شاطىء القرم نحتسي خمر الليل، ونرسم على سقف السماء قمرا إن أعتم المساء خلسة..

أقع تحت وهم شاعريتي، كأنّي أقاوم بها سطوة الفراغ المتراقص كأفعى أمام مخيلتي إذ تختال فيها هند كيفما أرادت.. بغتة اكتشفت ضعفي وفراغي، هائلة مساحاتهما في الخطو الفاصل عبر نصف قرن ورائي، وعن ما يتبقّى في حساب الغيب.. أمامي.

عبرت ساعات الليل بما استطعته من نوم، كان صباح الجمعة كسولا، وكانت مكتبتي تنتظرني لأجلس إليها، مبتهجا بما لديّ من جديد في مشروعي الروائي، يسبقني فضولي إلى لوحة المفاتيح لأدخل على بريدي الإلكتروني، رشفت الشاي بسرعة منتظرا جاهزية الإفطار.. وقد سبقته إلى رسالة هند..

فتشت في رسالة هند عن ما وراء الكلمات، المعنى وراء المعنى، الخوف يختبىء وراء أكمة الخوف، خلفه الأنثى، أين تكمن عضّة الأفعى؟ أو أني متوهّم يفكر الروائي بدلا منه، ويسيح في عتبات الخيال متجاوزا حدود واقعه؟!.

.. وبدأت أعيد صياغة الكلمات، مجتهدا، لتبلغ الكلمات رضا.. هذه الـ «هند».

اسمي هند

بنت المكوبرة!.

نعم، بنت المكوبرة، كأنك لا تعرف ما تعني المفردة، أو أنك نسيتها.. أراك من خلف شاشة الحاسوب مبتهجا بما حصدت من مفردة أشبعت فضولك حتما..

إنما لا تحاول أن تعرفني أكثر، أريد أن أبقى الأنثى التي لا تعرفها، إلا من خلال البريد الإلكتروني، الحكاية الخفيّة في لعبة الحياة معك، عبثها، تمرّدها، قسوتها..

مثير أن لا تعرفني، وأبقى امرأة افتراضية على شاشة حاسوب، تشاغبك بحكاياتها، فتكتبها كأنها حكايتك.. هل وجدت متعة في إعادة صياغة ما أرسله إليك؟ إذا لم تجد فتوقف، تماما كما هو حال رغبتك في الوصول إليّ، إذا تفعل ذلك لتراني ذات يوم فلا تحمّل نفسك فوق طاقتها، لست المرأة التي تنتظر.

موجع للرجل أن تلوح امرأة قريبا من شباكه ولا تقع.. وأنا لا أحب الوقوع سيدي الكاتب، جميل أن أخاطبك هكذا، سيدي الكاتب،

كأنّي الفراشة التي تحرك عينيك أينما ارتعش جناحاها، لكنّي فراشة حزينة، أفضّل البقاء بعيدا عن رحلة الضوء.. وهواجس الاحتراق.

احترقت مرتين، ولا حيلة لي على الثالثة، ولا قدرة..

هل يمكن أن تمضي حياة امرأة بدون رجل؟! يبدو ذلك أفضل رغم استحالته، شيء في أدمغتنا يقنعنا بذلك، مسكين كل رجل، مسكينة كل امرأة، يتصارعان لتجنب أقصى قدر ممكن من الخسارات الحياتية، في مرحلة الحب يجاهدان كي لا يخسرا بعضا، وتكتمل علاقتهما بالزواج، ويجاهدان بعدها لاحتمال بعضهما البعض من أجل أولادهما، ثم يجدان الأحلام تتلاشى من بين أيديهما، فيناضلان من أجل العشرة التي جمعتهما عشرات السنين..

ألا ترى أنهما في مشقة دائمة من أجل أن يظلا معا، رغم إحساسهما بأن العالم يبدو أجمل لو أتيحت لهما فرصة بداية أخرى؟!..

في بيت أمي أبدو أكثر حرية مما كان عليه وضعي مع رجل، لكني أفتقد السعادة الحقيقية التي أسمع عنها وأقرأ، لم أجدها إلا في لحظات الوهم، هل السعادة أن تعيش الوهم الجميل؟! أن تكون مهمّا لأحد، أن ينتظرك أحد، يترقب رائحة عطرك شخص، أن تكون سعيدا ولو قليلا.. في لحظات أقل.

أتحدث مع عشرات الرجال لكني لم أسلّم جسدي لأيّ منهم، يشتعل حد اختناقي إنما أدرك كيف أطفىء جمري بمائي، لن أكون إناء تفريغ لأحد، يشعرني الأمر بالقرف، مطلقة، بنت مكوبرة، تعيش

وحيدة مع أمها، موظفة، ولا أنسى جاذبية جسدي حيث أشعر بأعين الرجال تخترقني.

أمي كظل، يحضر في البيت ويغيب، علّمتها مهنتها الصمت..

كأن حكاية أمي أغرتك..

ماذا تريد من أمي؟ أن تجد حكايات أكثر جاذبية من حكايتي؟ ذلك الفضول سأرويه قليلا كي لا تنسى أنني أصل الحكاية، ومنبعها، وجدولها، ومصبّها، وأشجارها التي تزيّن حقول الكلمات بين يديك.

تغادر أمي البيت إلى بيت العروس، وأجلس وحدي في عزلتي، أمضغ الصمت لأني لا أريد أن أشاركها مهنتها التي لا أحبها، لكنني أحترمها، ذات يوم شعرت بالضيق من هذا العمل الذي أحسّه لا يليق بأمي..

– صرت متعلمة ولا أعجبك.

– يا أمي، شغلك لا يعجبني، والحمد لله راتبي يكفينا.

– من هذا الشغل نلت هذه الشهادة.

العبارة الحارقة التي لا تكف أمي عن ترديد اسطوانتها، بعد الثانوية العامة لم أحصل على النسبة التي تمنحني فرصة دراسة حكومية، فكانت أمي تناضل لتدفع رسوم دراستي الجامعية، والدورات التدريبية في المعاهد كي تعضد مساري في الحصول على وظيفة، وبدأتها بالعمل في مدرسة خاصة، ثم وصلت، ربما بواسطة من أمي، إلى التعيين في مدرسة حكومية.

– العمل ليس عيبا.

– دعك من هذا الكلام يا أمي، حان دوري أن أرد أفضالك علي.

– تريدين مني الجلوس في البيت أنتظر مصروفا!

– لا تسمّيه مصروفا، دعينا نبحث عن تسمية تناسبنا، ما رأيك أن يكون رد دين؟

– لم أدينك حتى تعيدي دينك.

– مشكلتك يا أمي، رغم أنك لم تدخلي المدارس، لكن لسانك أقوى وألسع من المتعلمين.

– خبرة الحياة يا ابنتي، نحن في الحياة مثل ما يقول المثل «ثور بيدار، اضرب وازجر».

قالت ابنتي، بقيت المفردة تتصاعد إلى قمة رأسي، نادرا تنطقها، كمن لا يستوعبها جيدا، أو يداريها، أو يداري أمرا ما خلفها.. ولا أدري ماذا تعني أمي بخبرة الحياة التي اكسبتها تلك المنطقية في الحوار، بما يكفي لأبلع لساني كلما دارت مواجهة بيننا؟ برودة أعصابها تصيبني بالنرفزة، هيجان أعصابي قادرة على استيعابه، أكون العاصفة التي تلوذ بجبل فتهدأ، تتركني أبكي كما أشاء، ولا تتدخل.. أصرخ فيها، أمزق، أحطم، فتعيد كل شيء بهدوء إلى مكانه، وترمي الحطام إلى سلة نفايات كبيرة تضعها في مطبخ صغير يكفي لبضعة أوان تمرّ أيام عليها عاطلة عن العمل.

تغيب أمي عن البيت أياما، حسب رغبة أهل العروس، وحالة بيت

العريس، رفع الراية المخضّبة بالدم ليس من مهامها فقط، بل خدمة العروس، وإشعارها أن هناك من هو معها، قريب منها، وأمي قريبة من بنات القرية جميعهن.. إلا أنا، وتشتدّ حاجتهن إليها كلما بعدت المسافة بين قريتنا وبيت العريس، ترى أمي ذلك، وأصدّقها، لأني لا أملك سوى تصديق أمي، أو عدم مناقشتها في ذلك، تشبّه دورها في الحياة كثور الفلاح، يضربه من أجل أن يتحرك لسحب الماء من البئر.

– معقول!! حتى في هذا العصر يحتاج الرجل لإثبات أن العروس ما زالت عذراء؟!

– طبعا، المرأة بشرفها.

– ولا يعرف الرجل أن يتأكد بنفسه دون وجودك؟!

رمقتني أمي بنظرة شعرت أنها جمرة طاشت من عينيها فأصابت كبدي مباشرة، شعرت بتقلّصات في داخلي، تمسّ معدتي، قلبي، أشيائي الحميمية.. كلّ ما في أحاسيسي..

تذكّرت نفسي، سنوات الحرمان أسكبها جمرا على جسدي، لأثبت أن ابنة المكوبرة قادرة على التمسّك بشرفها، مهما بدت المسألة تافهة في حساباتي.

هند.. نعم اسمي هند.. اسمي الحقيقي..

أتخيّلك واقعا في متاهة واسعة، ربما أعجز حتى أنا من تخيّلها، كيف لابنة «المكوبرة» أن تأخذ حيّزا من حياتي! وكيف للمكوبرة أن تسمّي ابنتها بهذا الاسم الذي لا يتداوله الناس كثيرا! مرتبط في أذهاننا

باسم بلاد نرى بشرها حولنا أينما توجّهنا، لست بحاجة لأخبرك أنك تعلم تراث هذا الاسم، هند بنت عتبة، الصحابية التي كانت بطلة في الجاهلية والإسلام، زوجة أبي سفيان بن حرب، ووالدة معاوية بن أبي سفيان، شاع أنها لاكت كبد سيد الشهداء حمزة بن عبدالمطلب، ولم يثبت التاريخ ذلك، دعني أستعرض عليك ثقافتي أيها الكاتب، مع أن الأمر لا يحتاج أكثر من وضع الاسم في محرك بحث.. وستجد بغيتك.

هذه بنت المكوبرة تراسلك، تقنعك أن تكتبها رواية، هل سألت نفسك: كيف ستكون إذا اختفيت عنك في وسط الرواية؟ هل ستكمل الحكاية من أخيلتك؟ أنا بين شعورين: أهمّيتي في حياة كاتب تعطيه امرأة لا يعرفها حكايتها لتكون روايته الجديدة، ولا أهمية لها حيث يمكن للكاتب أن يمضي بخياله ربما أبعد من حياة واقعية لامرأة تحنّ للخيال، وهي ترقد في غرفة صغيرة خالية من الأم التي تذهب مرارا إلى الأعراس لتبقى هناك كونها.. مكوبرة.

لا أدري من فينا الواقع في متاهة؟

لكل منا متاهته التي يعيش فيها، يعبث في محيطها، تعبث في محيطه، تعلمه ألفبائية الحياة بتكرارية مملة، ولذلك يأتي الحصاد لعبة متاهات صادمة، تقذفنا من شباك إلى شبيهه، مترقبين النهاية.. أن تكفّ الشباك عن لعبتها، لكن تمزقها يوقعنا في الأرض بقسوة..

وحينها ندرك أن العمر لم يعد فيه ما يكفي للنهوض مرة أخرى.

آه لو نجد حريتنا في التحليق بعيدا عن الشباك، كطائر يهب جناحيه

للريح، ويرى الأرض من فوق حيث تتصاغر أشياؤها.. هل نخشى السقوط فقط؟ ذلك رائع أيضا إن كان السقوط هو اختيارنا، لا اختيار الصيّاد الرابض ببندقيته أسفل تحليقنا، أريد حريتي، حتى في اختيار نوع.. السقوط.

أعجبتني رسالتي السابقة حين أعدت قراءتها كما أعدت كتابتها، كبرت الكلمات على يديك سيدي الكاتب، اكتسبت معنى أكثر ضخامة، وكأنك احتفيت بتلاقي أفكارنا حول مفارقة رؤيتنا للجانب الجسدي في حياتنا، فبدت كلماتك أوسع معنى من كلماتي، لكنك حتما ستقول أنني كتبت ذلك، ولست أنت.. أيها الكاتب.

ذلك جرحي مهما اغتسل من حبرك.. لون الحبر لا يستطيع سوى تغيير سطح الجرح، عمقه يبقى بذات الألم، ألمي الذي يبدو عاديا في مفكرات الآخرين الموجوعين أكثر مني، لكن لا يشعر المرء بوجع يضاهي وجعه، لأنه ذاق مرارته وبكى منه.

تبدو نفسي أمامي كناظر إلى سفينة تحطمت في محيط بعيد، لا أستطيع أن أصل إليها لأنقذ ما استطعت منها، ولا أملك قدرة على العوم ولا على إنقاذ أي شيء..

أبدو متشائمة اليوم، وكأني كنت على قدر عال من التفاؤل كل يوم!! لكن لا شيء يمنعني في لحظتي هذه من الكتابة بأريحية بعيدا عن نظرات أمي الصباحية، أرى فيها زعيقا، صخبا، رغم أنها لا تقول إلا بعض كلمات، مفادها أنّي لا أصلح أكثر من آلة تمسك بهاتفها

النقال طوال اليوم، تعود من عملها بكآبة مقلقة كأنما تذهب إلى أعراس الآخرين لتحزن.

– كأن العرس ليس على ما يرام.

– البيوت أسرار.

– أخبريني شيئا.. ولو قليلا.

– قلت لك البيوت أسرار.

– ليس بيننا أسرار.

– بنات اليوم ما يعرفن يضمّن شيء.

توقعتها أن تأتي بشيء من الأمثال كعادتها، لكنها تطلق آهة من صدرها وتسكت، وخلف هذا السكوت أمضي، أحاول تخيّل ما حصل، أتمنى أحيانا لو أعمل كأمي، فضولي يقودني إلى كل ذلك، لو أن أمي كاتبة، ستكتب كل شهر رواية، وستغدو أشهر شخصية روائية، أقصد أشهر مكوبرة في البلد.. اعتقد أن الصواب في ذلك أنه لن يطلبها أحد في عرس.

أمي شخصية حافظت على مهنتها جيدا، تصرّ على البقاء في بيت العريس سبعة أيام كما كانت العادات قبل عشرين سنة أو أكثر، المضحك أو المبكي أنها تبقى بينما يسافر العروسان إلى شهر العسل خارج البلاد، مضحك لدى الناس الذين يعرفون ما تقوم به أمي، ومبك، حدّ القرف، بالنسبة لي.

- سمعت أن العروسين سافرا.
- في حفظ الله.
- ولماذا بقيت هناك إذن؟
- ولماذا لا أبقى؟!
- لأن بيتك هنا.. لا هناك.
- كلها بيوتنا.. وأنا ما غريبة عندهم.
- اشوف هذا عيب.. عيب.. عيب.
- من هذا العيب عشت وتربيت وتعلمت..

تختم أمي حوارنا بتذكيري الدائم بأفضال هذه المهنة عليّ، أني عشت بها، وكبرت، وصرت موظفة، أفهم أن هذه المهنة تجري في دم أمي وبدونها ستذوي وربما تموت، لكن كيف أقنعها أنها لم تعش ولن تعيش، وأن هذا زمن لها حق أن ترفع رأسها كما يحق لأي امرأة، وأي أم....

وأسأل نفسي: هل رفعت رأسي حقا، وهل أعيش أنا كما أتمنى!!

ماذا يعني أن تحاول رفع رأسك في مجتمع لا يرى لك الحق في ذلك؟ أن تبقيه منخفضا كي لا يقال إنك مصاب بداء الغرور.. وأنك نسيت أصلك؟

كيف لبنت المكوبرة أن تنسى أصلها!!

مجتمع يعتني بالأصل، ويدوس على ما يشاء من أفكار ومبادئ،

طالما أن الأصل مرتفع..

وجدت الطائر الذي سيحلق بي بعيدا عن «الأصل» حيث لا يهم أي فرع سأحطّ عليه، طالما أنه بعيد عن أشجار حارتنا المحروقة بأفكار كهذه..

أحببت هاني، عبدت فيه الملامح الجميلة كما أقنعنى بأني أنوثة مثيرة للحلم، وأن مقاييس الجمال تختلف بين شعب وآخر..

أحدثه عن شوارع ألمانيا ومقاهيها كما أستدعي معلومات عنها من الإنترنت، ويحدثني عن فرص عمل في بلدان نفطية تحقق الاستقرار والأمان..

وفي الليالي التي تغيب فيها أمي عن البيت كنت أحدثه حتى مطلع الفجر، وأذهب، وربما لا أذهب، إلى المدرسة القريبة من حارتنا، أذهب بأعين تحترق لقلة النوم، لكن قلبي لا يحترق إلا بشوق لهاني، وروحي لا يطالها لهيب لأن هاني وضع لها أجنحة للطيران بجسدي بعيدا، لن تراني هذه المدرسة مرة أخرى، لن تستطيع مديرة المدرسة غمزي بجانب فمها كلما تمرّدت على أمر منها، ولن أمشي في هذه الحارة ثانية..

نسيت في غمرة ذلك أمي..

وكأن نفسي، دون شعور مني، تريد الانتقام من حالة نسيان تمارسها أمي والحياة علي..

قلت لهاني: أريدك أن تعزمني في مقهى على النهر، وأن تركض

ورائي تحت الثلج..

يضحك هاني، ويعدني أن نفعل كل ذلك عندما نزور ألمانيا.

لم أفطن إلى كلمة نزور إلا متأخرا.. متأخرا جدا.

قلت لأمي سأتزوج..

ضحكت أمي، ضحك حتى الشق أسفل عينها، ورأيت في لحظة أنها فرحة لأنها ستقوم بدور أم العروس، للمرة الأولى، والأخيرة بالطبع.. لا بدور المكوبرة.

فرحت أمي، كمن يفرح للمرة الأولى في حياته، بدت لي خلال ما مرّ من سنين بيننا أنها تمارس دورا آليا في الحياة، كل ما فيها مبرمج، لا أثر واضح لفرحة تبدو على محياها، ولا حزن يمكن قراءته، نظرات حائرة بعمق يصعب رؤية قراره..

– من؟

– اسمه هاني.

– من أي القبائل؟

– لم أسأله، لأنه ليس من عمان.

– ما من عمان؟!! أريد لك واحد قبيلي وعماني، وأنت...

– يا أمي.. ما الذي أخذناه من كلمة قبيلي؟! انظري لنفسك، وانظري إلي..

– خطبك ولد سعيد بن مرهون.. أبوه قبيلي معروف.

- سكران ليل نهار.
- وولد مصبح؟
- أنت تعرفي السبب..
- سمعت ما يقوله الناس عنه، حريمه السابقات يكذبن.
- العلم عندك.
- البيوت أسرار..
- خلينا في هاني.. يكفي أنه عربي، لكنه يسكن في ألمانيا.
- عربي!!
- ما مثل المعنى اللي تعرفيه، عربي يعني أنه من دولة عربية..
- تريديني أوافق؟!!
- أكيد.
- بشرط، يسكن معنا.

وانطلقت كلمة «نعم» بما فيها من تعجب ورفض، كل الدلالات المتمردة على كلمة «نعم» والتي تعني القبول والاستجابة.

أمي تريد هاني يسكن في بيتنا البائس في حارة كل ما فيها يدعوني للإحساس بالبؤس اكثر، بؤسي في مكان يراني هامشا لا علاقة له بمتن المكان..

أمي لا تريد أن تبقى وحيدة، تواجه عزلتها في الأيام الخالية من أعراس.. وحيدة، تبدو كأنها لا تقرأ المستقبل، لكن أحوالها في

السنتين الأخيرتين ليست على ما يرام، تطول حالات شرودها، أعصابها ليست بذات البرود الذي اعتدته..

لكنني لا أريد أن أعيش كأمي..

لم أتردد كثيرا، لا علاقة لي بالمكان، وستعتاد أمي ما أريده لها من دفع لثمن.. لم أتساءل أي ثمن، لكنني لم أر من الحياة.. سوى هاني، وحياتي معه.

هاني ينتظر قراري، في زيارته القادمة عليّ أن أكون مستعدة للزواج، لم أسأله عن التفاصيل، لا حاجة لي للتفاصيل، اعتدت على جنوني، جرأتي، مع الدكتور أيام الدراسة في الكلية، ومع آخرين، لن أخبرك عنهم، لن أكرر الخطأ كما فعلت أمام الطبيب في العيادة النفسية.. أتوقع أنه لن ينفعك في كتابة الرواية، لن توافق الرقابة عليه.. هههههه

علينا أن نضحك قليلا كي لا تنفجر شراييننا كآبة..

الذين لا يجيدون الضحك يموتون مبكرا بحسرتهم، ورغم ما خلفي من ركام أضحك ما استطعت، أحيانا لأتمسك بما بقي من ضوء في آخر النفق، وحينا لأن.. شر البليّة ما يضحك.

سأختصر عليك «السالفة».. بدأت أتجهز لزفافي، اشتريت ملابس وذهبا وغيرها من لوازم، كما يليق بعروس أن تستعد لليلة العمر، ليلة تأخرت فرحتي بها سنوات، وكمن يتمسك بقارب أخير، إنما لن أحتاج إلى فستان أبيض..

الهروب من المكان، حياتي في المكان، الناس الذين في هذا

المكان.. محفزي الأكبر للمغادرة أيا كان الثمن..

لا صديقة لي أصطحبها لتختار معي لوازم عرسي، سيكون كل شيء مفاجئا، لا أريد لتفاصيل صغيرة تربطني بالمكان، سأحرق كل سفني خلفي، حتى طفولتي سأواريها التراب الذي عاشت به وعليه.

هناك، سأتركها، بجوار قبر عهد.

إنما لن أبكي عليها كما بكيت على عهد، وكما أبكتني عهد..

سأضع على قبر ذكرياتي باقة من زهر البنفسج، ليبقى كل شيء غامضا ومريبا.. ومحزنا.

.. وأنظر إلى شاشة الحاسوب مستعرضة صور ألمانيا كأني أفتح نافذة من غرفة بيتي هناك.. كل هذا الجمال أفرّط فيه لأبقى في حارة بائسة تصفعها العواصف الترابية وتختنق عشرة أشهر بالحرارة!! يا لجمالي إذ أرتدي المعطف وأسير مع حبيبي تحت المظلة يحمينا من المطر، لماذا أقول يحمينا؟! أريد أن أتبلل بهذا المطر الذي يكره حارتنا، وقريتنا كلها.. أتشبع به، أذوب كقطعة سكر في مائه البهي.. أجمع أوراق الشجر في فصل الخريف، سألتقط صورا لا تحصى، سأذوب في المكان كقطعة السكر تلك، كل ما أشعر به فضاء سكّري يسكرني كلما أمعنت في أخيلته أكثر.

صحت في أحلام المنام واليقظة على هاني أن يأخذني إلى دنياه، سيراقصني تحت المطر، وأشرب نبيذ عشقه كما يشتعل جنون عشقي به، سأجعله أسعد إنسان في العالم.

. . وأمّي تراقب ما أفعله، وتواجه كل ذلك. . بالصمت.

أمي تتقن فن الصمت، تتناول فرشاتها على مهل، وترسم على لوحة صمتها فصلا جديدا، كأنما لا يغلي داخلها بشيء. . كأن ما أنويه لا يعنيها، كأنما واثقة أنها تمسك بحبل الدابّة مهما تراقصت في عنادها وتمردها، فلا تبعد الدابّة إلا بمقدار حريتها من مسافة الحبل الممسك بعنقها.

لا تدري أمي أني خلعت الحبل من عنقي خلسة، أوأنه بمقدوري أن أمدّه في المسافة الفاصلة بين مسقط وبرلين.

أكتب لك ما رأيته في اللوحة أمامي حينما كان هاني يمسك باللوحة لأرى الدنيا من خلال عينيه البراقتين بالأمل. . خطوط يده التي لا تشبهنا إلا بمقدار ما نرى الرجولة متبدّية في شخصية سينمائية. . ما كنت أراه من خلف القناع الحالم الذي ارتديته ليخفيني كلي خلفه، وبقيت العينان وحدهما تؤثث الفراغ أمامهما بأخلية الحلم.

آه من تلك اللحظة، حينما غادرت أمي إلى حفل زفاف في حارة تبعد حارتين أو ثلاث عن حارتنا وضعت حقيبتين كبيرتين، ضمّتا عمري كله، ملابسي التي انتقيتها على مهل بما يليق بعروس، أدوات الزينة بماركاتها المعروفة، العطور التي سألت كل زجاجة فيها عمّا يحبه هاني منها أكثر، عقد ذهب، خواتم، أساور، ما لا أستطيع تذكره رغم أن كل تفصيل مرسوم على اللوحة تلك، تلك التي كان هاني يمسك بها، وأنا أرسم أحلامي عليها.

آه من تلك اللحظة التي حجزت فيها جناحا في فندق الحصن بشانغريلا، شارف حسابي البنك على الجفاف، ماذا يهم؟ من أجل الفرح تبدو الأشياء في متناول اليد، متناول العمر.. عشت لأفرح، وحانت ساعة الانتظار وقد تخطيت الثلاثين من العمر، والأربعين ليست ببعيدة، من أنتظر بعد ذلك في مجتمع يعتبر الفتاة العزباء محط أنظار الشهوات، ومع وحدتي كنت أسحب تحت عباءتي لقب بنت المكوبرة؟!.

وذهبت أقود سيارتي أكثر من ساعة حتى أنتظر هاني يصل مطار مسقط، يصل مطاري، أذهب به، رجلي القادم من البعيد من أجلي.

هل تريد سماع بقية حكايتي في الحياة، أو فضولك يقودك إلى أمي أيضا؟.

نسيت شيئا..

مبروك على السيارة الجديدة، رأيتها أمام بيتك أمس.

اسمها هند

شغلتني هند..

آخر سطر في الرسالة أصابني بقلق حقيقي، بدأ القلق السابق في الحكاية مجرد تفصيل تمهيدي لهذا التحوّل، تعرف عن تفاصيلي ما يخرج عن حيّز المتوقع، كتابة روائية لحكاية امرأة تلوح من خلف رسائل بريد إلكتروني.

المرأة الزاعقة من خلف شاشة حاسوب تقلقني، تغير على خارطة حياتي فتعيد توزيع المياه واليابسة بعبثية مفرطة.. أو يبدو أني بالغت في حساسيتي.

لم يظهر أبو هند مرة أخرى..

ولم أسألها لعلها تفسّر لي لغز الرجل الذي جاء إلى مكتبي سائلا عني.. شعرت بقلق آخر، أن يعود مرة أخرى، ماذا يريد هذا الرجل مني؟ كيف يبدو شهيرا بحيث يكفيني هذا التعريف منه.

ظهر لي حلم الأفعى عملاقا هذه المرة، كأنما النوم يشركني بخفايا

تلتئم مع الحكاية في سطورها الخفية، لم تكمل الحكاية مع هاني، وفجأة قفز تفصيل في حياتي تدركه فأعطته الأولوية على استدامة القصّ في مخيلتها، غفلت عن جرحها لتوصل رسالتها نحوي، أن تقول أنا أعرفك جيدا، لست مجرد كاتب تفصلني عنه شاشة حاسوب وعنوان بريد إلكتروني.

لو أني أغلق حسابي الإلكتروني لتمكنت من قتل الأفعى التي تطاردني، لكن من يجرؤ على المجازفة وقد غدت خارج الشاشة تترقب خطواتي، كأنما تتحين فرصة الانقضاض..

تقول الأسطورة أن جلد أول أفعى عرفته الأرض كانت بيضاء تماما، لكنها عندما وقعت أفعى ذكر في حب زوجة قاطع أخشاب، هرب العاشقان وتزوجا، فصنعت المرأة معطفا جميلا بألوان زاهية لزوجها الإفعوان، ليرتديه للأبد، فجاءت كل الأفاعي بألوان جميلة مرسومة على جلودها.

بقيت صورة الأفعى في الحلم زاهية، مستعيدا طفولتي حينما كنت أطاردها تنساب في ساقية الفلج، من عشرين ضربة كانت واحدة على الأقل تنالها، ترفع رأسها باتجاهي كأنما تتأكد من قاتلها ثم تتهاوى محاولة الزحف، أعاجلها بضربة أخرى، لا بد من الرأس، شاشة الحاسوب أمامي، لا ساقية الفلج..

وأخشى من الأسطورة، أن يكون لي جلد افعى يتقشر، حينما تحك أنفها بأي شيء جاف تسقط أول قشرة من جلدها لتتساقط بقية القشور،

لا أصدق الأسطورة الأفريقية، هي ليست آلهة الحكمة ولا السعادة، يتبارك بها العروسان قبل الزواج، الفأل الطيب لمحصول طيب.. تقول أسطورتهم أن الناس في البدء كانوا عميانا، جاءت الأفعى فلمست أعينهم.. أبصروا.. وأمدّ بصري إلى شاشة الحاسوب، ينعكس حلمي عليها.

ولا تبوح هند كما أحتاج لفهم المرأة لا لكتابة حكايتها، كأنما لا أريد الحكاية، أريد الفهم، استيعاب ما يحدث..

أن تخرج الشخصية الروائية لتمرّ أمام بيتي وتشاهد سيارتي الجديدة، أن تعرف موقعي على خارطة كل ما فيها مكشوف أمامها، بينما تلوح من خلف الحاسوب كشخصية افتراضية، قد تختفي بكبسة زر.. أن تتسلل كأفعى، ويغدو الشارع ساقية الطفولة..

لم تعد رسائلها طويلة كأوّلها، ربما كان الاشتعال الأول سانحة للمضي في «الفضفضة»، محاولة ما للتقليل من خطر الانبعاثات السلبية المتصاعدة من أرواحنا، الرغبة بالبوح لآخر، حين لا نجد «آخر» قريبا يستمع إلينا، نستنسخ واحدا على شاشة الحاسوب لنغرقه بما أغرقنا من تيارات متدافعة، قد لا نتبيّنها وسط العتمة التي تجتاحنا، الضباب القادر على إخفاء أقرب الأشياء إلينا.

وأدخنة حرائقنا وهي تتصاعد.

هل أبدو الـ «آخر» بالنسبة لهذه الـ «هند»، الآخر الذي لا خيار غيره، «آخر» الصدفة حيث يمكن أن يكون هناك كاتب آخر غيري،

ربما لكل كاتب «هنده» إنما هناك فارق بين هند وهند..

ألوذ إلى الصمت، لعل الضجيج في عمقي يهدأ قليلا لأتبيّن نفسي وأحدد المسافة بيني وبيني على الأقل، بين الكاتب المهووس بالكلمات والأفكار يتبعها حيث المجهول، والإنسان العادي، في حياته اليومية، يخاف من المجهول.. ويصيبه بالقلق.

هي تعرفني إذن أكثر مما أتوقع، وأبعد من رسائل بريد على شاشة حاسوب، تعرف سيارتي، وبيتي..

وأهدتني باقة من زهر البنفسج، الغامض والمحزن!!

أي معلومات أخرى تعرفها أيضا؟!

ما لا ندركه نخافه أكثر..

والمتاهة التي ندخلها طائعين تربكنا وإن بدونا على قدر من المهارة في السباحة داخل المياه العميقة حيث يشبه الأمر مغارة جبلية، ترقّب الدخول إليها، حثّ الوقت ليمضي ونجد أنفسنا بين ما لا نروم على فهمه من أيقونات نحتتها الطبيعة على مهل، ببطء استلزم مرور آلاف السنين لتتكوّن تلك المنحوتات المدهشة، نمضي في طريق ضيق، خطر وزلق، لا نتخيّل أحدا ما وقع ذات ماض على حواف مبللّة إذ الأعين تفتش عن ما وراء تلك الرغبة الفضولية في رؤية الجديد بين عظمة قديمة، تتجدّد بقطرات المياه، وبأعين تحلّق يمينا وشمالا، وقد لا تلتفت إلى الوراء.

في آخر المتاهة يبدو جدول ماء، بارد، وموحش..

سطحه بيّن، وجميل..

كأنما لا قعر له، حتى وهو يبدو في الضوء أحيانا أنه ليس بذلك العمق..

لكن الضوء لا يتوفّر كما نتمنى دائما..

حينما تلحّ العتمة ينسحب الضوء، يختبر قدرتنا على الرؤية دونه، يتركنا في مواجهة أنفسنا، في مواجهة «هند» امرأة الرسائل الإلكترونية، من ضوء داخل حاسوب تأتي الكلمات تحدد مساحة الرؤية، هند بيدها المصباح القادر على إضاءة العتمة كما تحب هي، دوري السير في المساحة المحددة فقط، أي تهور خارج هذا النطاق يشبه الركض في ذلك الدرب الضيق والمبلل والزّلق في مغارات جبليّة.

جهّزت أرض الميدان كما أتوقع مسافات اللعبة.. وضعت افتراضاتي، أخبرت زوجتي عن هند، وعن فكرة الرواية، ربما تحسّبا من ردة فعل إذ أن أنثى أخرى ألهمتني، أو بتعبير أوضح منحتني فكرة كتابتها، وأكثر من ذلك، إذ أن بريدها الإلكتروني عمود رئيسي في فكرة الرواية.

لماذا أمضي في رواية كهذه؟!

وكيف أجعلها رواية لا مجرد حكاية عادية، رواية بالمعنى الفني، تقنيات السرد، وحبكة الكتابة القادرة على تحقيق متعة قرائية؟

سألت نفسي: ما هي الرواية إن لم تكن حكاية حياة؟ حياة من واقعنا، تقنيتها ابنة عصرها، البريد الإلكتروني والزمن التقني، صراعه

مع الفكر التقليدي، زمن الهاتف النقال والإنترنت وما أحدثاه من ثورة في العلاقات، المعرفة الماضية إلى قمم علمية، في نكوصنا الأخلاقي والهاتف بمميزاته يسقطنا في فخاخ الجسد ورغباته.

قلت لزوجتي احترت في حكاية هند هذه..

وقالت إن الصحيح هو أن الحكاية أبعد من بريد إلكتروني ورواية.. تبدو أخطر، لعبة الرجل والأنثى ليست مضمونة، ولا تقول الكلمات على اللسان كل الكلام المخبوء خلف خطوط خارطة القلب، في العتمة ما لا نراه، والضوء غير كاف، والريح تهبّ لتطفيء الضوء الباهت، وحينها تصبح المتاهة مرعبة، أحلك من القدرة على السير دون وقوع، ووقوع المرء في الخمسين من عمره يحيله إلى احتمالات خطيرة، مستوى الكالسيوم في العظام ضعيف، والتحمّل ليس في العظام وحدها!

- لا تورّط نفسك.

- أنا متورّط أصلا.

- في ماذا؟

- أعني إنها لم تعد رسائل بالبريد الإلكتروني فقط، باركت لي السيارة الجديدة.

رأيت الخوف يسير في حدقتي زوجتي، للمرة الأولى ألمح ذلك الاستشعار الهاجس بغموض لا أصل عمقه..

- قل لها أن تكفّ عن التواصل.

- لا أستطيع، لأني بدأت أكتب الرواية..

تورّط نفسك مع واحدة لا تعرفها لتكتب حكايتها، وهذه (شكلها) لا تريد الرواية، طالما تعرف أشياء عن حياتك الشخصية.

- هذا هو المخيف..

- وربما عن حياتنا الشخصية.

- ذلك يرعبني.

- الأحسن أن تتوقف.

- هل ستتركني؟

- تصرّف

وضعت زوجتي المسافة الفاصلة بيننا، أن أتصرّف، بنفسي، تجاه مغامرة غامضة، لا يجدر بها أن تعرف المزيد عنها، أن أغلق ملف هند وأنسى..

في المسافة الفاصلة بين بيتي وجامع مرتفعات الأنصب أفكر في حكاية هند، أقول حكاية هند، لا هند، كأنّي ألمحها تمرّ بجانبي في سيارتها وستقول لي في رسالة قادمة أن الكمّة على رأسي لم يكن لونها متناسقا مع لون خيط الدشداشة..

إذن الحكاية أوسع من رغبة امرأة في كتابة حكايتها، هي التي تكتبني الآن، تحاصرني بغموضها.

الحكاية الأشد غموضا ليست في صدر هند، بل في مفاوز أمها أيضا،

obeikan.com

المرأة التي تدخل الأقفاص السعيدة لحظة اكتمال الحلم بين عاشقين، أو مخطوبين، أو اثنين كتبت لهما أقدارهما أن يتزوجا، برغبتهما، أو بدونهما، أو برغبة أحدهما فقط.

المرأة الشاهدة على الذكورة القادرة على اجتياز المفاوز الجسدية لحظة شبق عليه شاهد، وعلى أنوثة تمسكت بالطهر حتى يحين موعد فض البكارة على يد الفارس المنتظر.. فضول آخر يستجوبني، يستجوب الكاتب في أعماقي.. ينقذني غموض الأم من تداعيات قلقي.. يستيقظ الكاتب داخلي، أمضي إلى لعبتي كأني لم أصب بالقلق أبدا.

من أين جاءت هذه الأم لتبقى مع ابنتها في بيت لا ذكورة فيه؟

قلت في نفسي لماذا لا أجرّب التواصل معها عن طريق دردشة الماسنجر، فكرة جديدة أهملتها منذ سنوات، حاولت مرات أن أجدها على وضع الاتصال، ثم حانت الصدفة فالتقينا عبر حواراته..

- هلا.

- أهلين.

- أخبارك يا هند؟

- تمام، كأنك وجدت نافذة جديدة فلم يكف البريد الإلكتروني.

- إذا كنت في مزاج سيء فلا داعي للدردشة.

- أنت الذي دخلت هذه الدردشة..

- تحبين أن أختمها؟

- كما تريد.. ذلك راجع إليك.

- ردودك جافة!

- ولماذا تبدو عاطفية.

- لا أعني ذلك، لكن أنت تعرفين عني أشياء ولا أعرف عنك إلا القليل.

- كل ما أكتبه عن حياتي وترى أنك تعرف القليل عني؟!

- أعرف حكايات لكني لا أعرف من تكونين.

- لماذا تحتاج معرفة من أكون؟ أنت تحتاج إلى حكاية لتكتب رواية، الأحداث بين يديك، وسيصلك المزيد.

- أريد أن أفهم شخصيتك أكثر.

- اسألني وسأجيبك، لكن ليس اليوم، عدت قبل قليل من العيادة النفسية.

- ما تشخيص الطبيب لك؟

- يريد إقناعي أنني مريضة بينما أشعر أنه المريض.

- إذا كنت لست مريضة فلماذا تذهبين إليه؟.

- عليك أن تسأل الطبيب ليجيب..

- أنت تعرفين بيتي وسيارتي وما لا أعلمه، كأنك تبحثين عن شيء غامض بالنسبة لي.

- هند لا تحتاج إلى البحث عنك.. لأنك مرئي لي، ويزيد من غروري أن المعادلة بيننا هكذا..على فكرة، رأيتك في «سرور» أمس، لمحتك صدفة، أقسم لك أنها صدفة، أليس بيتكم بعد خمس مطبات جهة اليمين، في الشويرة هناك أقاربي، هناك حيث حارتك التي كتبت روايتك عنها، أو فيها، لا أدري كيف أعبر لك، كأنك ستبحث عني في البيت العود، في سلالة سلامة بنت يحيى، أو ربما في نسل بنت خادوم.

- وأنت من أين؟

- أنا بين هذا البيت وذاك البيت.

- كيف؟!

- هناك ما يفسر.. وهناك ما لا يفسر.

- ارحميني من هذه الفلسفة، أريد أن أفهمك..

- هل تراني تعلمت الفلسفة؟ تلك شهادة من كاتب أعتز به كما أعتز بها..

- هكذا مزاجك تغير عن بداية الدردشة.

- أجدني أنساق إليك بمزاج يتحسن تدريجيا.

- أريد أن أسألك عن والدك؟

- لا أعرف عنه شيئا.

- حي؟

- لا أدري، وأمي يخرسها السؤال عنه.

- أريد أن أعرف عن أمك أكثر.

- هذا خارج حدود اتفاقنا..

- ليس هناك اتفاق يحدد الأشياء بدقّة، وأمك محور أساسي في الرواية..

- حكايتي هي الأساس.

- من أنت؟ ومن أين؟

- أخبرتك، بين هذا البيت وذا البيت، وإذا لديك القدرة على فهم ذلك ستفهمني.. سلام.

أغلقت المحادثة، تركتني في حيرة أن أفهم كيف تكون بين هذا البيت وذاك.. حاولت الصعود إلى سلالم غموضها لعلي أشرف على بعض من الثبات فوق السلالم المتحركة، وهي تميس بها شرقا وغربا، امرأة الغموض..

كنت على وشك سؤالها عن عهد، من تكون؟

لماذا لا أغلق بريدي الإلكتروني وأستريح من عذاب الانتظار، الترقب، اللهفة؟! أتبع نصيحة زوجتي، أستعيد طمأنينتي من جديد، أقول في نفسي «من خاف سلم» ويجيبني فضولي «فاز باللذة الجسور».

لكنها لم تعد المرأة الصاعدة من شاشة حاسوب، هي أشد مضيّا في حياتي من مساحة مستطيلة أمامي تعتمد على الكلمات فقط، أرسمها من حروف، أعيد تشكيل كلماتها كما أحب، كمن يترجم نصا من لغة أخرى، يعجبها الكتابة باللهجة العامّية، تراها الأكثر تحررا في التعبير عن ذات الأنثى، وهي تعبر حدود الانتظار، انتظار ما لا يأتي، وما لا تعرف، وما لا تتوقع.

قد تدخل مكتبي فجأة، أو تصعد من هذا الحاسوب، أو ستقول لي أنني رأيتك تكتب هذا الفصل، وكنت تسمع عبدالكريم عبدالقادر كعادتك وأنت تكتب، ما أجملها أغنية هذا أنا..

«وقفت أنا تحت شمسك، ما بين اليوم وبين أمسك.. وأنا أنتظر وعدك، والعمر يجري، ما بقالي أمل..»

أقرّر التوقف، لن أكمل المسار..

وفي لحظة تقفز هند إلى شبكة خيوط العنكبوت في عقلي، الأنثى التي تلتهم الذكر بعد لحظات الزفاف، أكره شكل حشرة فرس النبي، لونها الأخضر لا يلغي خشيتي منها، تقول جدتي أنها تقفز إلى الحلق مباشرة، هكذا أسميتها في الطفولة، الحشرة التي تقفز إلى الحلق، أتخيّلها تمسك بحلقي هناك، تخنقني، بامتداد جسدها أستشعر قدرتها الخارقة على قتلي، هي فرس النبي، تختفي بين السعف الأخضر في النخيل، أو بين النباتات في مزارع نخيلنا في القرية، تنسحب إلى فراشي المنثور تحت نخلة في صيفنا المعتم حينما يذوي قنديل الليل.

ما أجمل الحياة وأصفاها بدون.. بريد إلكتروني.

ساعات ثم ضبطت نفسي أفتح بريدي الإلكتروني ذاك..

لا أجد رسالة مكتوبا على مربع اسم المرسل الحروف الثلاثة القادرة على تحريك عجلة الزمن بأقص دورة ممكنة.. هـ ن د.

- هل وصلت رسالتها اليوم.

تقول زوجتي، وأرد صادقا: لا.

- هل تنتظرها ترسل؟

تسأل مرة أخرى..

وأجيبها كاذبا: لا.

والبريد الإلكتروني لا يستوعب حجم لهفتي وانتظاري، كما هي أغنية عبدالكريم عبدالقادر، المدهش في التعبير عن اللهفة والانتظار.

أستعيد حارتنا، سلامة وبنت خادوم، وهذه هند بين هذا البيت وذاك، مؤكد أنها ليست من حارتنا، ربما توهّمت، انساقت وراء روايتي الشويرة، أو تلعب لعبتها من خلالها، هي مريضة نفسيا، لا أتبيّن مقدار الخلل النفسي المصابة به، تذهب إلى الطبيب، وتخشاه لأنه ذكر، عقدتها الذكورة، وكأنما تراسلني أكثر من هند، هل هو ما يقال عنه انفصام الشخصية، أبحث عنه وأحاول فهم هند من خلال أعراضه، مكتوب أنه اضطراب نفسي يتسم بسلوك اجتماعي غير طبيعي والفشل

obeikan.com

في تمييز الواقع، أسبابها جينية أو نفسية أو بيئية، قد يحدث نتيجة الفقر الشديد أو العنف والضرب، وربما فقدان الوالدين أو أحدهما في فترة الطفولة، ومن أسبابه أيضا الاضطراب في المواد الكيماويّة الموجودة في دماغ الإنسان..

ولا أستبعد أغلب الأسباب عن هند.

لماذا تذهب للمعالج النفسي؟ وجدت الإجابة أن التشخيص يعتمد على ملاحظة سلوك المريض وتجاربه.

تلبّستني حالة أن أكون معالجا نفسيا، يبحث عن ما يصيب المريضة بين يديه من أعراض.. ليفهمها لا ليعالجها، ليأمنها من أجل الكتابة، أو من أجل نفسه عل الأقل فينعم بطمأنينة.. أستعيد رسائلها واضعا الأعراض بين يدي، المريض بالفصام يتصرف عند حدوث الهلوسة بأشياء غريبة وغير طبيعيّة، حدوث اضطرابات في تفكير الشخص المصاب بمرض انفصام الشخصيّة، يميل إلى الأوهام فيتوهّم أشياء غير موجودة، الخوف الشديد سواء بسبب أو بدون سبب، السلوك غير منتظم فتكون أفكاره غير منتظمة كذلك، يميل للصمت والعزلة، ويقوم بإخفاء مشاعره وأحاسيسه عن الجميع، مع الخمول وعدم الحماس.

لم أتبيّن في حالة هند معظم الأعراض، الرسائل لا تشي بكل شيء، وأنا لا أفهم في ذلك.. أي شيء.

أعترف أمام نفسي، فشلت في وضع الصورة المناسبة لهند كما

أحتاجها.. وخشيتي منها تكبر كل يوم، مع كل معلومة تضعها في الطريق أمامي، الاتجاهات في المسار مكتوب عليها اسم هند.. فقط.

حزنت على نفسي، كيف أوقعتها في شبكة العنكبوت تلك؟ تبدو ضعيفة لكن التحرر منها ليس هيّنا.

فتحت "الماسنجر"، هند ليست على وضع اتصال.. تابعت دوران الأيام، أغرق نفسي في العمل والقراءة، إذا أردت أن تنسى امرأة فكّر بأخرى، لا تقرب من رواية أنثى تخافها، اذهب إلى امرأة لا تخاف منها.. أنثى لا تخيفك بالغموض، حيث الوضوح التام بصرك وبصيرتك.

قلّبت للمرة العاشرة أو العشرين "مكتوب" باولو كويلهو، كحبّة بروفين أحتاجه يضع مخدّره على الذاكرة المهتاجة، أحتاج بعض هدوء، قرأت فيه "كثير من الناس يخشون السعادة، هذه الكلمة تعني لهم تغيير جانب من عاداتهم، وخسارة هويتهم".. نسختها ولصقتها على رسالة إلكترونية أرسلتها إلى عنوان هند.

الزمن يحتفي بالنسيان..

غابت رسائل هند مع جريان الزمن.. وغاب الزمن بطغيان حضور هند.. بدأت أشعر أن حضور هند تراجع كثيرا، لم يعد له الأولوية.. نسيت أمر الرواية، أو تراجع في خضمّ أسفار تتابعت كأنما المطار مقهى ألتقي فيه بأصدقاء، يأتون من مدن الدنيا، يحلّون مكاننا لنذهب إلى مدينة هناك تضمها هذه الدنيا.

ثمانية أيام حجبت عنّي الصين فتح بريدي الإلكتروني حيث "جوجل" ممنوع من دخول بلاد التنين، لكن حين حطّت الطائرة في مسقط قذف تنين "الإيميل" رسالة من هند.. كانت الطائرة تدرج في الممر الجديد متجهة إلى المبنى القديم، حطّت رسالة هند قبل أن تتوقف الطائرة "توقّفا كليا" كما يقول المضيف على متنها، عشرات الرسائل الجديدة اختارت الهامش لتكون رسالة هند وحدها المتن، لا شيء يبدو جديدا سوى اسمها، رافقني عند سير الحقائب وفي السيارة التي انتظرتني، وفي المسافة الفاصلة / الواصلة بين المطار وبيتي.

لم أفتح الرسالة، عاندت خفقان قلبي كمن يريد التعرف على مجهول جاء بجديد بعد غيبة، الغائب القادر على اجتراح معجزته فيعود بغتة يربك خيوط التواصل، يعيد تشكيل خطوط اليد فتصبح مرتعشة بحروف لا نريدها حيث بدأ النسيان يغافلنا قليلا.

إرهاق السفر يخفي هاجسي برسالة هند.. بشجاعة لم أفسّرها لفرط اللاوضوح ضغطت على رسالة هند وحذفتها.

انتصرت، ضحكت، فرحت..

في الصباح التالي.. وصلت مكتبي، وجدت رجلا ينتظرني، أخذني بالأحضان فرحا..

- كأنك نسيتني.

- للأسف، الذاكرة تهرم بسرعة.

- كنّا مع بعض في المعهد الإسلامي.

- منذ ثلاثين عاما!!.

- أنا خميس، اسم الشهرة خميس الهندي، وكان الشباب ينادونني أبو هند، ألا تتذكر؟!....

كان الرجل يمضي في حديثه، وكنت أدور في لعبة دائرية ترفعني وتخفضني في لحظات، كان الأطفال يصرخون متعة، وكنت أصرخ لفرط الدوار، تذكرت خميس الهندي حيث ملامحه تشبه ممثلا هنديا لم أعد أتذكر أي منهم الآن، أبو هند، مشاغبات المراهقة في المعهد الإسلامي، ضربات القدر في موسيقى بيتهوفن تنهال على رأسي، غادرني أبو هند، لكنه ترك هندا في رأسي.

فتحت جهاز الحاسوب، بحثت في البريد المهمل عن رسالة هند، قرأتها بسرعة، واستأنفت مواجع الحكاية مرة أخرى، فصلا جديدا كأنما القدر يحثّني على الاستمرار.. لا مناص.

تراجع قلقي من أبو هند.. استرحت من محارب يقف أمامي، واحد على الأقل تساقط، ما الذي يمنع من مواصلة اللعبة؟!، الذهاب إلى حواف الهاويات ممتع، في المجازفة لذّة..

اسمي هند

عزيزي..

قبل أن أبحث عنك، بحثت عن نفسي..

ربما وجدتك أنت.. ولم أجد نفسي بعد.

لا أدري لماذا اختارك القدر لأضعك في حساباتي، ولا أدري لماذا اختارني القدر ليسقطني من حسابات الفرح؟!.

على عكس حسابات الفرح أبدو.. قرأت ما مرّ بيننا، رسائلي، ومحادثتنا على «الماسنجر».. حاولت أن أفهم أشياء كثيرة.. متداخلة، مرتبكة، معقّدة، حاولت أن أرى بوضوح ما أمكن من أشياء، متعسّرة على استيعابي.

قرأت «مكتوب» كويلهو من زمن ليس بالبعيد، كما قرأت الخيميائي، شعرت بالتيه أكثر مع الرجل الباحث في الصحراء عن ذاته عبر ذوات آخرين وفلسفاتهم..

لا تدرك كيف الشعور بقسوة واقعك حين تمدّ يدك طلبا لمساعدة ولا تجد إلا الفراغ خنجرا..

obeikan.com

ستنسى كل ذلك، هذا ما لا تريد سماعه منّي..

لا أدري ما هو ظنك بي عندما قلت لك عن نفسي، تخيلتك تتوقف طويلا أمام عبارتي «**أنا بين هذا البيت وذاك البيت**».. ولن أشرح لك كيف، لا تفسرها بالمعنى القبلي فقط، ربما المكاني أيضا، ربما التخيّلي على درب العشق الممنوع الذي فجّر مخيلتك لروايتك «الشويرة»، جدّ انتصر لعشقه، وحفيد هوى إلى الخذلان..

ما هو الانتصار، ما هو الخذلان؟ ومن أنا بينهما؟! الأنثى المسحوقة تحت وابل عواصف جسدها، وجحيم أسئلتها.

وددت لو أني أملك القدرة أن.. أتوقف.

عن ماذا؟! لست متأكدة.. وهل ورائي خطّ رجعة؟ أعجز عن تبيان ما لا يرى.

وربما أنا بين كل تلك المتناقضات، امرأة أرادت حصد العنب فإذا بالحنظل يقع بين يديها، لا أعتقد أنك لا تعرف نبتة الحنظل، وقد خدعتك في طفولتك أكثر من مرة، إذ تتخيلها بطيخة (جحّة) صغيرة جدا نسيتها الأفواه، فإذا بك تنال المرارة، كما نلتها أنا في خياراتي، وقراراتي.

ما أستغربه أنك لم تطلب مني رقم هاتفي حتى الآن..

هل أنك تتوقع رفضي؟

ولم أجد إلحاحا منك للتفتيش عن حكايات أمي، مع أنك كاتب يقتات على هكذا فضول، ليس من السهل إخفاؤه.. ولم تسألني عن عهد، ربما لأنها لا تتساوق مع رغبتك في معرفة ما تريده وحدك فقط، وربما أشياء

أخرى.

على فكرة.. أعرف رقم هاتفك، لا تستغرب، حينما تريد شيئا تحصل عليه، أتابعك على فيسبوك، على تويتر، أتابع أسفارك وما تكتبه عنها، أحسدك، نعم أحسدك، وأضحك على نفسي، وأضحك حقيقة فأقول «عمانية»، من حقكم أيها الأثرياء أن تسافروا واتركوا لنا نحن الفقراء متعة الحسد على الأقل.. معذرة على وصفي لك بالثري، بصراحة.. من يستطيع أن يسافر كل شهر، مرة ومرتين وثلاثًا، فهو ثري، يملك ثمن التذكرة والإقامة، سأخبرك سرا.. أعرف أنك سافرت إلى الصين على حساب المؤسسة (هههههههه).. هل تريد أن أخبرك عن قيمة التذكرة؟

معذرة سيدي الكاتب على هذه المزحات الصغيرة، أجدها تخفف عني المواجع كثيرا، أشاغبك، أحسدك، أمازحك، أتلذّذ بحيرتك أمام معرفتي بتفاصيلك اليومية، لا أعرف الكثير لكن بما يكفي أنني أثير حيرتك، هذا يسبب لي متعة صغيرة، لكنها ضرورية.

لم تسألني عن مشاغباتي، وكأنك تسميها حماقاتي، أو انتقاماتي..

دار في بالي أني أخبرك بدون أن تسأل، قرأت مقالا لك على الإنترنت حول الهواتف ومصائب التقنية، وخلال بحثي عنك رأيت هجوما عليك، ضحكت كثيرا، ضحكت حدّ السخرية من حكاية المجتمع المحافظ، أنا أكثر معرفة بهذا المجتمع المحافظ، طبعا ستطلب الرقابة منك حذف هذه الأسطر، يصرّ الجميع على حكاية المجتمع الملائكي، وهويتنا وخصوصيتنا، أضحكني أحدهم بقوله «الأخلاق العمانية»، تصوّر أن

المجتمعات الأخرى ستكون لها تسمياتها، الأخلاق الكويتية، الأخلاق البحرينية، الأخلاق الكينية، الموزمبيقية.

قبل أيام راسلت أحد أصحاب السعادة، كان حديثه متحمسا عن الأخلاق ومحاربة الرذيلة، قسما برب الكعبة لو تراه على المنابر يتحدث عن الأخلاق.. تبادلنا رسائل ورسائل، ثم طلب مني أن يرى صورتي، المجلات كثيرة، صوّرت له منها، وفي الليلة التالية، أعرف أنك لا تصدق، ولأنه أمر لا يصدق أتمنى أن أجد فرصة ما لترى.. طلب مني إرسال صورة لجسدي..

ستسألني، بخبث: هل يفعل أحد ذلك؟!

ولا أصدق سؤالك لأنك تعرف أن هناك من يفعل.. دون حاجة للسؤال.. تساهلنا في التعامل مع الجسد، وعقّدنا الحديث عنه، لكن انتشار الخطأ لا يعني أنه سيتحوّل إلى صواب..

الخطأ سيدي الكاتب يبقى خطأ.. مهما بررناه.

ومهما قادتنا إليه حاجتنا، أو ضعفنا، أو سقطنا فيه هكذا، بدون أي مسبب كان.

لكني أكره أن نركز على إدانة فعل الكتابة أكثر من التركيز على التفكير في الفعل، وحماية جيل بأكمله من سواقط الأحجار من حولنا.

يا سيدي، كثيرون يقعون في الشراك التي أفتحها أمامهم، من أولئك الذين يبالغون في رفض الحديث عن الجسد، وادعاء الطهارة.. هم أمام الجسد سواء، ونفوسهم ضعيفة أمام إغراء أي أنثى، لكن ماذا نفعل أمام

حملة شعارات الوطن الصالح والجسد الصالح والمرأة الصالحة.. وهم يزايدون من أجل ظهورهم الصالح؟!

كيف يتحدث عن الأمانة لص؟! أكان يسرق مالا أو جسد امرأة!!

هل تمتلك الجرأة على أن تكتب حكايتي بالأسماء التي مرّت بين يدي، أعني على شاشة هاتفي؟ وكيف يلهثون بعد أن أرسل إليهم صورا إباحية أعرف كيف أجلبها من هنا وهناك؟

كيف تريدني أن أثق في مجتمع كهذا؟!

هل لأنني أكتشفه من خلال رغبات الجسد فقط؟ ربما يا سيدي الكاتب لم يعلّمني أحد منهم كيف أرى المجتمع من خلال طهارته وشرفه، لست بالنسبة إليه سوى بنت المكوبرة ولا أرى في عينيه سوى صورتي، إبنة المكوبرة، التي لا يمكنها أن تكون شريفة وأمينة، وربما إنسانة.

أرسلت لسعادته باقة ورد على عنوان مكتبه، باقة من زهر البنفسج، وفي المساء أرسلت إليه صورا من محادثتي معه، طلباته، الصور، اللقاء، لم أرد على أسئلته، رأيت القلق في كل حرف يرسله إلي، يعرض الهدايا، النقود، الوظيفة الأفضل، لأمسح المحادثة وأن يبقى الأمر سرّا لا ينكشف، استمتعت بقلقه، بزلزال يترنّح تحت وقع اهتزازاته، كنت سعيدة باللعبة القابضة بخيوطها، على الطرف الآخر رجل، مسؤول، ثري، من قبيلة معروفة، ربّ أسرة لها ثقلها في المجتمع.

وكان حبل عنقه بين يدي..

أتصرف كشخصية روائية، أمضي الوقت في تلبّس حالة أختارها،

أذوب في شخصيات روايات اقرأها، أتجسّدها، أمارس طغيانها الداخلي، تتعب روحي حينا، تتعب جسدي أحيانا، لن تعرف، لن تعرف أبدا كيف تشعر امرأة ناضجة محرومة من اشتعالات الجسد، لا أبالي بالبوح، من لم يشغله جسده في وحدته فناره خامدة، أشعر بوخز قديم يتسلل إليّ، رمح ناري يشعل حرائقي كلما تذكرت اختراقاته..

شعرت أنّي مريم، وأنّني ليلى، وأنّي «نينا».. وجميع النساء المعذّبات في رواية خالد حسيني «الف شمس ساطعة»، عذابات كل النساء أنا، لم أذق ما ذقنه لكني شعرت بهن عبر الكلمات، أليست الكلمات أكثر صدقا في نقل معاناتنا بتأثير سياطكم؟! كل الرجل رأيتهم «رشيد»، الجلاد الذي لا يرحم، كم كانت فرحتي، كأنّي في ليلة زفاف، عندما هوت مريم عليه بالجاروف لتنقذ عنق ليلى، ضرّتها الصغيرة، من بين أصابعه الخشنة، وقد شعرت أنه سيقتلها لا محالة.. كنت مع مريم حينما دخلت ستاد غازي لينفذ فيها حكم الإعدام أمام صيحات الحشود في مدرجات الملعب، خلال حكم الطالبان لأفغانستان.

لم تغتصبوا الجنس من أجسادنا، بل اغتصبتم الحياة فيه.. كما هو حال تلك البلاد، تناوب على اغتصاب الوطن الغريب، وأبناء البلاد، أصحاب اللحى وعديميها، القوي يغتصب الضعيف، والضعيف يغتصب الأضعف منه، عندما تغتصب امرأة فكأن وطنا يغتصب، عرض المرأة هو عرض الوطن، والفاعل دوما رجل، يا لزوربا حينما يقولها «الرجل حيوان حقيقي».

هل عليّ التوقف عن البوح؟!

بوحنا هتك ستر للآخر.. لا تبح بحرائقك كي لا تشعل أشجارهم، تبدو خضراء رطبة، لكن ما أن تمسّ بلهب حتى يبين تجويفها القابل للإشتعال حرائق تمتد.. وتمتد.. وتمتد.

كلما أعود إلى البيت أجلس أمام الحاسوب لأكتب لك.. أعيد الكتابة مرة بعد مرة، أكتب وأحذف، أن أستمر في كتابة حكايتي مع هاني، لكن كتابتها تشبه من يتناول شفرة بين يديه ليحفر في جلده لعلّه يتخلّص من دمامل الذكرى بنزيف الدم، لعله يستخرج طلاسم لم يفهمها، وحده الدم يقول الحكاية من جديد.

هكذا مزّقني هاني، لم يمزّق جسدي بسادية ممارسته للجنس، وهو غائب عن الوعي حيث رائحة الخمر تلتقي بفظاعة الاغتصاب، ذلك تفصيل سخيف في دفتر كثيرة أوراقه، كلما قلنا نفتح صفحة جديدة فيه تتلوّث الورقة التالية، وما بعدها، بدا لنا أننا كررنا القول لدرجة أن الدفتر انتهت صفحاته..

وأشعر في لحظات متكاثرة أنني انتهيت معها.

تمنيت أن أجرب فعل الحب، أن أحب بكل تفاصيل روحي لا تفاصيل جسدي..أن يشقيني الحب فأستعذب وصاله مع حبيب يكون لي أنا فقط، يضع روحي بين حدقتي عينيه لا جسدي يريده قربانا في مذبحة سريره كلما عنّ له اشتهاء.

أن أشعر بعشق يذبحني من الوريد إلى الوريد، كما يقول الشعراء،

يجعلني أحضن ديوان شعر لنزار قباني بين ذراعي، أرى في كل قصيدة حبيبي الذي أحلم به، يقاسمني حياتي فأطير معه فوق حواف القمر، وأغنّي له كل أغنيات عبدالحليم حافظ وفيروز وكاظم الساهر.

حلمت بحب يخرجني من متاهتي، مهما كانت متاهته ملتبسة في دهاليزها، وموحشة، وحافلة بالمفاجآت.. لا الحب المبكي كما تحب أن تسمعه في أغنيات عبدالكريم عبدالقادر.

أقنعت نفسي بمعادلة لا بد أن يتحقق أحد طرفيها لا محالة: أن الزواج سيأتي بالحب، أو أن الحب سيأتي بالزواج.

وانتظرته كثيرا، ومعي دمعي ينتظر، في الصحراء التي تسفح لهيبها صيفا وأنا أحترق بجمري، وتعصف بالبرد القارس شتاء، وأنا أناظر ساعة الوقت لعله يأتي الرجل الذي أريده، لا الرجل الذي يدخل البيت بكلمات قليلة، وينتظر سريره يدفق ماءه فيه، على عجلة من أمره، كأنما سلطان النوم ينتظره أسرع من استعجاله مع جسدي الذي يهان بين يديه، وكأنما ينتقم منه على غير وعي منه.

.. وجاء هاني، لم أر في عينيه الحب الذي قرأته في رسائله وفي صوته، كأنما كان رجلا آخر يجلس خلف الهاتف، حاولت القفز على الحاجز الأول، لا مفر إلا القفز، يريدني زوجته، وأريده أيضا، وسامة هاني واضحة، وأراهن على أنوثتي، قدرتي على التفجّر كأنثى غطت براكينها سنوات طوال، لتندفع مع ثورة رجلها القادم من أجلها، ليحملها إلى حلمها الجديد بمكان آخر، هناك ألمانيا، النهر، المدن، المقاهي، الخضرة،

الثلج..

قلت سيحبّني هذا التمثال الجميل لأرى في عينيه الحب أكثر مما تفعل رسائله وهمس بذلك صوته أكثر من شهر..

نصحت نفسي بالصبر الذي سيأتي بذلك الذي يسمى الحب، وقلت في نفسي أن العشرة ستأتي بما يشبه الحب على الأقل، إذ تتكدس فوق القلبين أشجار ورد فتعبق رائحتها، لكن الذكورة الصاهدة لها عواصفها الترابية القادرة على قلع كل اشجار الورد، والذهاب بالعبق إلى ما وراء تلك التلال الرملية وهي تجاور بيتنا، كأنها شاهد إثبات تسفح وجهه الريح كلما عنّ للشاهد تسجيل حكاية ما.

في شقاوات العشرينيات حلمت بزوج أرسمه كما هي صور الممثلين في المسلسلات والأفلام، سأركض إليه وحدي أقاوم غوص أقدامي في هذه التلال من حولي، سأنطلق وحيدة كغزال بري، ويأتي عاشقي معه حصانه الأبيض، كحكايات الأطفال، لن تكون معي أمي، لا أريد لهذه المرأة تقديم شهادة عفّتي للآخرين، أنا ابنتها، شهقاتي لي وحدي، شهيتي وشهوتي.. ومن المخجل أن تسمعها إذا طغت سطوة الجسد وتمرّدت على الحياء، وجع الجسد إذ انطلق فيه محاصرة وجع روحي.

صبيحة يوم وصول هاني قلت لأمي:

– هاني يصل اليوم.

– ما زلت على سالفة هذا الـ هاني؟!

– اخترته واختارني، وسنتزوج.

– إذن خليه يجي يتقدم.

– أين؟!!!

– هنا، بيتنا.

– تسمّين هذا بيتا يليق أن يأتي إليه عريسي، وهذه حارة؟!! هاني لن يأتي، أنا سأذهب إليه؟!!.

صعدت إلى أعلى عتبات الشجاعة، منصّة لم أتخيّل بلوغها رغم كل جنوني وانفلاتي، مساحة من الفراغ رأيتها فقذفت نفسي إليها، لم أبالِ بأية مجازفة أمضي نحوها، لأحرق سفني هكذا ورائي..

صمتت أمي، صمتت طويلا، أنتظر كلمة تخرج منها تفتح الحوار مرة أخرى، أن تقول شيئا مختلفا، مرّ نصف ساعة، كل واحدة منّا تمضغ ما تتحاشى قوله للأخرى، كنّا امرأتين من صمت، رغم التفجّر داخلنا، ولك أن تتخيل المشهد..

– وكيف سيخطبك هذا؟

– بدون خطوبة.. سأذهب إليه، وهناك شيخ سيعقد قراننا.

– ما غريبة عليك..

– نعم؟! فسري لي..

– الزمن سيفسر لك أكثر مني.

– كأنك تعرفين أشياء ولا تخبرينني بها.

– أنت عارفة كل شيء، متعلمة وموظفة.

– أمي، لا تهزئي بي، كيف أن المسألة ما غريبة علي؟

وتصمت أمي، وأجد في صمتها بعض غضب يتيح لي مغادرة البيت، انكمشت على نفسها، أحسست بها لو تحركت ستخرج أفراخ الأسرار من جسدها، تجلس على كنز لا تريد التحرك بعيدا عنه، لو نطقت ستبوح، لو تحركت ستكشف، لم أشعر بحماسة كبيرة لهكذا اكتشافات تأتي متأخرة، بعد أن رفعت شراع سفينتي مع الهواء القادم يحملني إليه، ما جدوى أن تقول كلمة أحبك لمغادر لن يعود، هكذا أحسست بالأشياء، ما قيمة أن تخبرني أمي عن أسرارها، أسرار حياتي معها؟! أشياء كثيرة لم أجد نافذة أطل منها عليها..

في لحظتي تلك كنت أرى هاني وحده، فلتذهب كل أسرار أمي إلى الجحيم، أريد حياة جديدة بدون أسرار مسبقة، حياة أصنع أسرارها من الصفر، أحدّد مقاساتها، ألوانها، تكون لي، أنسج واحدة كما أشتهي، مغامرتي التي ستتحدث عنها كتب ذات يوم، كما فعل زوربا، والسيدة العمانية سالمة، لو أنها عمانية خالصة أكانت قامت بهكذا مغامرة؟!.. أليس الفرع الشركسي لأمها من دفعها للسير وراء مجهول على بحر مياه من الحب؟ لو أنها لم تكن ابنة سعيد بن سلطان حاكم عمان وزنجبار أكان يتذكرها أحد؟ لكن أمي ليست شركسية وغالبا لست متأكدة من أين جاءت، ولا أعرف من يكون أبي.

كلما أغرقني التفكير في هاني جاءتني يده تنقذني، يد زهر البنفسج التي لا ترد، هل أنقذتني حقا؟!

هكذا ذهبت إلى هاني..

سأقول لك شيئا قد يربك سيرك في هذه الرواية: كنت أريدك أن تكتب قصة المرأة الغريبة التي كان الحفيد، بطل روايتك الشويرة، يسير إليها، ومضت بحملها، دون أن يعرف أين ذهبت ببذرته، تمنيت أن تكتبها رواية مستقلة، ربما لأنها تشبه حكاية جدتي، قالت لي أمي أن أمها سكنت سرور، متخذة غرفة في آخر السيح، منذ سنوات طويلة.

هجرت الرجل الذي أحبته.. وسرور، وذهبت إلى البندر، مطرح، عاشت بضع سنين، ومنها إلى قريات، مقترنة ببحار مغامر، حاملة حزنها على طفل ضاع في ممرات المدينة، ولم تعثر عليه.

أنا وجدتي نتشابه في ذلك.. الفارق هو أنني أعرف عهد أين ترقد.

قبل أسبوعين ذهبت إلى العمرة، بحثت عن روحي هناك.. صليت، بكيت، قرأت القرآن ساعات طوال.. وعدت بروحي قلقة أكثر، يشاغبني جسدي، وأفتقد الرجل، وأقاوم المتسوّرون لحوائط عزلتي، وتركض خلفي ابنة المكوبرة بصيحات تسمعها كل جدران بيوت حارتنا.

عرفت أنك في الصين، ربما ستقرأ رسالتي هناك، وستتذكرني رغم الغياب، أعرف أنك حاولت نسيان أمري، تباعد سؤالك عني، لا ألومك سيدي..

اسمها هند

يا الهي..

كيف تمضي بي المقادير هكذا؟!..

هل حقا أنا أمضي بالرواية أو هي تمضي بي..

ألا يمكن أنها سمعت من أحد الأصدقاء وأنا أبوح له برغبتي في كتابة روايتي الخامسة عن هذه المرأة، وهل هي أم المكوبرة؟ المكوبرة أم هند!

ألا يمكن أن يكون محفزها للتواصل معي، وما بقي من الحكاية مجرد فراغات تملأ بها مربعات ينقصها الكثير؟!..

من يثق بأنثى تطل من خلف شاشة حاسوب؟ أو أنها مزحة ثقيلة تفغر فمها أمام متحيّن لالتقاطة تشبع نهمه الكتابي.

تمعّنت في شاشة الحاسوب أمامي، رسالة هند، طويلة هذه المرة، بها ما أفهمه عن هذه المرأة، بوح أنثوي تقتسمه هذه الـ «هند» مع رجل لا تعرفه، امرأة كهذه لا أستطيع التنبؤ بنواياها.

obeikan.com

داخلني خوف من هند وحكايتها، من مسافات تبلغها عواصفها، أتربتها..

خاتلته بالمضي في إعادة كتابة رسالتها، تبدو الآن قريبة من فكرة رواية جيدة، بدأت في فهم جانب من حياتها، بحثها عن الحب، الزواج بدون حب، وزواج مضى بلا حب، هي مطلقة، تعرضت للخذلان من رجلها الذي أرادته شريك حياة، فإذا به يسحب الحياة من تحت أقدامها.

هل جموحها باعد بينها وبينه؟ أنثى لا تستكين إلى الاعتيادي مع رجل قد يشبه جده في التعامل مع أنثى تريد التوهج في سماء مفتوحة على عشق، فضاء لا يجيد قراءته أي رجل.

بدأت أعدّد ما تعرفه عني، وسلالتها سكنوا قريبا من حارتي الشويرة، الحارة أو الرواية، أو هكذا تتداخل الأشياء في جراب هند، مزقها الدامية تلقيها كشظايا، واضعة شوك الأسئلة بين كفي، وتطلب مني أن أقرأها لا أكتبها، أسدّ ثغرات الحكاية، تعرف أين تقف لتثير زوبعة لا تتيح الرؤية كما ينبغي، أو أنها بتلقائية ما لا تعرف أين نقطة الوقوف فتصاب بحالة ما، انحباس البوح في حلقها، يباس التذكّر أن يبلغ ما يصبو نحوه..

جامحة كحصان، والبرّية لا تكفيها، وهاني يدعوها لميدان مفتوح، يمتحنها، يقيس أداء الحصان القادم من قرية عمانية بشقاوة الرغبة في الانعتاق من الزمان والمكان.. إنما المسافة فارقة بين ما يريده هاني وما تحلم به هند، لكن من تكون عهد في متن الحكاية؟ هي طفلتها، كما تبدو.

فتحت دردشة «الماسنجر».. لم أجد هندا حاضرة، لست متأكدا

من رغبتي في محادثتها، لكن الفضول يقودني لمعرفة أين هي الآن، أمام شاشة حاسوب أو خارج الدائرة، ربما تكتب لي.. أو تفتّش عن معلومة جديدة عني يمتعها مباغتتي بها، مكشوف أمامها، بما لا أستطيع تحديد المسافة التي تراها منها، أو تراني بها.

شعرت بهدوء غريب، وددت لو أصل إليه، أسأله عن سببه.. محيّر أن تشعر بثمة صمت مدقع يخرج كأنه الصوت يخبرك بأنه حاضر، استعدت أغنيات عبدالكريم عبدالقادر، رؤية الأفاعي في المنامات، العقرب، المكوبرة، تذكرت هاني، وهند هنا، لم يتحقق الحلم الألماني إذن، ثمة حلقة ضائعة في المنتصف، أو حلقات تراها هند بكيفية ما.

أيها الهدوء.. أعتقني قليلا، أريد أن أصرخ في وجه الريح كي تتوقف لأني أستشعر خطرها.. وإن لم تقتلعني بعد.. صرختي ستخيفها، لأنها ليست صرخة خوف، بل إخافة!

ومض مؤشر «الماسنجر» أن هندا فتحت الدردشة.. لم أكتب شيئا، وجدتها تكتب، «صباح الخير»، لم أكتب، عاندت غواية الرد، «كيف أخبارك؟»، والتزمت صمتي، شعرت أنّي ذكر النحل تغويه الملكة، أو أن شبكة العنكبوت راجفة بشبق الذكورة..

لم أتحرر من شيطاني الذكوري بعد، لا أريد أن تصطادني أنثى..

أتّقي بالخوف..

أمانع بالهروب..

أكتفي بالكتابة.

كل أنثى تقترب غواية، والبدوي داخلي لم يتعلم الجلوس مع أنثى على طاولة مقهى، لم يتقن التحضّر مع المرأة.

- أريد استشارتك في موضوع.

- هلا.. تفضلي.

- آسفة، كأني أزعجتك.. مع السلامة.

- ماذا يفترض أن أقول؟

- لا شيء.

- هند، لو سمحت..

- كنت أريدك في خدمة، لكني الآن غيّرت رأيي.

- كما تشائين.

وبقيت أحدق في الشاشة أمامي، لم تزل على وضع الاتصال، ومزاجيتها هوائية بما يكفي لتحويل الدفّة إلى اتجاه آخر خلال ثوان معدودة.

- أستاذ..

- نعم.

- هل بين معارفك قاض؟

- لا.. لماذا؟

obeikan.com

- موضوعي مع أهل حمدان أريده أن ينتهي، تعبت.

- من حمدان؟

- زوجي السابق؟

- قبل هاني أو بعده؟

- قبله.

- ولماذا مع أهله وليس معه؟

- لأنه مات.

- مات!!

- نعم، مقتول.

تسمّرت أصابعي على لوحة المفاتيح، مقتووووول!!، يا إلهي، هل هند قصة حقيقية أم أنها امرأة تتسلّى بتعليمي حكاية ميلودرامية..

- استاااذ.

- نعم، نعم، من قتله؟.

- لا أعرف، اتهموني أنا، كان بعد انفصالنا بشهرين..

- هذه حكاية جديدة.

- لا عليك من التفاصيل الآن، فقط أريد أن أعرف إذا لك معرفة بقاض ما.

obeikan.com

- ماذا سيفعل لك القاضي؟ وأين وصلت القضية أصلا؟!

- دلّني عليه وسأعرف السير في الباقي من الطريق.

- أنت تحتاجين إلى محام لا إلى قاض، إذا ما زلت متهمة.

- مسألة القتل انتهينا منها، بقيت تفاصيل صغيرة تخصّ العلاقة مع الورثة، أهله يدّعون أنه طلّقني قبل مقتله، أريد حقوقي، ألا يكفيني أنه أخذ كل شيء في حياتي، حتى عهد ماتت.

- من عهد؟

- ابنتي منه، توفيت في الحادث.

- أوضحي لي أكثر، لم أعد أفهم الحكاية.

- ليس مهما، طالما لا تعرف ما سألتك عنه فاعتذر عن الازعاج، سلام.

خرجت هند من المحادثة، وبقيت أراقب الشاشة بحملقة أوسع، ماذا تقول هذه الهند؟! قبل أن أفهم ما حدث بينها وهاني تفاجئني بقضية حمدان، زوج سابق، مقتول، كانت متهمة، لها حقوق مع ورثته.. وتريد الوصول إلى قاض؟!.. ولديها ابنة منه، ماتت في الحادث.. أي حادث؟!

ضعت في المسافة بين هند، بطلة الرواية التي أريدها، والحكاية التي بين يدي، هناك حقيقة لا محالة متوفرة بما يكفي للكتابة.. وللقلق.

وهناك متخيل محتمل تعبث به هند، يراوغني، ويصيبني بتوتر يرتفع

إلى مستوى الخوف، تزوجت حمدان، ثم حدث طلاق، ومات مقتولا، والمتهم دخل السجن لا محالة، هند عرفت جلسات التحقيق، وذاقت حياة السجون، ربما ليست بريئة تماما، أو أن الأسرار لا تزال داخل كهف مغلق، يشبه كهف أمها الذي تبحث فيه عن علامات هي أيضا، عن أسراره المخفية، أسرار قديمة تشبه الأمس، وهند واقعة في جحيم أسرار أرادتها بملء إرادتها.

تخبّىء سطرا لتبوح بسطر فيفتح التناقض فكّيه بشراسة، هاني كان المنتظر للحاق بالقطار السائر بجميع الرجال، وخشيتها كانت أن يمضي فيبقى احتياجها لرجل يجتاحها، لكن حمدان يطلّ، المقتول الباحث عن قاتله، والطفلة عهد التي ماتت، أية حكاية هذه المرأة!!.. أية رواية؟!..

كتبت إليها على البريد الإلكتروني:

بي عطش كبير للارتواء من نبع الحكايات، الرواية تبدو مغرية، اكتبي، لا تتوقفي.. وسأنتظرك.. فقط حاولي أن تغرفي من بئر الحكاية دون عناية بخروج شوائب أو محاولة كتابة سطر وترك سطر من حكاية تتعلثم بالفراغات، بين حمدان وهاني، بينك وأمك، بين عهد ووالدها.. وتناقضات تبدو بريئة في شخصيتك ربما».

ألقيت بصنارة غير بريئة، بكلمات حرصت أن لا تقتل السمكة، إنما تصيبها بحيرة أمام الطعم، ستنتبه لاحقا لا ريب، كأنما أفهم كيف يفهم السمك.. وكيف يفكر في الأصل حتى يصل إلى قرار.

أغلقت الحاسوب، ونسيت رسالتي، وغصت في دوامة كمن يبتعد

عن الشاطئ متعمدا كي لا يرى مدينة ليس فيها سوى امرأة واحدة تراقبه اسمها.. هند.

تناوشني الذاكرة فأعاندها، أدّعي أن الحكاية تساقطت بالتقادم، ليست سوى لعبة أنثى في حيرتها، في الحياة ما يستحق أن يعاش، لماذا نكترث بتفاصيل غيرنا؟! \

حاولت إحياء فكرة التوهم داخلي، أن الرواية ممكنة الحدوث، وأن ما مرّ ادعاءات امرأة محكومة بالتأثر كأنها بطلة مكوّنة من نسيج شخصيات روائية قرأتها، تجابه حياة حقيقية أو متخيّلة، فلماذا السير نحو حواف الهاويات إن كانت الهاوية المقلقة ابتعدت!

تكدّست حكايات أخرى في تلك الهوّة الفاحشة في مخاوفها، الحاسوب لا يضيء برسالة من هند، هذا الفعل الإفتراضي انتزع من الحياة تلك المرأة التي تبدو واقعية، أو تحاول أن تكون واقعية في حياتي، تراني ولا أراها، تعرف وقائع من حياتي، وأتصوّر أن ما تكتبه ليس بحقائق.. ربما.

لكن..

ذات صباح قال لي البريدي الإلكتروني ما لم أتوقعه بهكذا سرعة..

اسمي هند

للأسف لم تكن بمستوى ما توقعته منك، كاتب شهير ويقول لا أعرف قاضيا، أو أنك لا تريد خدمتي في شيء، ما يهمك أن تكتب روايتك لا أكثر، تخشى التورط معي، رغم أني أخبرتك بأني نلت البراءة من تهمة القتل، وجدوه ملقى في صحراء بعد يومين من مقتله..

ولن ألتفت إلى تشكيكك وبحثك عن الثغرات، لن أعود للوراء لأرى ما كتبت.. اقبل مني ما أرسله إليك أو لا تقبل، لك الحرية.. تستمر أو تتوقف..

مضت أسابيع تلو أسابيع.. لم أجد رسالة منك، وحده فراغ اللعبة يواجهني،وكنت مشغولة بأشياء أواجهها، مرة بقلق بالغ، ومرات بلا اكتراث، ما الذي يمكنه أن يحدث أكثر مما حدث؟!

محاكم.. مرة أخرى..

جلسات مع الطبيب النفسي، مرات ومرات.

عبث أحمق مع حمقى، مواجهة صامتة مع أمي، قبل أيام أصيبت

بكسر في يدها ولم يمنعها من أن تواصل حماقاتها القديمة.. كأنما الزمن لا يزال متوقفا بين يديها، تعيش الستينيات أو السبعينيات من قرن مضى.

سأعود في حكاياتي إلى ما مضى، تغريني الحكاية بكتابتها..

سأروي لك قليلا، لعلك تعيد لثم حدّ اللعبة بالمزيد من المادة الخام، لتعرف من هو حمدان، حين خطبني اشتعلت حرائق في حارتنا، تناقلتها القرية حارة حارة وبيتا بيتا، وكانت الأدخنة تصل بيتنا، كيف تجرأ هذا الحمدان على تنكيس رأس أهله ويخطبني أنا، ابنة المكوبرة!

شخصيا كنت غير مستوعبة خطوته في خطبتي، حسبت أن خلفها سرا، يستطيع خطبة الأجمل مني، هذا يمكنني تفسيره لما أستشعره من جاذبية جسدي، لكن أيضا من بيت لا يشبه بيتنا أبدا..

استعدت اعتدادي بنفسي.. جاذبيتي، لا ريب، أشعلت جمر حمدان فتقدّم لخطبتي..

وكان تصادمي مع أمي متوقعا، لم يمنعه فرحها بي عروسا بعد سنوات من الترقب وقد اقترب عمري من الخامسة والعشرين .. سن العنوسة في قريتنا.

– سأذهب معك.

– أين؟

– يوم زفافك.

– لن تكوني معي، أخبرتك.

– وأين أكون؟!

– وأين تكونين؟!! سؤال غريب، طبعا في البيت، هنا.

– أمرك عجيب.

– العجيب أن تجلسي أمام باب غرفة فيها رجل مع امرأة هي ابنتك.

– هذا عرس.. بالحلال.

– يا أمي، أنا أخجل أن تسمعي ما يخجل.

– وهل أحسن أن تسمعك امرأة أخرى؟!!

– نعم، والأفضل أن لا يسمعني أحد قط.

– أخاف أن.....

– لا تخافي.

– لن تذهب معك مكوبرة غيري.

– ولن أرضى بوجود مكوبرة أصلا، لا أنت ولا غيرك.

– ستفضحيننا.

– من أنتم؟ لماذا لا تقولي ستفضحيني، أنت وحدك من يهمها أمري في هذه الحارة، أو في القرية من أقصى حارة إلى أقصى حارة..

صمتت أمي، هناك سر في صمتها، قلت ربما إنها لا تريد المزيد من المشاكل بيننا وهي تعرف عنادي..

ومن باب المناكفة.. أو ربما خفض حدة التوتر بيننا قلت لها إنني

obeikan.com

سأحضر لها الدليل حتى البيت، وأردفت ضاحكة، على غير توقع أبدا، بنكتة لا أدري أي لسان نطق بها «لدينا خدمة التوصيل للمنازل، وبدون حاجة للاتصال».

أمي التي لا أستطيع تخمين مسارات ردودها، ولا أفكارها، تفاجئني بجمل لا أدري من أي درب استقتها.. هل فعلا تكتفي أمي بدور المكوبرة، رغم أنني أتصور أحيانا من خلال لغتها في النقاش أنها ذاهبة إلى أمسية حوارية في النادي الثقافي، وأنك ربما صادفتها هناك، في مدينتكم لا أحد يعرف أمي، ولا مهنتها.

ومع ظني بأن كل شيء سار كما أحب، وجدت أمي معي في كل خطوة، وددت لو ألقي بفستان الفرح وأصرخ بأعلى ما أملك من صوت: ابعدوا عني هذه المرأة، هذه الليلة فقط على الأقل..

تخيلتها تقف أمام باب غرفتي في تلك اللحظة الهادرة بقسوة المواجهة، تترقب شهقاتي، وتحصي علي مرات ارتعاشة الجسد وهو يذبح في ليلة تسمى ليلة الدخلة..

حينما نقدني الخمسين ريالا المعروفة لـ «كشف الغمار» وبدأ حلحلة جسدي قبل ملابسي، كثور ينفخ في وجهي، ويداه ترتجفان كمن يحاول لملمة كنز بأقصى سرعة ممكنة، مخافة أن يشاركه أحد الغنيمة.

هل أكتب أكثر، ويمكنك إعادة كتابته بطريقة لا تثير الرقيب؟

ليس في الأمر أسرار، الغالبية خاضوا تجربة التعرف على الجسد

في ليلة نحره، وكم من دموع سفحت في ليلة من العمر يتخيلونها ليلة العمر أو كل العمر، وكانت دموعي منها.

عرفت زغردة أمي أمام الباب شبه الموصد متخيلة أنها تلوّح للجميع براية الانتصار وعليها دم المعركة، رغم أنه دمي.. لكن كيف تدرك هذه الأم بأن الرايات المخضبة بالدم لا تعني أحيانا سوى الهزيمة، بدء سلسلة متواصلة من الهزائم، تصرّها الأنثى وتجمعها في مندوس الأيام، صرّة فوق أخرى، وجعا بجانب آخر، وعليها أن تتقبّل هزائمها، لان الأطفال سيسرحون في البيت، وبضحكاتهم ستغادر الصرّات مندوسها، وتطير كحمائم بيضاء.

هل أكتب لك شيئا جديدا غير الذي يعرفه الآخرون؟!

ربما هو البوح القادر على خلخلة المعتاد وتقديمه بحروف جديدة تنتصر للصامتين وهم يجرّون أوجاعهم مخافة العيب، والرغبة في الستر.

بعد تسع سنين من تلك الذاكرة الموجعة لم أبق أنا تلك الأنثى، ولا المرأة، ولم يبق في يديّ من حلم، سوى أن أمضي، كمن فقد ذاكرته الجميلة التي يريد، ومعه ذاكرة سقيمة، يحاول علاجها قدر الإمكان، لعله ينتصر ذات قدر.

لم يكن حادث السير الذي وقع لي سيئا كما شعرت على مدارعام كامل، كان المخاض الضروري للخروج من قيد رجل سعيت أن أعلمه معنى الحب، ليس من أجله تماما، بل من أجلي، لأواجه الأمر الواقع

بما يمكنني تحويله إلى ضوء مهما بدا النفق طويلا.

حققت حلمي بشراء سيارة، ولأن بطاقتي البنكية بين يدي الرجل الذي ذهب بها ذات فرصة ولم تعد، مدركة أن استرجاعها بالقوة به مخاطرة بالغة، اشتريت السيارة بالأقساط التي اخترتها كبيرة جدا لغرض في نفسي، أول حلم أستطيع تحقيقه، وبعد عامين انتهت مدة التقسيط، وسألته بالبطاقة أن يمضي لتأمين السيارة..

- بطاقتك ليس بها ما يكفي.

- كيف؟!!

- اذهبي للبنك واسألي عن حسابك.

- لكن مهم أن تكون بتأمين شامل.

- تصرفي.

جلدتني كلمة «تصرفي» واستلفت لأتصرف، وناولته المبلغ..

ومضى بي القدر نحو حادث سير عنيف خسرت فيه ذلك الحلم، لو أعلم توابعه لتمنيت أن أذهب إلى العدم مع سيارتي، شركة التأمين لن تعوّض سيارتي لأن «رجلي» قام بتأمينها بما يجعل ثلاثة أرباع المبلغ في جيبه..

هل تدرك كيف ينفجر بركان من رأس امرأة وجدت نفسها فجأة أنها مغفلة؟

اندفعت ألقي بحمم بركاني على رأسي، وكانت كلمة الطلاق

حاضرة، أعود بها إلى بيتنا، وكانت أولى كلمات أمي:

- بنت مكوبرة، ومطلقة!!

- ما دمت تعرفين هذا العمل وفيه انتقاص لي، ولك طبعا، لماذا تصرين عليه؟!

- كنت أشتغله وأبوك حي، وما دمت تطلقت فساعديني.

- أنا اشتغل، وراتبي يكفيني، أخيرا سأتصرف به كما أشاء.

- خلي راتبك ينفعك، يا بنت .....، المرأة ليس لها إلا الرجل.

- عندما يكون رجلا فعلا.

- سيكون، لكن بنات اليوم عقلكن صغير.

- فعلا.. كان عقلي صغيرا، لكنه كبر الآن كثيرا، وسترين يا أمي.

.. وكبرت أعين الرجال نحوي.. ومخاوفي، حيث الشراك كثيرة، والعيون متسعة، والكلمات تتسع أكثر فأكثر.

إكتشفت أشياء أخرى من جديد، أن أنام بدون رائحة رجل، مهما بدت مقرفة لكنني افتقدتها، أعترف لك، مهما راوغنا، والأوجع أن لا أسمع صوت طفلتي عهد بجانبي، للمرة الأولى أشعر أنني أحاول النوم بدون روح.

كنت أرى في عهد والدها، تشبهه، وتعلقها به دارى حبي لها كثيرا.. يزعجني كثيرا، كان، ذلك التعلّق..

ولأنه لا بدّ من مأساة أخرى تتراكم على روحي ماتت عهد، بعد

أقل من عام على طلاقي من والدها، ماتت اختناقا في سيارته، قالوا إنه تركها فيها لقضاء مشوار ما في السوق، عندما عاد وجد محرك السيارة منطفىء، وكان الفصل صيفا.. وكان وكان..

وكان أن سقطت في دوامة الحالة النفسية، شعرت بما لا يمكن وصفه من الشوق تجاه عهد، مرّ شهر لم أرها، حتى ماتت مختنقة، وأختنق في كل لحظة أتذكرها، أتصوّر مشهدها تموت ببطء، كانت تحتاج إلى كفّ تبعد الموت عنها، تمنحها بعض الهواء داخل السيارة / السجن / الفرن الساحب لكل أوكسجين الدنيا، يا إلهى، كل هذا الأوكجسين من حولنا وكانت حصة عهد منه ضئيلة جدا، ولم تحصل عليه، زجاجة مكسورة، محرك يعمل، أشياء كثيرة كان يمكنها أن تنقذ عهد، تطفىء جحيمي.

إنما قدرنا أن تسحبنا الحياة إليها، أن تفرض شروطها، استطعناها أو لم نستطع، علينا السير، أخذ حصتنا من التنفس حتى النفس الأخير.

هكذا هي عهد، وحمدان، وهاني، وأمي.. وشخصيات حولي كثيرة، متشابهة بحيث أن الأسماء لا تعد فارقا مهما بين هذا وذاك.

أغوص وحدي في قاعي، وأنهض أغسل الوحل من جسدي..

يحدث أحيانا أننا نريد التفكير في شيء؛ إغراقه بالمعنى الحرفي للكلمة نحو صياغة عقلية تسمو بالروح.. لكن تضغطنا أشياء أخرى مترصّدة ضعفنا تجاهها. لست نقية بما يكفي للتنصل من كوابيس الجسد إذ تطل في الوحدة الموحشة دون كفّ ترتق المسافة بين الخجل

والجرأة.

ولست جريئة بما يكفي لأشرح لك كيف يجوع الجسد.. أدرك مخاوفك من كتابة هذه التجليات لكن هل طمسها حل يعتمد عليه لتقديمه وصفة جاهزة في مجتمعات تعاني من الجوع.. والعطش؟!.. ليس للغذاء والماء. فهذان متوفران لدينا بما يفيض عن حاجة كروش مترهلة.. لكن الجسد لا يكفيه ما يلقى إلى فمه فقط.

أجاهد ارتباكاتي أمام سطوته.. لأشعر أنني حرة.. لا يقيّدني فأصغر أمام رجل لست بالنسبة له سوى جسر شهوة يعبره.. أو سيارة يمتطيها في حالة تنقل سريع بين مدينة ومدينة.. بين امرأة وامرأة.

حريتي أجدها خارج جسدي..

أن أقف بيقين المنتصر أمام الآخرين..

ولكن مع اشتداد عتمة الوحشة أشتاق الى يد رجل أضعها تحت رأسي لأنام ملء قلبي.. موحش الليل وثقيل، ويبدو الفجر أبعد من فرح، والظلمة أقرب من حزن، والقلب يترنح على حواف السرير كأنما يسقط يمينا أو يسارا..

لماذا نتخيل أن بوسع يد رجل حفظ قلوبنا، نحن النساء، مكانها، ويد رجل تمسح الدمع لا تسفحه، صدر رجل يأوينا إلى جنته، لا يكون قبرا يلقينا إلى وحشته؟!.

أخشى سيدي الكاتب أن تحدّثك نفسك بأنك الفارس المنتظر، أنت لست ملك نفسك حتى، فما بالك بأنثى حزينة تنتظر رجلا ربما لا

يشبه الرجال، أولئك الذين يتكاثرون، إنما بأجساد.

كان حمدان وذهب، وجاء هاني ورحل.. لم يكونا لي، ولن يكونا..

أشعر في أحايين لا تحصى أنني لا أنتظر رجلا أصلا، فلا شيء يستحق الانتظار سوى انقضاء اليوم الذي نعيشه، نريد التخلص منه قدر الإمكان، على أمل أن ينبت فجر آخر غدا، يختلف عن فجرنا اليوم، وآلاف الفجريات قبله.

دعني، في وحشتي، وفي وحدتي، أتخيّله، سيأتي ذات يوم، بكثير من الأمل، وبأقل ممكن من.. الألم.

سأصرّ على أنه طوق نجاة، مع أنني جرّبت أطواق نجاة كثيرة، كانت جميعها تجذبني للغرق أكثر، يد لا تستجيب إلا إلى مفاتن جسدي، ولا تصل إلى روحي، عمق جسدي لا عمق كياني.

أنا المتناقضة أفتح أبوابي أمامك، ستحتار أي شباك ستطل به عليّ، رغم أن لي أبوابا كثيرة، أدّعي.

اعذرني على حماقات ردودي أحيانا، هكذا تمزّقي ينكشف أمامك فدارِ سوءاته بما قدرت من صبر.

حكايتي مع حمدان لا تريد أن تنتهي، أهله لا يصدقون أني بريئة.. ولحكاية هاني تكملة يمكنك وضعها كما تشاء لك تقنية الرواية..

أريد أن أصعد للأعلى قليلا، لكنني «ابنة المكوبرة» ولا أدري أي لعنة أخرى تطاردني ولا أعرفها، لم تقل لي أمي الكثير عن حياتنا، عن حياتي، تمضي في كيانها الخاص تفتش، ربما في سيرة حياتها

القديمة، عن «عرس» تشهد على افتضاض بكارة أنثى، تسمع صيحاتها واستغاثتها، كأنما هي مباغتة بألم ما يحدث.

– يا أمي، ألا تعرفين ما يقال عن المكوبرات؟

– المكوبرات ما كلهن واحد.

– بس السمعة واحدة.

– خليك مع السمعة، حافظي عليها أنت، واتركيني في سمعتي.

– سمعتك سمعتي، أنا ابنتك.

وتضيق العين اليمنى من أمي أكثر وهي ترمقني بها، يتسع الخط تحت العين، يبدو أخدودا يمتد من متاهة إلى ضياع، يواجهني مأزقي مع هذه المرأة، أمي حقا؟ إن كانت كذلك فأين أبي؟ لماذا لا تحدثني عنه؟ هل كنت ابنة الصدفة، الخطيئة، الضياع، العبث؟

صمتت أمي، تعبت من الفضاء الثقيل يزحف على أنفاسنا، أكاد أختنق به، أحاول أن أتخفف منه بحكاية . .

أسأل أمي:

– كيف كانت ليلة جارنا سعيد مع زوجته الرابعة؟ هل بنفس فحولة ما عرفتيه عنه مع زوجته الأولى.

لكنها تبالغ في صمتها. . وأحاول جرّها إلى الحديث مرة أخرى. .

– أخبريني ما حدث البارحة في عرس خميس.

– أنت قليلة أدب.

– لن أغضب بهذا الرد، لكنني أريد أن أعرف إن كان صحيحا ما يتناقله الناس عنه، أنت كنت قريبة جدا من الحدث، وكما يقولون في نشرات الأخبار أنت شاهدة عيان.

– ما سمعتيه يكفيك، البيوت أسرار.

أنا ابنتك.

– وأنا أمك، أعرف أن قلبك لا يتسع.. المثل العماني يقول «سحناه مغطاية ولا قبولي كشف».

ترمقني بنظرة تشعرني أن ما قلته ليس الحقيقة تماما، كأنني أجازف بقول أنا ابنتك، وكأنها تجازف أكثر بقول أنا أمك.. تغطي المواجهة بمثل تستدعيه كلما عنّ لها إسدال الستار على ما لا تريد الاستمرار فيه، ترى أن ما تعرفه هو «السحناه».. الأكلة البحرية التي لا أعتقد أنك لم تجربها، أم أن «قبولي اللحم» أدمنته في حياتك الجديدة فتنكّرت لحياتك القديمة.

وأستعيد حكاية جارنا خميس، الرجل الأربعيني الذي يبدو أنه تعب من عزوبيته فأراد الزواج من ابنة جاره، لكنه وكأنه استنفد طاقته أو نسيها، تخاذل أمام الجسد أمامه، أمضيت في تخيلي كما تفعلون أنتم معشر الروائيين، أريدك أن تكتب هذا «الكلام» بطريقتك، وسأسمح لك ببعض البهارات اللغوية وما يمكن أن تتخيله في لحظة كهذه، أو لماذا تسهب فيها أصلا، يحدث لرجال كثيرين الانبهار بجسد حدّ العجز، أو الصدمة من قبح جسد حدّ عدم قدرة الرجل، كله، على القيام.

المجتمع العاجز يلهي نفسه بالحديث عن الجنس، ادعاء بطولات في ميدانه بعد أن أشعرتهم الميادين الأخرى بالعجز عن الركض فيها، رجالنا لا يمارسون الجنس بأعضائهم، بل بعقولهم، لأن شبحه يسكن هناك، ولذلك يتحدثون عنه كثيرا.. ويخافون سطرا يكتب عنه.

عند هذه النقطة ضحكت، أتخيّلك ستتوقف كثيرا عن حدود الوصف، وثورة المعنى، وهيجان المفردات، مخافة الرقابة الرسمية، أو الهجوم عليك من أولئك الذين يخافون كتابة الجنس، وهم لم يقرأوا شيئا من أجناس الكتابة، هل فاجأتك بهذا الوصف؟!

لو أننا لم نصب بهذا الفيروس المخيف، فوبيا الجسد، لما أثارتهم بضع كلمات في كتاب ما، كأنما سيقصم ظهر المجتمع، ويحوّله إلى حالة فساد عامّة.

لا تنسبه إلى نفسك، بل إليّ، أنا.. هند.

اسمها هند

توقفت عند الأسطر الأخيرة من رسالتها، الألفاظ التي تستخدمها، ثورة وهيجان وجنس، أي امرأة هذه التي لا تخشى المفردات؟.

هل بقاؤها خارج إطار التعريف بها يعطيها مساحة من البوح لتقول ما تشاء، وعليّ، المأخوذ بفضول الشخصية، متابعة القبض على ما يتبقى من شجن هند، وحزن هند، وفضول هند.

تحاول تمرير أفكارها عن الجسد، عنّا معشر الرجال..

أكثير على الأنثى كتابة بوح عن جسد كما يمكن للرجل وهو ينثر التفاصيل على الورق كتابة أو المجالس ثرثرة؟!

تأملت ذاكرتنا مع الجسد، علاقتنا به، مخاوفه وحرائقه وتداعيات رماده، مهما حدث ذلك للروح لن يلفت نظر أحد، مهما بدا الخوف مزلزلا والحريق مرعبا.. والرماد يخنق حامله حد الموت.

مجتمع يقول كل شيء عن الجسد.. ولا يريد أن يسمعه أحد، أو يسمع به أحد، المجتمعات الفاضلة لا تكتب الجسد، النقية لا تهبط

إلى درك التفاصيل، في التفاصيل اشتهاء، وخوف من السقوط أكثر، وعلى الرقباء حمايتنا من هذا الشيطان، أن يفتش الرقيب عن مفردات تخدش حياء المجتمع النقي والطاهر، أن يغتال الكلمات قبل أن يتفجّر الوطن شهوانية.

تماهيت في ذات الأفكار التي تقولها هند، شعرت أنها تتكلم، أو أنني استعرت لسانها، أو أنها استعارت لساني، أو أنني أكتبها شخصية روائية ألبسها عباءة أفكاري.

تسأل أمها عن خميس، لحظة دخوله على زوجته بعد عناء طويل مع عزوبيته، لماذا تفترض أن خميس نسي أدواته أمام الأنثى الداخلة عليه، وهناك المكوبرة التي تنتظر أمام باب الغرفة، لا تريد المنديل المبلل بالدم لأن العروس ليست بذات الشرف المتوقع بل عن الزوج لإثبات قدراته.

في صالة البيت، حيث يطول الوقت بين صلاتي العصر والمغرب ما يقارب الساعات الثلاث صيفا أتصفح جريدة الحياة ثم أتناول جريدة الاهرام، صحيفتان تصلانني يوميا، لأكثر من سبب، أجد قضايا سببها هذا الجسد، وضحاياها هذا الجسد، وتصعد الأرواح إلى السماء موجات إثر موجات.

أقلب صفحات كتاب حكايات من افريقيا، أشعر به يأخذني إلى طقوس السحر الافريقي كأنما هو حلقات من سلسلة أفلام هاري بوتر مع أنني لم أكمل واحدا منها، كتاب ثقيل أحاول مقاومة ثقل كل كتاب حتى لا يهزمني، انتصاري مقدرتي على إكماله، الوصول إلى نقطته

الأخيرة، تتحول فيه الأجساد كما تشتهي الحكاية، على الورق يمكن هزم القوالب الجاهزة للأجساد.

إشارة على الهاتف تخبرني بوصول بريد إلكتروني، بلهفة غير معتادة أضغط على علامة الظرف الأبيض بخيوطه الحمراء دلالة على الـ «جي ميل»، رسالة من هند، تتحرك أصابعي تلقائيا، أضغط على اسمها..

تكاد صرخة دهشة من داخلي تفضحني، تكشف سرّي الذي أداريه.. أفلتت مني على حين غفلة من حرصي.

ليس بريدا عاديا..

صور تتلاحق تحت بعضها البعض، كانت صورا من هند، أو صور.. هند، .

أدفع نفسي تجاه احتمال واحد، ليست صورا من هند، بل صور هند، نعم.. وأطلقت تأكيداتي لأني راغب في ذلك الاحتمال فقط.. لا غير.

ارتبكت، ادّعيت الانتهاء من الكتاب الذي بين يدي لأعيده إلى المكتبة باحثا عن غيره، لم يطلب أحد مني هذا العذر، ممكن أن لا أبرر، دخلت مكتبتي / مكتبي، عين على الكتب وأخرى على الشاشة تقرأ ملامح أنثى خاتلتني، وتلذذت بغموضها أمام طوفان فضولي.

أريد أن أرى الصور كبيرة على جهاز الحاسوب، أتبيّن لون عينيها، أستكشف غموضا سأدّعي أنه كامن خلف تخوم جسد هند، ربما، أراه بوضوح، أتأمل شفتين من كرز لوّنتهما أصابع روج بشبق وجنون..

نظرت إلى الحاسوب على طاولة المكتب.. وعدت إلى صالة البيت، لأن الظرف لا يسمح، والوقت لا يكفي لأتأمل كيف تبدو هند.

طردت سؤالا سريعا في ذهني: هل حقا هذه هند؟ أو طعم لأنثى اعتادت على ألعاب الخفّة والمكر؟

من يأمن لأنثى؟! هكذا تبدو من خلف شاشة الحاسوب.

نسيت، في غمرة انبهاري، أو وقوعي في تلك الذكورية المتخمة ما قالته هند عن صور المجلات ووو...

صدّقت وهمي وتبعته.

عدت بكتاب آخر، محاولا رتق كذبتي حين ادعيت أنني أمضيت دقائق أبحث عن كتاب آخر، لا أنظر إلى أوراقه، بل لصور هند تتابع في مخيلتي كأنما أوراق الكتاب بين يدي شاشة الحاسوب تتحرك فيه الصور، ليست جميلة كما توهمت، أو رسمت الصورة المثلى عن جاذبية تشتهى، ولكنها شهية أبعد مما أظن، أو أنها عين الرجل التي لا تبحث إلا عن اشتهاء!

ولا ترغب في رؤية إلا ما تتوهم.

ما الذي دعاها إلى إرسال صور، تبدو غير بريئة فيها، كاشفة عن مناطق من جسدها وهي الحريصة على كتمان أمرها تماما؟.

كانت الرسائل من هند تتتابع، وضع استثنائي لم أألفه منها، أن ترسل هكذا، وعادتها أن ترسل ما تعتقد أنه ضمن مشروع رواية مكتوبة

بحكايتها، فتحت رسائلها واحدة بعد أخرى، رسائل قصيرة تشبه الرسائل النصّية على هاتف نقّال، أو عبر «واتساب»، كلمات مختصرة.

تهنئة بمناسبة عيد ميلادي، أخبرها الفيسبوك بذلك.. إذن هي تتابعني عبر هذا الموقع، إنما بأي اسم؟ لست متأكدا من شيء..

تسألني في رسالة إلكترونية: كيف تمتدح عرضا مسرحيا وقد شاهدتك تخرج من منتصفه؟!

لم يحدث هذا، ربما تظنني شخصا آخر، أو أنها تعيش وهم خطأ ما، لم أحضر عرضا مسرحيا وكتبت عنه إذا لم أشاهده حتى خروج الممثلين لتحية الجمهور، وما أصابتني بالملل لم أكتب عنه.

رسالة أخرى تعلّق على مقال لم يعجبها، بضع كلمات، أخرى به رابط لمقال كتبه عبد الباري عطوان..

رسائل أخرى أمرّ عليها سريعا لعلي أفهم شخصية هذه المرأة، تثيرها المقالات الساخنة، في نقد السياسات والأوضاع، وتلك التي تستخدم مفردات ضد السياسيين، تتشابه في ذلك مع كثيرين، لا يميّزها ما يمكن أن أفهم به هذه الـ»هند».

هل حقا هذه هند التي ترسل؟ الصور وما تلا ذلك من رسائل لا تشبه أسلوب هند، لغز آخر تقذفه حكاية هند في وجهي، أين هند في ذلك؟ هل سرق أحدهم بريدها الإلكتروني؟ يا للفضيحة!! كيف يمكنني نشر رواية سيشيع أمرها على يد سارق البريد؟!

وجدت بين زخم الرسائل السابقة رسالة لم أنتبه إليها، اندسّت بين رسالتين، كمن يكتشف كنزا كبيرا فتحتها بسرعة، كانت قصيرة، لكنها ألقت حجرا كبيرا في مياه بركة راكدة، هي المسافة بيني وهند، بيني ورسائلها.. وحياتها، وإن لم أفطن إلى ذلك.. حياتي أيضا.

«عزيزي، اشتقت إلى الكتابة إليك، هذا أنا أعوّض انشغالي بكتابة أكثر من رسالة، كلما أرسلت واحدة أتذكر أمرا، قد يبدو تفصيلا صغيرا، لكنني أمتلك شغفا غير عادي هذا المساء لأكتب، أو بالأحرى (أسولف) معك، كلما أثقل قلبي وجعا جديدا، أو صفعني هذا المجتمع على وجهي مرة بعد مرة.

.. وحين كنت أغلق باب سيارتي بعد وصولي من المدرسة اقترب مني أحد الشباب، بين بيتنا وبيته أكثر من سكّة، أسمر البشرة، لا أدري لماذا أركز على هذا الأمر، سلّم علي، وسألني عن اسمي، وبتعبير لا أستطيع وصفه سألني إن كنت بنت فلانة المكوبرة، شممت في سؤاله رائحة عفنة، لم أفق من فظاعتها إلا على طلبه رقم هاتفي، نظرت إليه بغضب، لكنه صفعني بكلمات لا أنساها ما حييت، وربما ستشكّل علامة فارقة في مسار حياتي، رغم أنني لا أجهلها تماما، ومعناها ساكن فيّ بطريقة ما، قال «بعدش مسويه راس!!».. ومضى، كأنما لا يليق بي أن أرفع رأسي وأرفض عرضه البذيء، ليس من حقي ذلك، دوري هو الخنوع للرغبات، والاستلقاء على جمر الشهوات كلما طلبني أحدهم إلى سريره، لا أريدك أن تكتب هذه الحكاية في روايتك، أشعر أنها

أسخف من أن تبقى شاهدا على مجتمع يجرحنا مهما حاولنا أن نتصالح معه وأن نحبه.

لو أن أمي جلست في البيت هل سينسى الناس أنها كانت تعمل (زفّافة) وقد اختاروا لها هذا الاسم، المكوبرة، كأنه علامة على عبودية من نوع آخر، أجيرة بما يفوق قدرة النساء بنات القبائل على فعله، ليس ممكنا أن تبقى قبيلية أمام باب غرفة تنتظر ماذا فعل ذلك الفحل بالأنثى التي يلتقيها على السرير في ليلة تسمى ليلة الدخلة؟!.

هل لأني مطلقة بتّ ملاذا جاهزا لطالب متعة كوني عرفت المتعة وجربتها ولن أطيق صبرا دونها، فأصبحت أترقب طلابها حاملة إنائي يملؤونه بفحولتهم؟، وهذا الجار كبر في نظره أني أرفض منحه رقم هاتفي، بداية الخيط لما يحصل بعدئذ من ليالي المحادثات الساخنة، والمواعيد الأشد سخونة..

جارنا هذا هو سعيد الذي تزوّج الرابعة قبل أسابيع، يبدو أن جسد الرابعة التحق بفخ الاعتيادية سريعا، لم يصمد كجسد مختلف وطازج طويلا.. لن أخبرك ما فعلته معه.

فقط.. أطلب منك أن تنسى موضوع الرواية، لن تستطيع كتابتها، لأني أعيش ما هو أقسى من كل كتابة، مهما حاولت نقش الألم فيها.. لن أسمح لك أن تكتبني، أشعر بك، لست ككاتب فقط، أعمق من كل ما مضى».

انتهت رسالة هند..

وبدأت استفهاماتي تكبر، ما الذي تعنيه عن هذا العمق، الشعور بي، نسيت ما قالته عن تناقضات المجتمع، حيرته، شعوره بالصدمة تجاه الجسد، يطلبه بكل قوة وحيلة، وفيه المدّعون والمتناقضون..

كدت أمضي في استفهاماتي وحيرتي، لكني أوقفت التداعي، لأني أريد لهذه الرواية أن تكتمل، وتنال شرف الموافقة على طهارتها، كي لا تحمل نجاسة تحرمها من البقاء في هذا المجتمع النقي والطاهر، كي لا أمنح ذوي حاسة الشم فرصة النباح ورائي، وهم يتحسسون بأنوفهم المفردات التي يقولون إنها خادشة للحياء، ولا يعرفها المجتمع!

أتخيل كم من أولئك الذين يتشمّمون رائحة هند لعلها تسقط بين أيديهم، فيتناهشون لحمها، وقد نهشتها ألسنتهم قبل أن تنال جسدها أياديهم..

والصور التي رأيتها، ماذا تعني؟

لم تتحدث عنها هند، كأنها لم ترسلها، أو تريد القول أن ما يحدث أمر عادي، هي المتحكمة بخيوط اللعبة، مفاجآتها ومواطن إدهاشها، ولحظات غموضها..

هل حقا لا يمكن أن تسقط هند أم أن هناك مساحات ضعف تفقد خلالها قوتها بما لا يكفي لتناور، تعجز عن إسقاط الراغبين في التهامها قبل أن تصلها أصابعهم الراجفة بالشهوة لا الحب؟ هل وقعت في حفرة أرادتها لغيرها فإذا بها تغدر بحافرتها، تسقيها مرارة السقوط، الوقوع في الفخ، وما يحدث مجرد توابع لزلزال سقوطها؟

شقيت بأسئلتي وحيرتي..

كتبت إليها، لكنها لا ترد.. تريد إمساك اللعبة بيدها فقط، أن تحدد القواعد كما تريد، تكتب أو تمتنع، ترسل أو تتوقف..

.. ومضى أسبوعان.

لا رسالة من هند، ولا إشارة توضح سبب إرسال الصور، لم أستوعب أن تفعلها هند، وأن تتراجع عن مشروع كتابة حياتها روائيا.. رأيت استحالة أن تفعلها هند، هند لا ترغب أن أعرفها فكيف ترسل صورا كهذه؟!

صعد سؤال خبيث في ذهني حاول اختراق ثقتي بما يحدث على سطح هذا الحاسوب، وعبر هذه الشبكة العنكبوتية وهي تخترع البريد الإلكتروني: لماذا تظن استحالة فعلها لذلك أيها الراغب بمثالية في شخصيتك؟ ما الذي تعرفها عنها لتحدد الاستحالة أو الإمكانية في تصرفات امرأة لا تراها إلا من خلال رسائل بريد إلكتروني، قد تكون اللعبة ليست أبعد من مقلب ما، ربما تكون هذه الهند رجلا، كاتبا مثلك يريدك أن تعيش حدثا ما، وسيفجّر المفاجأة ذات يوم في وجهك، ويقول لك كنت أنا هند، فما الذي كنت تبحث عنه يا صاحبي؟!

راوغت السؤال، متمسكا بيقيني، حسّي الداخلي القادر على فرز لغة المرأة، مفرداتها، الحروف وهي تكتبها أصابع أنثى..

ازداد يقيني بنفسي، كأنما لا أريد لهذه الرحلة أن تتوقف عند شك ما، اللعبة الروائية قائمة على الثقة بالأشياء، حتى وهي في أقصى حالات

الشك، الشكوك تصب في صالح الكاتب، ومشروعه..

لتكن مجرد وهم خارج من شاشة الحاسوب، أقترب الآن من الإمساك بحبل الرواية، ناعمة الملمس والأحداث، حكاية منّا، من وراء أبوابنا، لا تبين كثيرا وسط ضوضاء شوارع الحياة من حولنا، سأرفع من حدة الصوت قليلا ليتم سماعه، نيله الحق في أن يصل إلى قارئ ما، بعض الضوء على عتمات تختبئ في خدور مبللة بالدمع، إنسانية محاصرة بزوابع ذات المجتمع المدّعي صيانتها من غبار الخطيئة.

لا تملك هند حق وقفي عن كتابة روايتي، سأخترع هندا تشبهها لنكمل الحكاية، ربما ستعود هند مرة أخرى، ليس بيدنا دائما قرار الانسحاب، تعود أو لا تعود، ليست كل القضية، الأهم أن تختفي هند من حياتي، هند الحقيقية، أو تلك المتخيلة الآتية من خلف البريد الإلكتروني، بمعرفتها عني، تفاصيلي التي تقبض عليها.

تركت نفسي لفراغات الحكاية، معلقا على حبل يؤرجحني كيفما يعبث الهبوب بأفكاري، لا أدري كيف تفغر الفراغات حفرها أمامي، كانت الأرجوحة تهتز، والهبوب يتزايد، والحفر تكبر، وبلاهتي أمام ما يحدث تكبر أكثر من الحفر.

هند، الصور، الرسائل المتتالية، طلبها أن لا أكتب شيئا.. وانسحابها!!

التقطت خطفة مفردة انسحابها، لم تقل إنها ستنسحب، قالت إنها لا تريد لحكايتها أن تكتب، سحبت رغبتها لتضعني أمام النقطة الأصعب،

أن يرمي كاتب بمشروعه في سلة النفايات، بأمر امرأة لا يعرفها، أنثى عاشت في مخيلته حينا من الزمن وعاثت.

بحثت عن رسائل أخرى فاتتني حروفها، تداخلت في الزحام..

ما يحدث جزء من غموضها، ومن تقلّبات الطقس في مزاجها العصي على الفهم، شخصيتها التي ترسمها كما تشاء مختارة ما تريد عرضه من جوانب آنية الكريستال.

الصور واضحة، وفاضحة، لا شك فيها، ولا غموض.. الشك والغموض كامنان فيما وراءها..

هل الرسالة بالخطأ؟

وضعت الاحتمال على صفحة الوورد أمامي، وأنا أمضي في كتابة مشروع الرواية.. لكن أي كائن هذا الذي تريد إيصال هذه الصور إليه؟

حبيب أو ضحية؟

لماذا هو حبيب، ولماذا أيضا.. ضحية؟

ساءلت نفسي: أتحب هندا أم غموضها، أم هي فتنة الرواية إذ تفتش عن مناطق جديدة يدّعي الروائي أنه يحب بطلة روايته، ويغمرها بمشاعره وحنانه، كأنما هي أنثى حقيقية تجلس بين يديه حين يفتح حاسوبه ليكتب، فتجري الكلمات بين يديه فخمة وجزلة، ربما، في الواقع لا يجيدها تماما؟

استرحت إلى ظني بأن الرسالة بالخطأ، وسعدت بأنني عرفت صورة هند على الأقل.. سأبحث عن امرأة بهذه الملامح الآن بعد أن وقعت في فخ الاسم، ربما.. ليس اسمها.

ألقت إليّ هند بحجر آخر، أصابني بحدّة، زلزل ذهني، أنا المسكون بشغف التخيّل، والوقوع في أسر ما يعبرني من أمر كأنما لا حياة لي خارجه..

كانت وجوه النساء تعبرني أنا الباحث فيها عن ملامح تشبه هند، الشفاه التي تتخفى وراء لون آخر غير الذي رأيته على شفاه هند، الأعين التي في مقلتيها نظرة كعيني هند في الصور.

أرسلت إليها أكثر من مرة..

وانتظرت ردها مرات أكثر.

تمعن في الهرب، والتخفي، واستغلال طاقة فضولي.

ذات صباح أخذت طريقي إلى مكتبي في مدينة غلا، حيث يقع في الطابق التاسع، رأيت العامل ديدار ينظف سيارة إحدى الزميلات، تبعني للسلام.. في المصعد شاركتني فتاة جميلة بما تملكه من شباب طاغ في العشرينيات، نبدو نحن الرجال شغوفين بهذا العمر كلما ابتعدنا عنه أكثر.

عيناها على الهاتف.. وعيناي تتلصصان على وجهها لمعرفة تفاصيله، حالة نفسية مستبدّة، من الصعب التخلص منها، الفضول على الوجوه،

رجالا أو نساء، كأنما أريد معرفة قراءة الشخص أمامي من خلال وجهه، إنما وجوه النساء.. أحلى.

ينفتح باب المصعد فتخرج دون أن ترفع عينيها عن هاتفها إلا لتستبين درب الخروج فقط، وينغلق الباب فتبقى رائحة الأنثى تشاركني الصعود حتى الطابق الأخير.

في المكتب بدأت برحلتي اليومية، الضغط على زر تشغيل الحاسوب، وأخذ زجاجتي ماء صغيرتين من ثلاجة في ركن من صالة واسعة تجمعنا، وانتظار كوب شاي متعدد المزاجات والمذاقات يوميا من يد العامل.

دخل أخي ماجد، قال إن امرأة جاءت لشراء بعض كتبي، وسألت عني، وقالت: قل له لا يقلق، سأرسل إليه غدا بالايميل.

على الايميل رأيت رسالة من هند..

هل هي مصادفة، أو أنها امرأة «الايميلات» جاءت حقا؟

لم أجد بريدا آخر من امرأة غير هند.

كأنما أرهقني الانتظار، برد جمره، فتحت الرسالة، كتبت فيها:

«مررت ببعض الظروف منعتني من الكتابة إليك، أعتذر عن الرسالة، وصلتك بالخطأ، صور صديقة لي صورتها في لحظة صفاء فأرادت نسخة منها، قد تنتقم مني ذات يوم لأن الموضوع اشتعل جمره بيننا، ربما سأعطيك تفاصيل أخرى.. ذات يوم، من يدرى؟سلام».

هل تكذب هند؟

لماذا تكذب؟.. ولكن: لماذا تصدق أيضا؟

أردت أن يرى أخي الصور على بريدي ليرى وجه شبه ما، لكنه سرّي الخاص، وعليّ أن أدخل سراديبه بنفسي لاكتشاف ما وراءه.

تعلم هند أنني لست موجودا في مبنى المؤسسة ولذلك جاءت، هي إذن تراقبني، هي في مسقط أمس، وربما غادرتها اليوم، أو.. لم تغادرها.

لم أجد رسالة أخرى إلا منها..

تلك هند..

واستعدت قصيدة عمرو بن أبي ربيعة، كانت معلقة على لوحة في مكتبي في جريدة عمان:

ليت هندا أنجزتنا ما تعد

وشفت أنفسنا مما تجد

إلى أن يقول:

كلما قلت متى موعدنا

ضحكت هند وقالت بعد غد.

يأتيني صوت صباح فخري..

صيد العصاري يا سمك بنّي / تلعب بالمية.. لعبك يعجبني

بقيت أردد المقطع كلما عنّ للمزاج أن أغنّي، يجازف صوت هند

obeikan.com

أن يشاركني، يصطادني، كأنما اللعبة تعجبني حقا.. لعبك يا هند يرهق أعصابي، وأنا مستسلم للشبكة تأخذني.. نحو مجهول مربك.. أين أجد همنجواي يعيدني إلى البحر، بعيدا عن يد القدر / العجوز؟.

هند لا تريد للرواية أن تكتمل، وترسل..

مزاجها يأخذها، يغيّر بوصلة الحكاية، تتناقض، لا بأس أن لا تتناقض، امرأة بدون تناقضات لم تخلق بعد، المرأة إن قالت لك «صعب» فهذا يعني ممكن، إن قالت «مستحيل» فتعني أنه ممكن أكثر.

قبل أن أخلد إلى النوم أعطاني هاتفي إشارة إلى وصول رسالة إلكترونية، فتحتها بلهفة، كانت من امرأة اسمها فاطمة، تقول إنها جاءت إلى مكتبي في المؤسسة، والتقت أخي ماجد، لعله أبلغني.

وتمنيت أنه لو لم يبلغني..

أو لم يصل «إيميل» فاطمة.. يضاجعني توهمي ما بقي من الليل.

لكن للصباحات حكاياتها التي تصعد مع خيوط الشمس من خلف جبال بوشر، وتلال رمالها.

اسمي هند

كأني لا أجد ما أكتبه إليك، وحينا أتعب من حصر ما أريد كتابته حقا لتضعه في كراسة سيرتي الروائية، حتى الآن أجد أوراقي تكاثرت، أخشى فقدان هذا الجهاز الذي قد يخونني يوما مباغتا إياي، ويتآمر مع المدعو بالايميل فأفقدهما معا.

اكتبني، أو لا تكتبني، لم يعد بوسعي أن أقرر، أو أرى ماذا أريد..

تحررت من مأزقي النفسي إلا قليلا، الجملة الأخيرة في رواية الأمواج لفرجينيا وولف «الأمواج تكسّرت على الساحل»، كأنما هو التكسر الأخير وستكف الأمواج عن محاولة الخروج من البحر، خروجي من صفحات رواية.

كيف لا أجد ما أكتبه؟

وكيف أستطيع إيجاد ما أكتبه؟ ولماذا أكتب؟

هل العجز يعني الخروج نحو النهايات مع أنني أعيشها كصديقة أنتظرها، أفتح نافذتي وأقول إنها قادمة عمّا قريب، أشعر أن لي نهايات متعددة، الموت أحدها، وأهمّها، حيث النهايات الأخرى تتوارى بعد

حلوله ساحبا منّا حياتنا القلقة هذه.

لم أكن أنوي الكتابة إليك مرة أخرى، كطفلة تعبت من لعبتها فأرادت رميها، إن لم تحطّمها في لحظة انفعال وإحباط، قلت لك لا أريدني في لعبتك الروائية، فتّش عن لعبة أخرى أيها الكاتب الرجل.

أنا منفعلة ومحبطة..

والطفلة فيّ تريد أن تكبر، وتتمرّد، وتخنق الطائر القادر على التحليق بروحي داخل صدري كأنما قلبي سماوات مفتوحة.

منفعلة بسبب أمّي..

ومحبطة لفقداني طريقة الوصول إلى حياة تختلف عن هذه التي بتّ أضجر منها، تعاقب الليل والنهار، وما أقساه الليل حينما يزحف على امرأة تترقب حلول الأربعين ولا تجد طفلا يشاغبها قبل النوم، وتقبّله، وتحتضنه..

هل أنا محرومة من الطفولة؟!

ألست محرومة من الرجولة قبل كل ذلك؟

أفتقد الرجل لا الذكر، وصعب عليّ الرهان على من أراهم فقد طغت ذكورتهم على رجولتهم، يبتغون ممارسة ما يشفع لهم أنهم ذكور، لكني أريد الرجل القادر أن يخبئ كل ذلك وراء شهامته.. لا شهوانيته.

فقدت حتى الرغبة في القراءة.. كما فقدتها في الكتابة إليك..

أي رغبة هذه التي قادتني لأكتب نفسي أمامك، رغم أنك لا تعرفني،

لكنني أعرف جيدا هذه المرأة التي فتحت سماءها أمام طائر مغرد غالبا لن يراها إلا حمامة قابلة للقنص مهما قاومت رصاصات الكلمات فإنه موقن أنها ستقع بين يديه، وهذا عائد لفرط الثقة الذكورية لديكم..

لكني أريد البوح، التخفف من ثقل روحي بهذا الشغب الكتابي..

كأنك أصبحت طبيبا نفسيا لا كاتبا، الدفع إلى إلقاء أحمال الروح بالكلام مهمة المعالج النفسي، وأنت كاتب لا تمتلك المزاج الذي يملكه أولئك المدربون، والمعتادون، على سماع عقد الآخرين وتعقيداتهم.. ولقمة عيشهم منها، يا للمفارقة المبكية! نصف لهم عقدنا بالكلام، فيعالجوننا بالكلام، وما يتبقى مجرد حبوب صغيرة للتهدئة..

ما زلت أتذكر قولك عن أنك الآخر الذي وجدته أمامي فكتبت إليه، لكني لم أفطن أبدا أنني سأحتفظ برغبة الكتابة إلى هذا القدر من البوح، كأنما أردت أن أجرب جديدا يخرجني من حياتي المعتادة، وأحسبك أنك أيضا تبعتني لأنك تمتلك الفضول لتجربة ما هو خارج عن حياة اعتدتها..

وربما خالطك ملل من رتابتها، مع أنك تسافر، ولا حيلة لي بالسفر..

وتكتب، ولا معرفة لي بالكتابة مثلكم معشر الكتّاب..

ولديك أسرة تكبر أمام عينيك، ولا شيء أمام عيني يكبر، سوى عمري، وهواجسي.

أسأل نفسي، السؤال اللزج، الحائر، الممجوج، المتكرر: هذا هو اليوم، سيمضي لا محالة، ماذا عن الغد؟ كيف سيمضي بهذا الثقل الذي

استشعره يكبر والقلب لم يعد كقلب ابنة العشرين، والروح لم تعد كروح مراهقة، والعقل أصابه زهق من حصار الجدران والأفكار المتراكمة؟!

والجسد يذوي، تتسلل إليه ما يصيب أي جسد من تآكل حين الزمن يعبر، بلا حيلة على توقيفه..

لا تعرف ما معنى ثقل الليل حينما يأتيك وحيدا، لأنك تنام في ظروف لا تشبه ما أعيشه، بما يدفعك لتتمنى ان لا يأتي هذا الليل، كي لا تبقى وحيدا..

وأن لا تكره وسادتك لأنك تعبت منها، من صمتها، برودة الفراش، هواجسك التي تأتيك من مسامات الجدران والذاكرة لتنام معك، أعني أن تبقيك ساهرا تجادلها، تستجيب إليها أحيانا، وتصارعها معترضا أحيانا أخرى..

تتعب مما تسميه شريط ذكرياتك وقد غدا مسلسلا مملا تشاهده كل ليلة، مئات المرات، وتنتظر فجرا ينأى أكثر كلما هجمت عليك هواجسك أكثر..

هل أنا حالة خاصة؟

في المدرسة لا يتحدث إليّ أحد، المديرة، المعلمات، الإداريات، الطالبات اللاتي أشعر ببعضهن يكبر على غير المعتاد، وحين يتورطن يبكين كأنها صغرن فجأة نصف عمرهن.

أعرف أن بعضهن يعتبرنني غريبة الأطوار، كما أني أشعر بهن بأفكارهن الغريبة، كأنما لم يزلن يعشن قرونا سابقة..

حين أعود إلى غرفتي أشعر بقلبي حقيبة كبيرة ملأى بحكايات نفسي، وحكايات المعلمات، وحكايات الطالبات.

أجاهد كي أنسى حكاياتهن جميعا، وأبقى مع حكاياتي، لأنها تخصّني وحدي، إنما للنفس نوازعها، وقد تثير فضولك حكاياتهن سيدي الكاتب، لأنك تفتش عن الحكايات الخارجة من خدور عالمنا، أسرارنا، كبيرة أو صغيرة، ولو تعرف ما أعرفه من حكاياتهن لكتبت ستين مجموعة قصصية، لكنكم لا تريدون حكايات الواقع، ربما، ربما تبحثون عن ما يهديه إليكم خيالكم، كأنما الواقع لا تريدون منه شيئا.. تعيشون عبر الكتاب أخيلتكم لا حياة الناس العاديين.

دعني أوضح لك يا عزيزي، لو كتبت تلك الحكايات لوجدت نفسك كاتبا فضائحيا بامتياز، وإن كتبتها بذكاء، مع أنك لن تستطيع تجنب شقاوات الجسد فإنك لن تخرج من قفص الاتهام بأنك فضحت المجتمع، واتهموك بأنك ذو خيال مريض في مجتمع نقي ومتماسك تسوده الأخلاق والقيم والمبادئ.

لا تنس أن حكايتي لا أريد أن تكتبها رواية، سأكتب إليك ولا أريدك أن تعيد إرساله إلي، أحتاج فقط إلى أن أتحدث، أن أتخلص بالكتابة عن أوجاعي.. وعدتك أن أخبرك عن هاني، حلم أن أسافر بعيدا عن هنا، أعيش الهناك بكل ما فيه من جنة موعودة رسمت قصورها في قلبي، وزرعت حولها ملايين الوردات، وشققت الأنهر إليها.

ببساطة كان هاني يريد أن يعيش في مسقط من أجل مشروعه التجاري،

ويحتاج إلى إقامة تعسرت عليه، فهداه عقله إلى الزواج من عمانية تعطيه المال والإقامة وربما الجنسية لاحقا..

كنت قد كتبت لك في أول رسالة إليك عن النساء وعلاقتهن بحقول النفط كما تبدو أمامكم معشر الرجال، حذفت الفقرة بكاملها، وهذا أنا أعيد كتابتها، ليصدق التشبيه علينا أكثر، كل أنثى أشبه بحقل نفط يقع في صحراء بعيدة، تتعبون في التنقيب عنه، قد لا تجدون سوى الرمل، وفي أحيان ستعثرون على نفط يمدكم بوقود حتى ينضب، حتى تكفّ الأرض عن منحكم هباتها، حينها تفتشون عن حقل آخر، فالصحراء ممتدة، والأرض خصبة..

في رواية خالد حسيني «ألف شمس ساطعة» تقول الأم لابنتها «**افهمي هذا الآن، وافهميه جيدا يا ابنتي: مثل إبرة البوصلة التي تشير إلى الشمال، فإن إصبع الرجل تجد دائما امرأة، دائما. تذكري هذا يا مريم**».

وأقول لنفسي تذكري دائما يا هند.. ربما لم تعد البوصلة تشير إليك كما تتمنين، لا شمالك شمال، ولا جنوبك جنوب.. أصابع الرجال ربما تكون رحلت، بقيت فقط أصابع الذكور، ولا نايات تعزف عليها سوى قصب جسدك.

رحل هاني عن حقله المتوهم، هكذا تقاطعت الرؤيتان، هو يريد أن يمكث هنا، وأنا كنت أريد الذهاب إلى هناك، انكسر جسره الذي كنته، وانكسر جسري الذي أريده أن يكونه.. أمضى أسبوعا مع جسدي ومالي،

ثم رحل فجأة.. نسي أن يطلقني، ونسيت أن الأمر يحتاج هكذا، في غيبوبة الأشياء نفقد الذاكرة..

كنت على أمل أن يقتنع، أسعده بما أملك من جسدي ومالي لعله يرتوي، أصبر على حقارته في التعامل معي حينما يستبد به السكر، وقد أحرقت مراكبي ورائي، لكن عندما اختفى، وربما سافر، جاهدت أن أصلح مراكبي، من الخشب المتفحم، أن أعود إلى قريتي، إلى بيتي، أن أخترع كذبتي بأني سافرت في سياحة، وأن ترى أمي كيف بدت لي أيام سياحتي بأقل ألم يمكن للعيون الباكية أن تقوله.

هل تعرف أنه يشاع عن البطاريق أن كلا منها ينسج علاقة «حب» مع شريكه تؤسس تزاوجا مدى الحياة؟ كنت مغرمة بهذا الطائر، ثم عرفت أنه حتى هذه الطيور الجميلة تخون شريكها، كما أن الإناث تتبادل خطف أفرخ بعضها البعض.. لا أريد الكتابة عن الخيانة، لكن لعلك تدرك ما أعنيه..

وسأعفيك من مشقة هذا الفضول لمتابعة ما حدث، لدي حكاية أشد طزاجة.. في مواجعها، كأنما علينا إيقاظ المواجع النائمة معنا كي تعيش بيننا بقية اليوم، كصديق مقرب.

صباح اليوم استيقظت لأجد أمي تبكي، اعتادت أن تبكي، وأسمعها، لكن ليس هكذا، هي العائدة من زفاف أحدهم في حارة ليست مجاورة لنا تماما، زيجة ثانية لشاب يعمل معلما في مدرسة تبعد عن بيتنا بضع دقائق مشيا.

طبيعي أن يتزوج أحدهم ثانية وثالثة ورابعة، ويصادق مثنى وثلاث ورباع، واهم من لا يصدق ذلك ولا يستوعب، وإلا ما اتخذوا هاتفين أو ثلاثة، ولا انحنت رقابهم على الهواتف ضاغطة أصابعهم على الشاشات تكتب ليلا ونهارا.

إنما ما ليس طبيعيا أن تبكي أمي بعد زفاف ما..

عادتها أن تأتي فرحة مرة، مهمومة مرة، صامتة مرات.. وتبقى بهذا الصمت ساعات أو أياما، كأنما تغالب عقلها في مسح ما لا تريد الاحتفاظ به، وتعاني في عملية الإلغاء، عصيّ فوق قدرة أمي، ومحزن أكثر من قدرتي على الاحتمال، هي أمي مهما بدت المسافة بعيدة، ليس لي كائن غيره يقاسمني هذه الحياة بمحبة لا شك فيها، وإن بدت حرارتها عميقة، كأنها ساكنة في بئر عميقة جدا، حدّ عدم الشعور بها.

كوّرت ورقة نقدية في يدها ورمتها بخنق، كانت من فئة الخمسين ريالا، مبلغ اعتيادي أن تناله أمي أحيانا، فما الذي تغير؟

نسيت أن أخبرك عن منزلنا، كبير جدا وصغير جدا، غرفتان تجمعهما صالة تكاد تكون جزءا من حوش واسع، في زاويته الشمالية تربط أمي مجموعة أغنام تحت غطاء سعفي تمضي في الاعتناء بها جلّ وقتها، وعلى طرف شرقي ما يشبه الخيمة الصغيرة، مبنية بالاسمنت حتى منتصفها، ثم تكمل الأخشاب وجذوع النخيل ارتفاعها لتتخذ شكل الخيمة، تكاد تكون مخزنا لقدمها، لكن آهة أمي العميقة إذ تدفعها من صدرها تصيبني بجرح سؤال وحرج إجابة أشعر أنني أخافها أكثر مما أريدها.. أي سر يا

أمي وراء هذه التنهيدة المفخخة بحزن هائل على ما لا أدركه؟! كأنما هناك فقد ما تداريه كي لا يخرج من هذه الخيمة العتيقة فتستبقينه هناك خشية عليّ منه، ولا تخشين ألم حزنه وأنت تستعيدينه دوما؟!

نقتسم، أنا وأمي، غرفتي البيت، لكنني أتسلل إلى غرفتها أحيانا، خاصة في حالات غيابها، كأنما أبحث عن تلك الحرارة الخفية في علاقتي مع أمي، عن حرارة محبتها لي، أحتاجها بصدق..

حينما أتعب من الزيف، زيفهم، وزيفي أيضا، أدخل غرفة أمي..

أفتح رئتي على وسعهما لأنثر رائحتها على روحي، وأغمض عيني لعلي أرى في وجهها غير تلك النظرة المنطفئة، مع إيماني أن ذلك مجرد ضباب يحجب ألف صورة خلفها.

أمرتني أن أخرج، أن أتركها في بكائها، أن أفسح لها الطريق كي تغسل ذاكرتها مما لا ترغب تذكره، هذه المرة لا يكفيه الصمت، يحتاج إلى حالة نحيب ترغب أمي في مداراتها داخل غرفتها الصغيرة والبسيطة، لا شيء سوى فراش تمدّه وقت النوم وتطويه ساعة استيقاظها، وآخر تلتحف به، وفي الصيف تفرشه فوق السابق لتنام عليهما معا، أما وسادتها فهي للنوم وللاتكاء عندما تجلس في حالاتها التي لا أريد التلصص عليها قدر ما يدفعني فضولي لأعرف أمي، أكتشفها، أكتشف هذه المرأة التي جئت من رحمها، وأعيش معها، جزء منها أنا، وهي أكبر من أن تكون جزءا من حياتي.

كانت ورقة الخمسين ريالا في بقعتها التي وصلت إليها ليست بعيدا

عن دولاب صغير تضع فيه أمي حاجاتها، اقتنعت بوجود دولاب بعد سقوط باب مندوسها القديم، رفضت أن ترميه، ورفضت أن تأتي بشبيه له.

– أمي، ما بك؟

– البيوت أسرار، أليس كذلك؟

– وبيتنا يفترض أن يكون به أسرار، بيني أنا وأنت، قولي شيئا من أسرارك وسأقول لك شيئا من أسراري، نتبادل..

– أول مرة تبكي بعد .....

نهضت من مكانها، خرجت من الغرفة..

وخرجت من البيت.

حتى ذخيرتها من الأمثال لم تقذفني منها بشيء..

وأبقتني في غرفتها وحيدة، خرجت مع أسرارها، وبقيت مع أسراري، أعرفها هذه الأسرار في قلبي، رغم أنني لا أفهمها جيدا، ولا أعرف تلك الأسرار في قلب أمي، لكنني أشعر بقدرتي على فهمها.. جيدا.

هذه الأنثى أمامك، واثقة تبدو، مهلهلة تبدو، مرتبكة، خائفة، شجاعة، جريئة، كأنما هي نساء عدّة اجتمعن فيها، أو هكذا تصور لي نفسي، ربما أكون إنسانة متكررة الحدوث ملايين المرات، لكنها تدّعي أنها.. غير.

بين صف الروايات في غرفتي المتداعية كتداعي روحي قلّبت أوراق

رواية الأيام الخمسة الأخيرة لرسول، لمؤلفها تحسين يوجل، قرأت حوارا يشبهني تماما:

- «إلى أين السفر؟

- إلى المحطة الاخيرة.

- وما هي المحطة الأخيرة؟

- المكان الذي يتوقف فيه القطار في نهاية الرحلة؟

- وما اسم المكان الذي يتوقف فيه القطار في نهاية الرحلة؟

لم يكن رسول يعرف»...

ولا أنا أعرف.

لا أظنك ستتعب كثيرا في إعادة كتابة رسالتي هذه، أشعر أنني تعبت في كتابتها، أحاول أن أقلّدك، لكن عندما أكتب باللغة التي أجيدها أشعر بارتياح أكبر.

أشعر بفضولك لتكمل بقية الحكاية، أين ذهبت أمي؟ ومتى عادت؟ وهل تغير شيء في حزنها؟

لن أجيبك، لأنني أنا من ذهبت إلى البيت القابع في تلك الحارة التي لا تجاور حارتنا تماما..

وطرقت الباب.

استأذنك الآن، لديّ ما سأخبرك به لاحقا.

اسمها هند

هل تتعمد جرّي إلى متابعتها، بمكر الأنثى، ودهاء تتقنه هذه المرأة؟

الانتقام مني أيضا، من الرجل داخلي، أو كما تقول من "الذكر" الساكن فيّ رغم سعيي للتخلص من تهمته البغيضة، محاولا مساندة فكرة "الأدب الرجالي" لا "الأدب الذكوري".

كان يمكنها أن تكمل الحكاية، وأن تبدأ رسالتها بما وصلت إليه من أسباب بكاء أمها، المكوبرة، بعد أن ذهبت إلى ذلك البيت.. وطرقت الباب كما تقول.

بقيت شبه محايد أمام رسالتها، ولأني أريد عدم تكرار أسلوب روايتي الخشت فلم ألجأ إلى "العامّية" في كتابة الحوار، محاولا عدم التدخل في صياغة المشاعر بينها وأمها قدر الإمكان، في صفحات هند هناك حريتها للتعبير عن "أناها" وفي صفحات كتابتي عنها حريتي في التعبير عن "أناي" إذ تتداخل مع حكاية أنثى تطل من بعيد لا أتبيّنه بما يكفي، ومن قريب لا أصل إليه كما ينبغي.

ويتكرر السؤال للمرة الألف، ما الذي يعنيني في حكاية كهذه؟

هي شهرزاد الحكاية تنبت من جذور تاريخي مرة أخرى، لكني لست بشهريار يا هند، مهما أغوتني الحكاية، ومهما أغوتني الأنثى.

ضغطت على مشغل الموسيقي، كانت السيمفونية الخامسة لبتهوفن تهدر بضربات القدر، كأني أرى بتهوفن المسكين العاجز عن دفع إيجار غرفته يتخيل الرجل الرأسمالي يلاحقه بأربع ضربات على الباب بعد تأكده أن بتهوفن داخل غرفته، ولا يستطيع الادعاء مرة أخرى أنه خارجها، بيتهوفن يستمع إلى الطرقات بما جعله يقفز إلى البيانو آخذا بالعزف مع الخبطات على الباب، أربع ثم يتوقف، ثم تتسارع، فكانت الحركة الأولى في هذه السيمفونية العجيبة.

كنت أتخيل القدر أيضا يهجم عليّ كما هجم صاحب الغرفة على الموسيقار العظيم، لكنني أضعف من احتمال هذه الطرقات، ولن تجعلني عظيما أبدا، أبدا، ضربات السيمفونية تتوالى، مرة قوية وأخرى ضعيفة، مع الخبطات الأربع، على باب الغرفة، أو على مفاتيح البيانو، وكأنها كلما هدأ تيار النهر واستقامت انسيابية مائه تباغته العاصفة مرة أخرى، فتأتي "الخبطات" قوية.

أغالب نفسي أن تساءلني عن حقيقة ما قلت..

وأرتجف على سطح الورقة، مستعيدا بعض الرسائل القصيرة جدا لهذه الـ"الهند"، ربما رأتها عيناي مرة أو مرات، وهي تستعذب المضي بي في متاهة التخفي، وسطوة السير تحت سماء غائمة، فوق شوك الأسئلة.

أخبرتها ذات مرة أنني أقرأ رسائلها بينما أسمع صوت عبدالكريم عبدالقادر يأتيني بأغنية "اعترف لك".. وصار عادة أن أفعل ذلك مع وحدتي في مكتبتي المنزلية إذ أترقب رسالة منها، وإذ أقرؤها، وحيث تتشكل عبر حروفي ورقة جديدة في مشروع روايتي / روايتها.

موسيقى أغنية عبدالكريم حالة وجد خاصة، من الزمن الجميل، من المزاج الرائق، "أعترف لك أن الليالي في غيابك سهرني، اعترف لك.. اعترف لك ما طرى لي من سوالف هيضّني، الحزن رسم بعيني والقدر بينك وبيني، وانجبرت اعترف لك، وش حيلة المجبور"..

وأسأل نفسي: ما الذي يجبرني على انتظار اعترافات أنثى؟! هل هي متعة الكتابة، إغواء كتابة رواية؟!

أو أنه شيء آخر؟!

لماذا أشعر بالحزن على أنثى لا أتبيّنها إلا من خلال رسائل بريد إلكتروني، هي من تحدد المسافة، ترسم أبعادها، خطوط السير، ليس لي من حق سوى المتابعة، المشي فوق الخطوات الممكنة، لا أتجاوزها.

لديها نصف الرواية فقط، رسائلها بعد أن عادت إليها مكتوبة بحروفي، وبينها تتراقص هذه الأنثى، شغفا أو ألما، وتبقى المساحة التي أمدّها أمامي بين رسالة منها وأخرى حكايتي الخاصة.

يبقى المقطع الأول من أغنية عبدالكريم قاطرتي للمضي في الكتابة، لا أنتبه لبقية الأغنية، سوى رجع الصوت في حنجرة هذا الفنان الحزين، أغنية تأتيني من الطفولة، تأتيني بالطفولة، وبحكايات من ألف ليلة وليلة

تخاتلني فتكتب هند بإيقاع صهيل السيف يخرج من غمد حامله يهدد بقطع عنق أنثى، لكن حكايات شهرزاد تلتقي بحكايات هند.

نمت على حلم الأفعى، كأني في صحراء تخرج امرأة من سرابات بعيدة، تقترب، تدور راقصة، تدور وتدور، يستدق الجسد كلما أسرعت في الدوران أكثر، يتحول إلى أفعى، افعى تبتسم، تشير بلسانها إلى اتجاهات حولي، الصحراء بصفرة الرمل، وتدور أكثر فتعود إلى المرأة التي كانت، طويلة وجميلة وشعرها ناعم يتداخل مع ملمس جلد الأفعى.

استيقظت على حيرتي..

إنما باغتتني صباحا فكرة صاخبة، ظلت تلحّ عليّ، كأنما تريد نسف الحلم الذي رأيته، فكرة استجبت لها سريعا، لأعرف لماذا تبكي تلك المكوبرة، وما الذي يجعلهن يمضين في مهنة تبدو مثيرة ومغوية في زمن القاعات والفنادق الضخمة التي يلتقي فيها العروسان، وقد لا يحتاجان كثيرا لفكرة إصدار شهادة بالعذرية، في زمن متغير يلتقي الشاب بالفتاة، قبل عقد القران أو بعده، ولا يكترثان بالمجتمع الذي يعتبر الزفاف هو الزواج الحقيقي المحتفي بفك صك العذرية.

اتصلت بصديقي د. سعيد..

- صباح الخير أيها الجميل.

- صباح النور أبو هشام، أخبارك؟

- كعادتي في الإجازة، أكتب..

- أين وصل مشروع الرواية؟

- هذا ما أريدك فيه، ومساعدتك، ولا أشك في ذلك.

- هههههه، مساعدتي!!! تدلل..

- هل تعرف "مكوبرة"؟

- هل تريد الزواج أو كتابة رواية؟

- عد إلى سؤالي.

- موجود، هذا تقليد محلي ما يزال القلّة جدا يحافظون عليه، ربما من باب الوفاء للتراث!.

- أطلق ضحكته المعتادة، قوية وصاخبة، لكني قاطعته:

- أريد مقابلة واحدة منهن.

غطّى على رغبتي بالمتابعة ضحكة د. سعيد، قهقهات أطلقها وأعرف نصاعتها، الروح الآسرة بالفكاهة، ويعود للسؤال عن سبب يربط الرواية بالمكوبرة، أو أنه فضول الصحفي لكتابة تقرير ما عن عادة عمانية تقاوم الاندثار.

- ما الذي يدفع المكوبرة للبكاء؟

- من قال لها إنها تبكي؟!.

ابنتها هند.

- هههههههههههههههههه.. لا أظن أن المكوبرات في قريتنا يسمّين بناتهن باسم هند.

- أريد أعرف تفاصيل هذه المهنة، أو سمّها كما تحب، سأباغت هذه

الـ "هند" بمعرفتي بها إذ أعرف عمل أمها، وما الذي لا تريده البنت في هذا العمل؟ ... ووووو.

- فكرة جميلة، سنرتب الأمر.

- أريد واحدة منهن تشبه أم هند، أريد واحدة تبوح بأسرار عملها، لا بأسرار الآخرين، أم هند لا تتكلم.

- صرت تعرف جيدا كيف تفكر أم هند؟!

- ربما تقودني المصادفة إلى أم هند، أو واحدة تعرفها، جنوني الصحفي يقودني أكثر من عقلي، لنتبع هذا الجنون طالما أن العقل يدفعنا إلى البرود أحيانا.

- جنونك ينفعنا، يعطينا قصصا وروايات.

- إذن أنتظر منك أن تساعدني في متابعة هذه الفكرة المجنونة.

- سيحتفي بك هواة التصيّد.

- لو أمرهم يعنيني لما كتبت حرفا.

وسألت نفسي: هل فعلا سأذهب إلى هذه المغامرة، ألتقي بامرأة لا أعرفها، وأطلب منها أن تبوح لي بأسرار مهنتها..

وذلك من أجل أن أعرف "هند"؟

سمعت زوجتي صوت حديثي الهاتفي، دخلت مكتبتي، قالت: ظننتك تكتب فما أحببت مقاطعتك، قلت لها إن المحادثة من أجل الرواية، سألتني عن أي رواية هذه أكتبها من خلال البريد الإلكتروني

ومن خلال الهاتف.

أجبتها: د. سعيد طلبت منه ترتيب مقابلة مع "مكوبرة" في بلدتهم..

نظرة من زوجتي كانت كافية لتختصر عليّ ما حاولت تجاهله، وربما هناك مساحات مما لم أفهمه من تلك النظرة.

كأنما حقا يأتي السؤال: هل طبيعي ما يحدث؟ وهل الرواية هي حدود ما يحدث، وربما ما سيحدث؟!

هل أتبع الأنثى التي اسمها هند وأذهب إلى مواعدتها مدّعيا أنني ذاهب إلى من يشبه أمها، أم حقا أريد مقابلة امرأة لا علاقة لها بهذه الشخصية "الافتراضية" الآتية من زمن التقنية، المتدثرة بلحاف "جي ميل"؟

ضعفت عن لوم زوجتي بالشك في أمر كهذا، ربما أنا أشك أنها تشك، في الواقع قد يكون الأمر مختلفا..

- لا تشكّي في شيء، هذا مشروع رواية.

- هل فعلت ذلك في رواياتك السابقة!

- لا، لا أنكر أن ثقتك أعطتني حرية في الكتابة.

لم تزد على حوارنا القصير أكثر من ابتسامة..

الطريق تصعد بنا إلى أعلى السلسلة الجبلية عبر منحنيات الشارع وهو يمضي نحو القمة، البيوت والبنايات والمساجد وسائر معالم المدن من حولنا تصغر قبل أن يأخذنا الجبل في دواخله، وأن تترقبنا مدينة اخرى على الناحية الأخرى في فضائها الغباري حيث الفضاء الأرضي

يحاول تغطية عريه بالبيوت، المتناثرة / المتكاثرة عاما بعد آخر.

القرية تتأهب لمسائها، الصيف بطيء في انسحابه، والبحر امتداد من الأخيلة تنعكس على سطحه الأزرق سحب فتربك زرقته بين بياض السحب وسوادها.. وتدرجات بين هذين اللونين، كأنها محاكاة علوية للبشر السائرين على الأرض.

حاذينا سيارة أخرى تنتظرنا لنقف، وبعد أن استوينا جميعا في تلك السيارة سألني مستقبلنا:

- هل حقا تريد مقابلة المكوبرة؟

- نعم.

- شغل صحافة؟

- لا، مشروع روائي.

- المكووووووبرة!!

- أليست إنسانة؟

-نعم، لكنها...

- بنفسك لم تستطع أن تجد وصفا لها تستطيع أن تنطقه.

- ليست عنصرية..

- ربما كذلك، وربما لأن عملها ليس مديرا عاما.

- لا أقصد ذلك، عملها الوقوف على أبواب العرسان، ربما حاليا لا تفعل ذلك.

obeikan.com

- وهذا عمل يستحق بحثه، كيف أراده المجتمع ولماذا ومن فرض عليه ما لا يريده؟!

- هذه عادات وتقاليد لم تعد موجودة كما كانت.

- إذن تطورت، تغيرت، لكن لماذا حصل ما حصل، في مهنة كانت بالغة الحساسية، وتبدو غريبة جدا في زمننا، كأنما هي من حكايات ألف ليلة وليلة لفرط دهشتها؟!.

- "تريد تسوي حال عمرك مشاكل".

سأبقي جملته الأخيرة كما نطقها بالعامية، لأنها علامة على رؤية مجتمع لنفسه، ولغيره، لمكوّناته وتداعيات المتغيرات في باطنه، أغشية لا تريد الانسحاب تحت شمس مختلفة، تشرق في قرن جديد، لكنه القديم يغالب.. ويغلب كثيرا.

- تدخل كل بيت ولا نريد الاعتراف بها.

- تسمع كل صرخة ألم أو لذة بين زوجين يلتقيان على فراش حياتهما ونخجل من ذكرها.

- ننقدها مالا، وندّعي انها ملك لنا، للقبيلة، لها حق في كل فرح، أن تصاحب بناتنا إلى مضاجعهن الأولى في بيت الزوجية، أن تكون شاهد إثبات على طهرهن.

كنت أحاور نفسي، وسامعي صامت، لكنه قال إن ذلك "زمان"، إنما الزمان كان حاضرا بين يديّ، أسعى لاصطياده علّ بحر هذه القرية الهادئة يهديني بعض الإجابات لأسئلتي المتكاثرة.

أربعة في سيارة تمرق في دروب تضيق بها أحيانا، نحاول رتق آخر ما تبقّى من ثقوب المساء، نسأل عن بيت "المكوبرة"، شاب لم يعرفها، وطفلة مع ثلاثة صغار آخرين أشاروا إلى درب يفضي إلى مبتغانا.

كانت تجلس على كرسي أمام باب بيت صغير، لا يختلف عن بقية منازل حارات القرى الساحلية، حيث يسكن البسطاء في بساطتهم، يهجعون إليها، فرشت الحصير أمام الباب مباشرة، نصفه في الشارع المتفرع من شوارع متشابكة سبقته حتى وصل إسفلته إلى نقطته الأخيرة أمام بيتها.

صافحناها، ومدت يدا أوهنها الزمن، واشتكت من آلام مفاصلها، ومن الأطباء، وترقبت أن ندخل في ما نريده منها..

في تلك اللحظات امتدت دروب أمامي، تفتح مغاليقها هذه المرأة، في سمرتها قرأت أزمنة، في لهجتها عبرت أمكنة، أودية الزمان المهيب تركض في مكان تتداعى أسواره أمام عيني، أرقب يدها تمسح على يدها الأخرى، توهمت أن الكسر في يدها ما زال يؤلمها، كأنما هي أم هند..

- تعرفي أم هند؟

- من هذه هند؟!

- أسألك عن مكوبرة لديها بنت اسمها هند.

- ما عندي بنت هذا اسمها.

- أقصد امرأة ثانية.

- في هذه الحارة أنا مكوبرة.

- وفي الحارات الأخرى؟!

كانت تنظر إلى صديقي د. سعيد أو إلى أخيه علّهما يشرحان لها أكثر ما لا تستطيع أن تعرفه مني، بلهجة طازجة كنسمات البحر، أسمع السؤال بصيغة أخرى، والإجابة بصيغة أخرى لا تشبه ما أبتغيه.

أنظر في عينيها، عمق زماني بعيد، كأنها امرأة ليست من زماننا، قوة شخصيتها وهي تتحدث كرجل، وتتصرف كمحارب قديم، هي ليست هذه الواهنة على كرسي بائس، بل قائدة تتقدم طابور فرح، تلقي أوامرها، صوتها وحدها يعلو فتصمت بقية الأصوات.

- هل أم هند بهكذا شخصية؟

- ربما نعم، ربما لا.

- المكوبرات يتشابهن؟

- لكل واحدة شخصيتها، لكن في سبيل هدفهن يتشابهن.

- سمعتهن سيئة.

- تقول أم هند أنهن يختلفن، لسن سواء.

لا أعرف من كنت أحاور، لماذا جئت إلى هذه المرأة، هذه ليست أم هند، أنا أريد أم هند فقط، لا، قلت لنفسي لا، لا أريد حتى أم هند، أريد هندا فقط، حسنا، لماذا أريد هندا؟ قالت لا تريد الاستمرار في كتابة الرواية، هل عليّ أن أذعن حقا؟!

تقول هند أن أمها ارتحلت من مكان إلى آخر، سكنت مكانا جديدا،

ربما في قرية قريبة، حارة ليست بعيدة، ربما الحكاية ليست إلا افتراضا يطل من خلف شاشة حاسوب بفرضيّاته الصاخبة.

انتبهت للمرأة التي تتحدث أمامي، قالت للشغالة الآسيوية "هاتي الفواله" وبين الأمر والتنفيذ كنت أراقب المرأة بدهشة حكاياتها، أحضرت الشغالة صحنا به فواكه، ودلّتين، للشاي والقهوة، لكن صحن الحكاية أوسع من المساحات الممتدة أمامي في حارة اعتادت على صوت البحر ووشوشات المحّار.

- لماذا تبكي المكوبرة؟

- ما الذي يبكيهن؟!

- إذا أهانها أحد.

- لا يستطيع أحد إهانتها لأنها كالسيف تجرح من لا يعرف التعامل معه.

- كيف دوركن الآن؟

- نحمل العروس إلى سيارة العريس، نستلم حقّنا، وبعدها ينتهي دورنا، أما في الماضي....

وانفتحت نافذة من الحكايات، وبينها تطل هند، هذه تشبه أمها، وحكاياتها كالتي تعرفها أمها، وتعرفه هند، على أغلب الاحتمالات.. وكانت المكوبرة لا تتحدث فقط، بل تمثّل المشهد، تزغرد حينا، وتغني حينا، وتلوّن صوتها كلما دعا المشهد الذي تستعيده إلى ذلك، حتى صوت الديك المذبوح على إصبعي قدمي العريسين قلّدته..

"كنت، ومن معي، نجلس في بيت أهل العروس أسبوعا قبل الزفاف، نحيط بالبنت نخدمها، ونجمّلها، ونمنع عنها العيون، عينيْ العريس الذي لن يراها إلا ليلة الدخلة، وعين كل حاسد وحاسدة، وحين تحين الليلة كنت أحمل العروس..

- تحملينها.

- نعم، بالكاد أصابع قدميها تصل إلى الأرض.

- كنت قوية؟

- نعم، والبنات كنّ صغيرات، بعضهن 12 سنة أو 13 سنة، وبينهن لم يبلغن.

- حرااام.

- حرااااام؟!!! أحسن البنت تبلغ في بيت زوجها، ويستر عليها.

.. وأكملت: نحملها حتى نصل بها إلى الحجلة، يشبه السرير اليوم، أنصحه أن يراعي البنت التي بين يديه، ولا يؤذيها، كما أنصحها....

تحدثت المرأة كثيرا، بعضه لا يتناسب مع الرقيب، سأراعيه حتما، وأعذره، تقول إنها تجلس أمام الباب مباشرة، ولها حق التدخل في أي وقت، وحق الدخول على العريسين إذا اقتضت الظروف لأن البنت تعدّها أمانة واجبها المحافظة عليها، ثم تحملها لتحمّمها بنفسها، استنكرت عليّ استنكاري لذلك..

بدوت صحفيا يسألها عن التفاصيل، وينكر عليها ما عدّه غريبا، كيف تدخل على زوجين في عزّ اللحظات الحميمية لتطلب منهما خفض

الصوت، وتستنكر على الفتاة الصغيرة البكاء ألما، وتحمل العروس كطفلة صغيرة لتحمّمها وآثار حميمية لا تزال عالقة، تحمل القماشة البيضاء وعليها دم غشاء البكارة لتريه أهل العريس، وفي الصباح الباكر تذهب بها إلى بيت أهل العروس، قبل أن تدخل الباب تكون زغردتها سبقتها، تصل إلى الأسرة التي ودّعت ابنتها البارحة، وإلى الجيران الذين سيدركون طهر فتاة خرجت من حارتهم.

من خلف الباب لمحت الشغالة الآسيوية واقفة تضحك، شدّتها زغردة المكوبرة، ووقفت تستمع إلى غنائها، كأنما العرس القديم لا يزال ماثلا بين أيدينا في تلك اللحظة، غابت عني هند، نسيتها، عشت في حضرة امرأة لها دور في الحياة كالتي تقوم به أم هند.. هل هي من عمر هذه المرأة؟ وهي في بلادها التي لا أعرفها تقوم بهكذا أدوار أم أن العادات تختلف من ولاية إلى أخرى؟!

هذه المرأة تجلس أسبوعا قبل الدخلة وأسبوعا بعده.. هل أم هند تفعل ذلك تاركة هندها في البيت وحدها؟ في تلك الطفولة، أم أن هناك غيرهما في المنزل بقي مع هند في غياب أمها حينما كانت لا تستطيع البقاء وحيدة؟

- أبقى مع البنت أسبوعا..

- وإذا خاب ظنك ولن تأتي إليك القماشة بلون أحمر.

- سأعرف حالا، إذا من الولد سأخبر أهله، وعليهم أن يتصرفوا، ويفكّوا السحر والربط عن ولدهم، ولديهم فرصة أسبوع..

- وإذا كان من البنت..

- سأحملها ليلا إلى بيت أهلها..

- وما شعورك أنت؟

- أنا لي عمل محدد.. لا شأن لي بشرف العائلات ومشاكلها، أعود إلى بيتي.

- لكن اليوم لا يمكنك معرفة ذلك.

- اليوم لا نستطيع حملهن لأنه عمر الواحدة منهن فوق الخامسة والعشرين سنة، ويلبسن ما يشبه الخيمة..

ضحكنا على وصف الخيمة، فستان الزفاف في نظر هذه المرأة لا يعدو أكثر من كونه خيمة.. أضاعت عليها متعة حمل العروس، كما أضاع عليها الفندق التمدد أمام باب الغرفة، سماع الأصوات الآتية، تتذكر كيف كانت تضرب باب العريش أو الغرفة الطينية بعصاها، وتدخل على العريسين كقرصان يأمرهما بالتزام الهدوء، ويطلب منهما صك البراءة.

- .. وإذا ستر عليها، وطلب بقاءها؟

- مستحيل إلا إذا كان هو السبب.

- يعني؟!

- لازم ترجع بيت أهلها، هذه أمانة، وأهلها ينتظرون، لما أستلم قطعة القماش من العروس، وأشرح لها المطلوب، أصرّها في لحافي..

- به دم!

- أين المشكلة؟ من الواجب أن يعرف أهل العريس وأهل العروس أن العروس "بنت بيت" ولا يأتي أحد بعد ذلك ويتهمها بشيء، أكون أنا المسؤولة.

تذكرت هند.. وألقيت سؤالا..

- هل بناتك يساعدنك اليوم؟

- نعم، لكن لا يوجد عمل كما كان في السابق، فقط نذهب مع العروس إلى باب السيارة، ونعود إلى منازلنا، لا نذهب إلى بيت العروس لا قبل الزفاف ولا بعده، كل شيء تغير، محلات الكوافير تغني عنا، والفنادق تستر عنا.

لكن حقكم تأخذونه.

نعم، زمان أوّل كان خمس بيسات، واليوم 200 ريال، لكن بنفس القيمة، الخمس بيسات تكفينا للعيش أسبوعا أو أكثر.

كانوا يشترون البن لقهوتهم ببيسة، وأخرى للأرز، وثالثة للطحين، وهكذا..

وكانت المكوبرة تنقلني بين زمنين، وبين امرأتين..

وقبل أن أغادر المكان سألتها:

هل أسميت أحد بناتك باسم هند؟

شعرت بذات النظرة التي كتبتها هند عن أمها، وذلك الصمت الثقيل،

لكن عيني هذه المرأة لم تضيقا بل اتسعتا بقوة وقسوة، ولا أثر لأخدود يمتد بين متاهة وضياع، كانت نظرتها حازمة، والتفتت تودّع صاحبيّ كأني لم أقل شيئا.

بدت لي الحكاية مغارة موحشة، وفي العتمة أتلمس أوراقي، تتجاذبها مني هند، أمها، المكوبرة التي قابلتها، وأيادي من هناك تجذبها، زوجان في مفكرة هند، عابرو روح، عابرو جسد، للحكايات أذرعها.. وأنيابها.

في تلك الليلة رأيت الأفعى التي تخنق ضحيتها بجسدها، رأيت الصّوفي الراقص بقوة فتتحول ألوان ملابسه المتماوجة بسرعة الدوران إلى جلد أفعى، ورأسه يتحوّل بين رأس أنثى بشعرها المنفوش كأنها في جلسة زار، وبين رأس أفعى حقيقية .. ورأيت ذكر العنكبوت المتهاوي وليمة لأنثاه في يوم زفافه.. رأيت شابا تلقيه امرأة في صحراء، مغروس في صدره خنجر غمدها كرأس أفعى، وكانت زهر الزنبق يصعد من تلال الرمل حزينا كأن لبكائها دمعا يخطّ رسومات أفاع على التلال..

رأيت ما لا يحصى من إشارات حلميّة بقيت ساحبة ساعات يومي إليها.

فتحت دردشة "الماسنجر"، كتبت إليها..

- لم أطق صبرا لأعرف ماذا وجدت عندما طرقت باب البيت الذي عادت منه أمك باكية؟

- لا شيء.. عاد إليّ صوابي، كيف ستبدو ابنة المكوبرة في موقف كهذا؟!

- وضع محيّر ومريب.. سأخبرك شيئا.. البارحة كنت ذهبت إلى مكان سيفاجئك.

- أعرف.

- تعرفين ماذا؟!

- أنك قابلت مكوبرة.

- من أنت بالضبط، كيف تعرفين كل هذا عني؟!!

- حاول أن لا تغضب...

- أنت تراقبينني.

- دعك من ذلك، لدي مفاجأة لك.

- خير؟!!

- أريد أن أقابلك، هل تصدق؟

- طبعا لا أصدق.

- أمس قابلت مكوبرة، واليوم ستقابل ابنة مكوبرة.

- اليوم؟!!

- نعم اليوم، حاول أن تجد مبررا قويا لتخرج من البيت في السابعة مساء وتأتي إلى جراند مول، نفس المكان الذي قابلت فيه هاني.

- لماذا بالتحديد؟

- اعتبر ذلك مفاجأة روائية، أريدك أن تستمر.

- في ماذا؟

- كتابة مشروع الرواية.. إنما أخشى عليك.

obeikan.com

- من ماذا؟

- ستقابل امرأة لها جاذبيتها التي لا تصد، ستختلف عن كل النساء اللاتي قابلتهن، هل ستكفيك الكلمات لتصفني بعد ذلك؟

- واثقة من نفسك.

- جدا.

- رأيت صورك.

- قلت لك إنها صور صديقتي، أنا أجمل منها بمراحل، الصور لا تنقل الجاذبية والجمال.

- تشعرينني أنك تريدين مقابلتي كامرأة، لأنك تتحدثين عن جاذبيتك، وعن جمالك الأكثر من صديقتك.

- لدي مزاج اليوم لأقابلك كرجل، الكاتب الذي يكتبني، أن يجد تفاصيل أخرى يدخلها في روايته، وحتى تسخن الرواية أكثر.

هذه السخونة أخشى أنها تحرقنا.

- لن أترك لك فرصة أن تنال مني شيئا، فقط لا تتأخر حتى لا يخطفني أحد قبلك.. تبدو محظوظا.

- كيف؟

- الرجال يتمنون مني إشارة وأنا قادمة إليك بنفسي.

وخرجت من المحادثة فجأة..

أحسست بالحالة النفسية تتعمق في شخصية هذه المرأة، اللعبة

أوسع إغراء، أخطر، لن تبدو رواية، بل حلقة مفرغة من العبث، أن أقابل شخصيتي الروائية في مقهى قابلت فيه قبلي عاشقا أوسعها جراحا، كأنما تمعن بالانتقام منه عبر موعدي معها، هي من حددت خطوطه، وعبق زهر البنفسج يموج في رئتي.

أفكر بالخطر، تبدو الأشياء أوسع مما نعتقد، أو مما نستطيع..

سأكون بمواجهة امرأة كهذه، ستأتي ومعها تاريخها، الغامض أكثر ريبة مما تعرفه عن ذلك التاريخ بينها وأمها.. امرأة مطعونة، ربما قادمة في طريقها من عيادة الأمراض النفسية، ومعها ما لا أتبيّنه من رغبة ما لأني قابلت مكوبرة تشبه أمها، عرفت بغموض أشد أني ذهبت إلى هناك، أي رابط سري يعطيها ذلك عني؟!

تصبح المرأة أخطر.

تحوس الأفعى، الشر لا الحارسة.. وليس بيدي ذات العصا الثقيلة لأقتل الأفعى قبل أن تقذف سمّها، كأنما اختزنت انتقامها منذ تلك الطفولة، وحان دورها أن تأخذ بثأرها، تماهت صورة المرأة مع انسياب الأفعى في تلك الساقية العتيقة.. كانت ترفع رأسها تجاهي، أتذكر جيدا المواجهة، وكنت أفوز، أنتصر..

وأخشى اليوم من الهزيمة، تبدو لي المرأة كأفعى، الشر أو الحارسة.. في تلك القبيلة الأفريقية كان قاتل الأفعى يوضع في الماء أسبوعا ليتطهر مما فعل.

قلت لزوجتي إني ذاهب لمحاضرة في النادي الثقافي، قالت لي "خلي

بالك من نفسك"، وشعرت بالجملة نافذة إلى القلب هذه المرة، كأنما انكشفت أمامها حجب، قرأت في عيني عنوان المكان الذاهب إليه..

كانت مواقف المجمع التجاري مزدحمة، احتجت نصف ساعة لأجد مبتغاي، ومع ذلك دخلت المكان في الموعد المحدد، مشيت كأن المجمع التجاري يعرف مقصدي، وأن بطلتي الروائية تنتظرني هناك، أخيرا سأجلس إلى هند، المرأة الفاتنة التي سأشرب معها فنجان قهوة على غير عادتي..

سأجالس المرأة / الأفعى / بنت المكوبرة / المتهمة بقتل زوجها حمدان.. الحالمة بألمانيا، البطلة التي خرجت من شاشة الحاسوب، ومن الرواية..

كل ما رأيته في أحلامي تظاهر أمامي، سار عن يميني وشمالي، أمامي ووراءي، الأنثى التي ترقص وتدور بقوة حتى تتحول إلى أفعى، الأفعى التي تهتز كأنها راقصة تخرج لسانها وكأنها تقول أنا "هند".

اجتهدت لضبط خطواتي، استدرت يمينا نحو المقهى، مسحت بعيني المكان سريعا باحثا عن هند، المقاعد فارغة أو مشغولة بآخرين، مقعد تجلس عليه امرأة، بالغة القصر، سمنتها تبدو مفرطة، على وجهها الأسمر ما يشبه بقع نتيجة مرض جلدي قديم، هند؟! لا، غالبا، ربما، لا أظن، أتوقعها...

على غير وعي مني واصلت خطواتي، متخذا طريق الخروج إلى سيارتي، متجنبا مناقشة ما حدث حتى مع نفسي، كانت إذاعة الـ أف

أم تسفح مدخراتها من الأغاني فشعرت أن سيمفونية بيتهوفن تخرج وحدها، تلقي في وجهي ضربات القدر، أسكت صوت المذياع، لكن ضربات القدر لا تتوقف، رأيت في زجاج السيارة أمامي مقولة زوربا تكتبها هند أمامي، "الرجل حيوان حقيقي".

بعد عشرين دقيقة وجدتني أدخل النادي الثقافي بهاتفي التقطت صورة للمحاضر الذي يتحدث عن النيازك، وأرسلتها إلى زوجتي.

مع انتهاء المحاضرة، وقبل أن يفتح المجال للمناقشة مع الحضور اتخذت طريقي للخروج، على المقاعد نصف الدائرية في مدخل النادي رأيت المرأة، بالغة القصر، بالسمنة المفرطة، والبقع الدالة على مرض جلدي قديم، أسرعت في خطوي مستفيدا من انشغالها، ومعي خوف بالغ يدفعني للهروب من امرأة خرجت من باطن حاسوب، ومن أوراق رواية.

توقعتها أن تحاذيني بسيارتها في الشارع تستوقفني.. أن أجدها أمام باب البيت تنتظرني، أن تدخل إلى منامي تفصّل لي شكل الحلم الذي أراه.

عرفت الخوف، وبتّ معه، المرأة الجالسة في مقهى بمجمع جراند مول، وفي صالة الاستقبال بالنادي الثقافي، والجالسة على كرسي أنيق في جمجمتي، حدثتني نفسي أن أكتب إليها، عن موعد لم يكتمل لأني نسيته، لأني لم أجد عذرا جيدا أقوله لزوجتي، لأني ملتزم بحضور فعالية في النادي الثقافي.. فتحت الدردشة، ليست متصلة، وكتبت رسالة من كلمة واحدة، عبر البريد الإلكتروني، ناديتها فيها: هند..

هند.. تلك.

رنّ جرس الباب، ذهبت إليه، لم أجد أحدا، لكن باقة زهر بنفسج معلّقة بعناية.. ومعها تعلّقت عنقي في أنشوطة تميل بها في ريح لا أدري من أين تهب.. لا أعلم كيف ستصبح قوّتها.

obeikan.com

ربما.. اسمها ليس.. هند

على البريد الإلكتروني إشارة على عودة رسالة ما.. رفض البريد الذاهب إرسالها حينما تعذّر على الساعي إيصالها لمستلمها.

كانت رسالتي إلى هند، لم يعد عنوان ذلك البريد الإلكتروني متاحا، عادت رسالتي إليّ..

وتمنيت لو أعود إلى نفسي، بدون هند..

لكن للبنفسج رائحة في يدي، حتى والباقة تسكن سلة المهملات.. إنما اية رائحة؟! واية باقة!!

obeikan.com